د. محمد عمارة

في فقه المواجهة بين الغرب والإسلام



في فقه المواجهة
بين
الغرب والإسلام

الطبعـــة الأولى
١٤٢٣هـ ــ ٢٠٠٣م



شارع الفتح . أبراج عثمان . أمام المريلاند . روكسى . القاهرة
تليفون وفاكس: ٤٥٤٤٤٦٧ ـ ٢٥٦٥٩٣٩ ـ تليفون ٤٥٣٦٢٤٨
Email: adel almoalem < shoroukintl @ Yahoo. com

د. محمد عمــارة

فى فقه المواجهة بين الغرب والإسلام



بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

انطلاقًا من القرآن الكريم، يرى المسلمون ـ ويريدون ـ هذا العالم «منتدى» ثقافات.. وحضارات.. وشرائع.. وملل.. ونحل.. وفلسفات.. وأمم وشعوب وقبائل.. وأجناس وألوان.. ولغات وقوميات.

ويريد المسلمون لأعضاء هذا «المنتدى الإنسانى» «التفاعل» فيما هو مشترك إنسانى عام «والتمايز» فيما هو من الخصوصيات الثقافية والعقدية والفلسفية.. وذلك لتحقيق مقاصد التعارف والتعايش والتعاون على البر والتقوى فى القيام برسالة الاستخلاف الإلهى للإنسان؛ كى يعمر هذه الحياة الدنيا، طلبًا للسعادة الأخروية فيما وراء هذه الحياة.. هكذا يرى المسلمون العالم، ويريدونه، انطلاقًا من الآيات المحكمة فى القرآن الكريم..

● فالواحدية والأحدية هى للذات الإلهية ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

● والتنوع والتمايز والتعدد والاختلاف، سنة إلهية كونية لا تبديل لها ولا تحويل فى سائر عوالم المخلوقات والشرائع والثقافات والحضارات والأفكار والفلسفات ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

● وهذا التنوع والاختلاف.. وهذا التعايش والتعارف والتعاون بين المختلفين، هو فى الرؤية الإسلامية للعالم ـ الشرط الأول للتسابق والتدافع على طريق التقدم

والارتقاء والخيرات ﴿لكلٍّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ [المائدة:٤٨]، ﴿ولكلٍّ وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات﴾ [البقرة:١٤٨].

● وهذا التنوع والتسابق على طريق التقدم والخيرات هو النقيض «للصراع» الذى يفضى إلى أن يصرع طرف الطرف الآخر، فينهى التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف ﴿فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ۝٧ فهل ترى لهم من باقية﴾ [الحاقة:٧، ٨].

● وفى هذا «المنتدى الإنسانى» للحضارات العالمية، يرى المسلمون ـ انطلاقًا من القرآن الكريم ـ أن التكريم الإلهى إنما هو لمطلق الإنسان.. لكل بنى آدم، وليس وقفا على جنس أو لون أو حضارة أو ثقافة أو أبناء دين من الأديان: ﴿ولقد كرمنا بنى آدم﴾ [الإسراء:٧٠]، وفى التسابق والتدافع على طريق التقدم والارتقاء تكون التقوى وليست الصفات اللصيقة ـ العنصرية ـ هى معيار التفاضل بين الأفراد والجماعات ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ [الحجرات:١٣].

تلك هى الفلسفة القرآنية، المكونة لرؤية المسلمين للكون والعالم والإنسانية والوجود.. فهم يرون العالم ويريدونه منتدى أمم وشعوب وثقافات وحضارات وشرائع، تتوازن بينها «المصالح» لا «القوى» وتتعارف وتتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

● وبسبب من هذه الفلسفة ـ وثمرة من ثمراتها ـ لا يتحقق الإيمان الإسلامى إلا إذا آمن المسلم بكل الكتب السماوية، وبكل النبوات والرسالات والشرائع التى تتالت وتوالت على امتداد تاريخ الإنسان ﴿الم ۝١ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ۝٢ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ۝٣ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ۝٤ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ [البقرة:١ ـ ٥]، ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون

كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ولهذه الحقيقة الإيمانية، تميزت الرؤية الإسلامية بالاعتراف بكل الآخرين، كجزء من ذات الخلق الإلهى الواحد.. والدين الإلهى الواحد.. والتكريم الإلهى الشامل لكل بنى آدم.. كما تميز هذا الإيمان الإسلامى بإيجابه على المسلمين أن يمكّنوا كل الآخرين من حرية إقامة مقوّمات تميّزهم الدينى والثقافى والحضارى، حتى ولو كان هذا الذى يتميز به الآخرون مخالفًا لمقوّمات الاعتقاد الإسلامى، بل ومنكرًا للاعتراف بالمقومات الإسلامية وحتى لو كان هذا الإنكار فى دار الإسلام!

● ولم تقف هذه الرؤية الإسلامية عند حدود البلاغ القرآنى، والبيان النبوى لهذا البلاغ القرآنى.. وإنما ـ بسبب من أن الإسلام قد أقام دولة، وأبدع ثقافة ومدنية، وبنى حضارة، وكوّن أمة ووطنا، وصنع تاريخًا ـ بسبب من ذلك، وُضعت هذه الرؤية القرآنية فى الممارسة والتطبيق، فتعايشت وتعارفت وتفاعلت فى دار الإسلام كل ألوان الشرائع ـ السماوية منها والوضعية ـ والشعوب والقبائل والأمم.. فقامت الأمة والدولة، منذ فجر الإسلام وحتى الآن، على التنوع فى إطار الوحدة، كما قامت النظرة الإسلامية للعالم على هذا الأساس.

***

ولأن الإسلام، وهو يتطلع إلى «المثال» لا يُغفل «الواقع» فلقد علّم أمته كيف تتعامل مع «الواقع» الذى يفرض عليها خلاف هذا «المثال».

فالإسلام يرفض «الصراع» ليحافظ على التنوع والتمايز والاختلاف.. وهو يقرر ـ ربما دون كل الفلسفات ـ أن القتال ليس القاعدة، وإنما هو الضرورة المفروضة والاستثناء المكروه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].. ومع ذلك، فهو يوجب على المسلمين النهوض والجهاد لصد العدوان على مقومات تميّزهم الدينى، وعلى وعاء أمتهم وثقافتهم وحضارتهم ـ الوطن الذى يعيشون فيه ـ فإذا فرض الآخرون المواجهة على المسلمين، وإذا قاتلوهم فى دينهم أو أخرجوهم من ديارهم وأوطانهم، أو ظاهروا على إخراجهم من الديار.. فهنا يتعامل المسلمون مع «واقع» المجابهة والمواجهة والصراع والعدوان والقتال، الذى يفرضه عليهم الآخرون، وفق التوجيه القرآنى ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ

نصرهم لقدير ﴿٣٩﴾ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]، ﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ [البقرة: ١٩٠]، ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾ [البقرة: ١٩٤]، ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴿٨﴾ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

* * *

بهذه الرؤية القرآنية، وهذه الفلسفة الإسلامية فى رؤية العالم، وفى التعامل مع ما يفرض على المسلمين من مواجهات وتحديات يجب أن يتعامل المسلمون ـ اليوم ـ مع التحديات التى يفرضها الغرب على الإسلام وأمته وثقافته وحضارته وعالمه، كما تعامل أسلافهم ـ تاريخيًا ـ مع نظائر وأشباه هذه المواجهات والتحديات.. لا طمعًا فى إزالة هذا الغرب المعتدى من الوجود، أو طموحًا إلى الحلول محل حضارته وثقافته ومقومات نموذجه.. فهذا ـ علاوة على عدم إمكانه ـ هو مما يرفضه منطق الإسلام وفلسفته فى التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف، كسنة إلهية كونية دائمة ومطردة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.. وإنما الهدف هو رد العدوان عن مقومات الإسلام وعن ديار الإسلام، وصولا إلى تمكين الإسلام والمسلمين من العيش والتعايش الحر مع الآخرين، كل الآخرين ﴿ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم﴾ [فصلت: ٣٤].

بهذا الموقف، المنطلق من هذه الفلسفة، تعامل المسلمون ـ تاريخيًا ـ مع التحديات التى فرضها الغرب على الشرق، فكسروا شوكة موجات العدوان التى قام بها الغزاة الغربيون على ديار الإسلام.

● فالغرب «الإغريقى» و«الرومانى» قد فرض على الشرق احتلال الأرض ونهب الثروات وقهر الديانات والثقافات عشرة قرون ـ من «الإسكندر الأكبر» [٣٥٦ ـ ٣٢٣ق هـ] فى القرن الرابع قبل الميلاد، إلى «هرقل» (٦١٠ ـ ٦٤١م) فى القرن السابع للميلاد ـ فكانت الفتوحات الإسلامية تحريراً لضمائر الشرقيين من هذه الفتنة فى الدين، ومن القهر الثقافى والحضارى، وتحريراً للأوطان والثروات من هذا العدوان والاحتلال والنهب والاستغلال.

● ولأن هذا الغرب ـ كمشروع استعمارى ـ طامع فى الشرق وثرواته.. وفى احتواء ثقافات شعوبه وحضاراتها، لتأبيد الاحتلال والاستغلال.. فلقد اعتبر تحرير الإسلام للشرق من القهر «الرومانى ـ البيزنطى» بداية «المشكلة» هذا الغرب المزمنة مع الشرق الإسلامى ـ كما قال القائد والكاتب الإنجليزى الجنرال «جلوب باشا» (١٨٩٧ ـ ١٩٨٦م): **«إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط إنما يعود إلى القرن السابع للميلاد»!!** فلقد كانت عيون المطامع الاستعمارية الغربية موجهة دائماً وأبداً إلى محاولات استعادة الهيمنة الغربية على ديار الإسلام.. وإلى كسر شوكة المقاومة عند المسلمين، المتمثلة فى الإسلام.

وعبر هذا التاريخ من التحديات تكسرت على أرض الشرق الإسلامى موجات وموجات من العدوان الغربى، حتى لقد تحول الشرق الإسلامى إلى مقبرة لموجات وإمبراطوريات الغزاة الغربيين.

● فالموجة الاستعمارية الصليبية ـ التى شاركت فيها كل أوروبا ـ بقيادة الكنيسة الكاثوليكية، وتمويل المدن التجارية الأوروبية، وسيوف فرسان الإقطاع الأوروبيين، والتى دامت قرنين من الزمان (٤٨٩ ـ ٦٩٠هـ ١٠٩٦ ـ ١٢٩١م) قد انتهت بالهزيمة المنكرة، عندما اقتلعت الفروسية الشرقية ـ الأيوبية ـ المملوكية ـ قلاعها وهدمت حصونها، وأزالت كل آثارها.

● والموجة التترية، التى جاءت إلى الشرق الإسلامى، بدعوة من الصليبيين ـ الذين تحالفوا مع الوثنية التترية ضد الإسلام!ـ والتى عاثت فساداً و دماراً ضرب بهما المثل فى التاريخ، وذلك عندما دمرت الثقافة وأسالت الدماء أنهاراً.. هذه الموجة التترية قد ذاقت الهزيمة فى عين جالوت (٦٥٨هـ ١٢٦٠م) ثم انتهت

بدخول التتر إلى الإسلام، وتحولهم إلى سيوف للإسلام!

***

● ومنذ سقوط غرناطة، ونجاح الصليبية الأوروبية فى اقتلاع الإسلام وحضارته المشرقة من الأندلس (٨٩٧هـ ١٤٩٢م) بدأت مرحلة جديدة فى هذه الحرب «الاستعمارية ـ الصليبية» ضد الشرق والإسلام.

بدأت بالالتفاف حول العالم الإسلامى، واحتلال أطرافه الآسيوية.. ثم ثنت بغزو قلب العالم الإسلامى ـ الوطن العربى ـ منذ الحملة الفرنسية، التى قادها «بونابرت» (١٧٦٩ ـ ١٨٢١م) على مصر (١٢١٣ ـ ١٧٩٨م) وإبان هذه المرحلة، تميز التحدى الغربى الحديث عن الحقبة الصليبية الأولى بالغزو الفكرى المصاحب لاحتلال الأرض ونهب الثروة.. وهو تحد لم يكن موجوداً فى الحقبة الصليبية الأولى، التى قادتها كنيسة جاهلة، وفرسان إقطاع، صدق فيهم وصف الأمير الفارس الكاتب «أسامة بن منقذ» (٤٨٨ ـ ٥٨٤هـ ـ ١٠٩٥ ـ ١١٨٨م) عندما قال عنهم: «إنهم بهائم، ليس لديهم سوى فضيلة القتال»!!

ذلك أن الغزوة الغربية الحديثة قد جاءت مسلحة بأدوات النهضة الأوروبية الحديثة وإنجازاتها الفكرية ـ بالرأسمالية الإمبريالية.. وبالليبرالية الرأسمالية.. وبالثقافة العلمانية.. وبالفلسفة الوضعية والمادية اللادينية ـ فمثلت ـ مع احتلال الأرض ونهب الثروة ـ غواية التغريب للعقل والتبعية فى الثقافة.. بل وحتى التنصير فى الدين، ذلك الذى حاوله المنصرون.. مثلت الغزوة الغربية الحديثة كل ذلك فى ديار الإسلام!

وإبان هذه الموجة، الممتدة حتى صورتها المعاصرة: «عولمة» الإمبريالية الأمريكية المتحالفة مع العنصرية الصهيونية.. مثل الشرق الإسلامى مقبرة الإمبراطوريات الاستعمارية الغربية ـ الإنجليزية.. والفرنسية ـ وأشباه الإمبراطوريات، مثل البلجيكية.. والبرتغالية.. والهولندية.. والإسبانية ـ فطوت المقاومة وحركات التحرر الوطنى الإسلامية صفحات هذا الاستعمار، وإن بقى التحدى التغريبى يقاوم اليقظة الإسلامية والمشروع الحضارى الإسلامى حتى هذه اللحظات.

● ومنذ نهاية الحرب الاستعمارية العالمية الثانية (١٣٦٤هـ ١٩٤٥م) بدأت حقبة

الإسلام فى حربها ضد الشيوعية ـ كما استغلت المسيحية وكنائسها فى ذات الحرب، بذات المرحلة ـ ورأت أمريكا أن الإسلام يحث الخطا فى إيقاظ أمته، لا لتحرير الأرض والثروة فقط، كما هى حدود «الوطنية العلمانية» في بلادنا، وإنما تريد اليقظة الإسلامية تحرير العقل المسلم من التغريب، وبعث الحضارة الإسلامية، وتطبيق الشريعة الإسلامية، بدأت أمريكا مرحلة «الحرب داخل الإسلام» كى يظل كما أرادته ـ فى مرحلة «استغلاله» ـ مجرد شعائر وعبادات ورسوم وطقوس ودروشات وشعوذات، وذلك حتى يقف أثره.. مثل النصرانية فى ظل العلمانية ـ عند مملكة السماء، والخلاص الروحى، وعالم الغيب، والدار الآخرة، تاركا عالم الشهادة ودنيا المسلمين وأوطانهم وثرواتهم للهيمنة الأمريكية والعلو الصهيونى وعولمة الشركات متعددة الجنسيات وعابرة القارات!

ولقد تحدث الرئيس الأمريكى الأسبق «ريتشارد نيكسون» ـ وهو مفكر استراتيجى ـ عن هذه اليقظة الإسلامية، التى يقودها ـ فى العالم الإسلامى ـ من أسماهم «الأصوليون الإسلاميون»، الذين ـ كما يقول ـ: «هم مصممون على استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة عن طريق بعث الماضى، ويهدفون إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، وينادون بأن الإسلام دين ودولة، وعلى الرغم من أنهم ينظرون إلى الماضى فإنهم يتخذون منه هداية للمستقبل، فهم ليسوا محافظين، ولكنهم ثوار»!

ودعا «نيكسون» إلى اتحاد الغرب ـ الأمريكى والأوروبى والروسى ـ لمواجهة هذا البعث الإسلامى، وإلى «تحديد الخيار الذى تختاره الشعوب المسلمة»!! ليكون «نموذج تركيا العلمانية المنحازة نحو الغرب، والساعية إلى ربط المسلمين بالغرب سياسيًا واقتصاديًا»؛ وذلك حفاظًا على مصالح الغرب فى الشرق الأوسط «لأن أكثر ما يهمنا فى الشرق الأوسط هو النفط وإسرائيل.. وإن التزامنا نحو إسرائيل عميق جدًا، فنحن لسنا مجرد حلفاء، ولكننا مرتبطون ببعضنا بأكثر مما يعنيه الورق! نحن مرتبطون معهم ارتباطًا أخلاقيًا.. ولن يستطيع أى رئيس أمريكى أو كونجرس أن يسمح بتدمير إسرائيل»!

ولقد أفصح «نيكسون» عن الموقف الأمريكى الذى اتخذ الإسلام والمسلمين

عدوا، عندما قال: «إن الكثيرين من الأمريكيين قد أصبحوا ينظرون إلى كل المسلمين كأعداء.. ويتصور كثير من الأمريكيين أن المسلمين هم شعوب غير متحضرة، ودمويون، وغير منطقيين.. وليس هناك صورة أسوأ من هذه الصورة - حتى بالنسبة للصين الشيوعية - فى ذهن وضمير المواطن الأمريكى عن العالم الإسلامى.. ويحذر بعض المراقبين من أن الإسلام والغرب متضادان.. وأن الإسلام سوف يصبح قوة جيبوليتيكية متطرفة.. وأنه مع التزايد السكانى والإمكانات المادية المتاحة، سوف يؤلف المسلمون مخاطر كبيرة.. وأنهم يوحدون صفوفهم للقيام بثورة ضد الغرب.. وسوف يضطر الغرب إلى أن يتحد مع موسكو ليواجه الخطر العدوانى للعالم الإسلامى!»[٢].

كل هذا الذى كتبه «نيكسون» بالطبع كان قبل قارعة ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م بنحو خمسة عشر عامًا!.. بل وكان ما كتبه استشرافًا للمستقبل.. مستقبل الحرب الغربية - بقيادة أمريكا - المعلنة على الإسلام، منذ سقوط الشيوعية.. والتى تصاعدت بعد ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م، واجتمعت فيها على الإسلام القوى الغربية التى تحدث عنها «نيكسون» منذ ذلك التاريخ!

● وهذا الذى خطط له «نيكسون» قبل سقوط الشيوعية، نظّرت له وعللت لأسبابه-مجلة «شئون دولية» - التى تصدر فى «كمبردج» بإنجلترا فى يناير ١٩٩١م - عقب سقوط الاتحاد السوفييتى مباشرة، عندما تحدثت عن «الأفكار الرائجة فى الغرب حول الإسلام والعالم الإسلامى» وعندما عللت لإعلان الغرب أن الإسلام هو العدو الذى حل محل إمبراطورية الشر الشيوعية، وتحدثت عن الأسباب الثقافية لهذا العداء وهذا الإعلان للحرب على الإسلام.. ففى «الملف» الذى نشرته المجلة، ومن خلال دراستين علميتين رصينتين، إحداهما عن «الإسلام والمسيحية» كتبها العالم البارز «إدوارد مورتيمر»، وثانيتهما عن «الإسلام والماركسية» كتبها عالم الأنثروبولوجيا «إرنست جيلنر». قالت المجلة: «لقد شعر الكثيرون - فى الغرب - بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل التهديد السوفييتى وبالنسبة إلى هذا الغرض فإن الإسلام جاهز فى المتناول.. فالإسلام من بين الثقافات الموجودة فى الجنوب هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة، ليس

لسبب سوى أنه الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحدٍّ فعلى وحقيقى للثقافة الغربية؛ ذلك أن النظرية التى يعتنقها علماء الاجتماع، والتى تقول إن المجتمع الصناعى والعلمى الحديث يقوض الإيمان الدينى ـ مقولة العلمنة ـ صالحة على العموم.. فالتأثير السيكولوجى للدين قد تناقص عمليًا فى كل المجتمعات، وبدرجات متفاوتة وأشكال مختلفة. لكن عالم الإسلام قد مثل استثناء مدهشًا وتامًا جدًا من هذا، فلم تتم أى علمنة فى عالم الإسلام. إن سيطرة الإسلام على المؤمنين به هى سيطرة قوية، وهى بطريقة ما أقوى الآن عما كانت من ١٠٠ سنة مضت. إن الإسلام مقاوم للعلمنة نوعًا ما، والأمر المدهش هو أن هذا يظل صحيحًا فى ظل مختلف النظم السياسية. وإن وجود تقاليد محلية للإسلام قد مكّن العالم الإسلامى من أن يفلت من معضلة تقليد العلمانية الغربية.. وإن عملية الإصلاح الذاتى استجابة لدواعى الحداثة يمكن أن تتم باسم الإيمان المحلى، وذلك هو التفسير الأساسى لمقاومة الإسلام المرموقة للعلمنة.. وإن أوروبيين كثيرين يتساءلون: عمَّ إذا كان يمكن جعل الإسلام يقبل بقواعد المجتمع العلمانى، مثلما فعلت المسيحية بعد صراعات كثيرة وطويلة ومؤلمة؟! أم أن رسوخ الإسلام فى المجال السياسى والاجتماعى يجعله يرفض القبول بالمبدأ المسيحى الغربى الذى يميّز بين ما لله وما لقيصر، وبما لا يسمح لمعتنقيه أن يصبحوا مواطنين خاضعين للقانون بصورة يعول عليها فى ديموقراطية علمانية؟!».

هكذا حددت هذه الدراسة العلمية ـ لمجلة «شئون دولية» ـ أن استعصاء الإسلام على العلمنة، وعلى التحول إلى صورة من النصرانية الغربية، التى اكتفت بما لله، وتركت ما لقيصر لقيصر ـ بعد سلسلة من الصراعات الكثيرة والطويلة والمؤلمة! ـ حددت أن هذا الاستعصاء الإسلامى على التبعية الفكرية والثقافية للغرب هو السبب فى اتخاذ الغرب من الإسلام عدوًا، بعد سقوط الشيوعية، وهدفًا مباشرًا للحملة الغربية الجديدة على الإسلام!.

كل ذلك كُتب.. وأُعلن.. ووضع فى التطبيق على أرض البوسنة والهرسك سنة ١٩٩٢م فى ذكرى ٥٠٠ عام على سقوط «غرناطة» واقتلاع الإسلام من أوروبا سنة ١٤٩٢م.. أى قبل قارعة ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م بأكثر من عشر سنوات!

وقبل ظهور الحركات التى يزعم البعض أنها المسئولة عن عداء الغرب للإسلام!!

● وإذا كان المفكر الأمريكى «فرانسوا فوكوياما» قد كتب ـ قبل سنوات عديدة من قارعة سبتمبر ـ عن الليبرالية الرأسمالية الأمريكية [المتوحشة] باعتبارها «نهاية التاريخ الإنسانى»، والنموذج الذى يجب تعميمه فى كل أرجاء العالم، بما فيه العالم الإسلامى، فلقد كتب بعد قارعة سبتمبر عن «الحداثة التى تمثلها أمريكا والغرب، والتى ستبقى القوة المسيطرة فى السياسة الدولية.. وعن مبادئ الغرب التى ستستمر فى الانتشار عبر العالم».

وكتب عن استعصاء الإسلام وحده على الخضوع لهذه الحداثة الأمريكية، والقبول بهذه المبادئ الغربية «التى تلقى قبولاً كبيراً لدى الكثيرين من شعوب العالم غير الغربية، إن لم نقل جميعها.. بينما الإسلام هو الحضارة الوحيدة فى العالم التى يمكن الجدال بأن لديها بعض المشاكل الأساسية مع الحداثة الغربية. فالعالم الإسلامى لا يرفض فقط السياسات الغربية، وإنما يرفض المبدأ الأكثر أساسية للحداثة الغربية، وهو العلمانية نفسها.. وإن الصراع الحالى ليس معركة ضد الإرهاب. ولكنه ضد الأصولية الإسلامية التى تقف ضد الحداثة الغربية.. وهذا التحدى ـ بالنسبة لأمريكا ـ هو أكثر أساسية من الخطر الذى شكلته الشيوعية ـ[!!]ـ.. وإن التطور الأهم يجب أن يأتى من داخل الإسلام نفسه، وعلى المجتمع الإسلامى أن يصل إلى وضع سلمى مع الحداثة، وخاصة فيما يتعلق بالمبدأ الأساسى حول الدولة العلمانية»!!

فعلمنة الإسلام، ومن ثم إلحاق الإسلام بالنصرانية الغربية، لإلحاق العالم الإسلامى بالغرب هو الهدف الأول المعلن ـ فى كتاب «نيكسون» قبيل سقوط الشيوعية.. وفى دراسة مجلة «شئون دولية» فور سقوط الشيوعية.. وفى كتابات «فوكوياما» قبل قارعة سبتمبر وبعدها!.

● وإذا كان الكاتب الاستراتيجى الأمريكى ـ اليهودى ـ «صموئيل هنتنجتون» قد كتب، عقب سقوط الشيوعية، فكشف عن واقع ممارسة الغرب لصدام الحضارات، وصراع الثقافات.. وأشار على صانع القرار الأمريكى أن يبدأ مسلسل صدام الحضارات بالحرب على الإسلام؛ لتميز ثقافة الإسلام عن الثقافة الغربية،

ودعا إلى ما دعا إليه «نيكسون» من تحالف كل مراكز الغرب فى هذه الحرب الحضارية، لتكريس الهيمنة السياسية والعسكرية والاقتصادية الغربية على العالم.. فلقد عاد وكتب «هنتنجتون» بعد قارعة سبتمبر سنة ٢٠٠١م داعيًا إلى «حرب داخل الإسلام.. حتى يقبل الإسلام الحداثة الغربية والعلمانية الغربية.. والمبدأ المسيحى: فصل الدين عن الدولة»[٣]!!

تلك هى حقيقة القضية.. وهذا هو سبب التحدى.. وجوهر المواجهة التى فرضها الغرب ويفرضها على الإسلام وأمته وعالمه وثقافته وحضارته ومنظومة قيمه، عبر هذا التاريخ الطويل من الصراع، الذى كتبه الغرب على الإسلام وأمته.. وفرضه علينا ونحن له كارهون.

وكما قاتل المسلمون، امتثالاً لأمر ربهم، عندما كتب عليهم القتال الذى يكرهون.. فلقد وجب الدفاع عن الإسلام، الذى اتخذه الغرب عدوًا، لا لشىء إلا لاستعصائه على العلمنة التى يريدون فرضها على المسلمين، لتكريس تبعيتنا للحضارة الغربية.

لقد علمنا رسولنا ﷺ، فلسفة الموقف إزاء مثل هذه التحديات التى يفرضها علينا الأعداء، الذين يرون فى «الصراع» سر البقاء.. بل ويرون أن الأقوى هو الأصلح، الذى يستحق وحده البقاء!.. علمنا رسولنا ﷺ، فلسفة الموقف إزاء هذه المواجهات، عندما قال لأمته: «**لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، لكن إذا لقيتموهم فاثبتوا، وأكثروا ذكر الله**» رواه الدارمى..

فإذا فرضت علينا التحديات والمواجهات، فلا بد من الثبات فى مواجهة هذه التحديات.. ولا بد للذين يرابطون على ثغور الإسلام من الإكثار من ذكر الله، أى إخلاص العبودية لله، ومن ثم رفض جميع الطواغيت التى تفرض علينا التحديات، وتعلن الحرب على الإسلام، وتطمع فى تغيير طبيعة الإسلام.

* * *

وإذا كان الفقه هو «الفهم.. والوعى» فإن للانتصار فى هذه المواجهة، على هذه التحديات «فقهًا» تحتاجه الأمة بمختلف فصائلها، وعلى اختلاف ميادين هذه المواجهة بين الغرب والإسلام.

ففقه سنن هذه المواجهة هو الوعى الذى ينير للأمة المسالك والدروب، وهى تخوض هذه المواجهات التى فرضها عليها الأعداء.

ولقد علمنا رسول الله ﷺ منذ اللحظة الأولى التى دعا فيها قومه إلى الإسلام: «**أن الرائد لا يكذب أهله**».. ومكانة العلماء وأهل الفكر، من الأمة، هى مكانة الرواد والقادة المرابطين على ثغور الإسلام، ينيرون لأمته دروب الجهاد، بالفكر الذى هو من أمضى الأسلحة فى بعث الطاقات وحشد الإمكانات.. فالمعركة التى فرضها علينا الأعداء هى ـ بالدرجة الأولى ـ معركة «إرادة» فى الصمود والانتصار.. وبهذه «الإرادة» تكون «الإدارة» التى ترتب البيت وتعظم الإمكانات.

ولربما قادنا هذا الاستعداد ـ بصمود الإرادة الواعية.. والإدارة التى تعظم الإمكانات ـ إلى الموقف الذى يجعل الأعداء يراجعون مواقفهم الظالمة من الإسلام.. فيستجيبون إلى الكلمة السواء.. أن يكون عالمنا «منتدى» حضارات وثقافات وأمم وشعوب ولغات وقوميات وأجناس وألوان، تتعايش وتتعارف وتتفاعل وتتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

والله نسأل أن يجعل من فصول وصفحات هذا الكتاب إسهاما نافعًا فى فقه التحديات التى فرضها الغرب على الإسلام.. إنه، سبحانه وتعالى، خير مسئول وأكرم مجيب.

* * *

• الهوامش

(١) د. جابر قميحة: «سيد قطب والإسلام الأمريكانى» صحيفة «آفاق عربية» فى ٢٧ ـ ١٢ ـ ٢٠٠١م وهو ينقل عن مجلة الرسالة سنة ١٩٥١، سنة ١٩٥٢م التى نشر بها سيد قطب أجزاء من مخطوطة كتابه.

(٢) نيكسون (الفرصة السانحة) ص٢٨، ١٤٠، ١٤١، ١٥٢، ١٥٣، ١٣٥، ١٣٨، ١٣٩ ترجمة أحمد صدقى مراد طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢.

(٣) انظر دراسات «فوكوياما» و«هنتنجتون» فى العدد السنوى من «نيوزويك» الأمريكية ـ ديسمبر سنة ٢٠٠١م ـ فبراير سنة ٢٠٠٢م.

* * *

فى فقه الاستعمار الاستيطانى

الفقه، فى معناه الأوَّلى والأعم والأدق، هو: الفهم والوعى..

ولأن الإسلام دين الجماعة، ولأن شريعته ـ التى هى مرجعية الفقه الإسلامى ـ هى دين ودنيا، كان الفقه الإسلامى أكثر من وعى بالأحكام، وأكبر من فهم للنصوص والمأثورات الدينية، إذ لابد فيه، مع فقه «الأحكام»، من فقه «الواقع» الذى تتنزل عليه هذه الأحكام، ومن الوعى بمصالح الجماعة والأمة، ومن عقد القران بين فقه الأحكام وفقه الواقع، أى تنزيل الحكم على الواقع، تحقيقًا للمصالح الشرعية المعتبرة لأمة الإسلام وجماعة المسلمين..

وهذا المنهاج الإسلامى فى النظر الفقهى هو الذى يعصم الفقه الإسلامى من الفصام النكد بين النصوص والمأثورات والتراث وبين الواقع المعيش والمصالح الشرعية المعتبرة لجماعة المسلمين..

وإذا كان هذا الفصام النكد قد أثمر فى حياتنا الفكرية «فقهاء بالأحكام» لا دراية لهم بفقه الواقع الذى يعيشون فيه، و«خبراء بالواقع» لا دراية لهم بالشريعة التى أنزلها الله لتدبير وحكم حركة الواقع الذى يعيش فيه المسلمون.. فإن التأليف الخلاق بين «فقه الواقع» و«فقه الأحكام» هو السبيل إلى إخراج حياتنا الفكرية وثقافتنا الإسلامية من هذا الفصام النكد الذى يشكو منه الكثيرون..

بل لا نغالى إذا قلنا إن منهاج النظر الإسلامى إنما يدعونا إلى البدء بفقه الواقع حتى نبحث لمشكلاته عن الأحكام والحلول الملائمة فى فقه النصوص والمأثورات، فالشريعة الإسلامية، ومطلق الدين إنما جاء هداية إلهية لتحقيق المصالح الشرعية المعتبرة والسعادة الإنسانية فى المعاش والمعاد.. ففقه الواقع، والبحث عن ما يحقق مصالح جماعة المسلمين هو نقطة البدء والانطلاق، وفقه الأحكام هو السبيل

لضبط المصالح بضابط «الاعتبار الشرعى»، وذلك تمييزاً لهذه المصالح عن «المنفعة الدنيوية الصرفة»، المنفلتة من ضوابط الدين..

* * *

وإذا نحن طبقنا هذا المنهاج فى النظر الفقهى على القضية الفلسطينية، وصراع الأمة العربية والإسلامية مع الصهيونية والإمبريالية حول القدس وفلسطين، لضبط الفتاوى والاجتهادات والسياسات المتعلقة بهذه القضية وهذا الصراع، فلابد أن نبدأ بفقه واقع القضية الفلسطينية والوعى بالحقائق الواقعية لهذا الصراع؛ وذلك حتى نبحث لمشكلات هذا الواقع عن إجابات على علامات الاستفهام، وعن الأحكام الشرعية المحققة لمصالح الأمة فى قضايا هذا الصراع..

ولفقه هذا الواقع، وللوعى بالحقائق التاريخية ـ الصلبة والعنيدة، والمستعصية على الخلاف والاختلاف ـ فإننا نسوق عددا من هذه الحقائق والوقائع الحاكمة فى فقه ووعى طبيعة هذا الصراع المفروض على أمتنا:

● فمن الناحية التاريخية ـ للتاريخ القديم ـ لا وجود «الحق يهودى تاريخى» فى أرض فلسطين على وجه القطع والإطلاق.

فعرب فلسطين الحاليون هم الامتداد للكنعانيين، الذين هم من أقدم الجماعات البشرية التى وعى التاريخ سكناهم لأرض فلسطين، وأصل الكنعانيين هؤلاء أصل عربى خالص؛ لأنهم جزء من الهجرات العربية التى خرجت من شبه الجزيرة العربية إلى أرض فلسطين، التى سميت لذلك، فى فجر تاريخها بـ «أرض كنعان».

ولقد وعت ذاكرة التاريخ هذه الحقيقة قبل ٤٥٠٠ عام من تفجر الصراع العربى الصهيونى، ومن دعاوى الحق التاريخى لليهود فى فلسطين.. كما وعت ذاكرة التاريخ أن «اليبوسيين» الذين سكنوا فلسطين قديماً، هم الآخرون عرب، وهم الذين بنوا مدينة القدس فى الألف الرابع قبل الميلاد، أى قبل ثلاثة آلاف عام من الوجود الهامشى لليهود العبرانيين على مقربة من القدس!

● وإذا كان اليهود هم أتباع الشريعة اليهودية، التى جاء بها موسى، عليه

السلام، فإن موسى قد ولد ونشأ وبعث ومات ودفن فى مصر، ولم تقم بين اليهودية هذه وبين فلسطين، فى ذلك التاريخ، أدنى علاقة.. فلا توراة موسى نزلت بالقدس أو فلسطين - كما هى علاقة الإسلام والقرآن بالحجاز مثلاً.. وكما هى علاقة النصرانية والإنجيل بفلسطين - وإنما نزلت توراة موسى بمصر، وبلغتها الهيروغليفية!

ولقد رفض أتباع موسى - اليهود - دعوته لدخول الأرض المقدسة - أرض كنعان - فعاشوا وماتوا فى التيه - بمصر - دون أن تكتحل عين أى منهم برؤية القدس وفلسطين.

● أما العلاقة اليهودية ببعض أرض فلسطين، فهى علاقة طارئة ومؤقتة، بدأت فى عصر «يوشع بن نون»، الذى غزا بعض أرض فلسطين، بعد ١٥٠٠ عام من التاريخ العربى المكتوب لفلسطين العربية الكنعانية، أى ما بين سنة ١٠٠٠ وسنة ٥٨٦ ق.م، ولم يدم هذا الوجود اليهودى بأرض فلسطين - والذى ظل وجوداً قلقًا ومتشرذما - سوى نحو أربعة قرون - أى نصف عمر الوجود العربى فى بلاد الأندلس - ولقد شارك فى إزالة واستئصال هذا الوجود اليهودى من أرض فلسطين كل من الأشوريين والفرس والفراعنة والإغريق والرومان، بينما ظل الوجود العربى في فلسطين هو الراسخ والدائم منذ فجر تاريخ هذا البلد وحتى هذه اللحظات.

هذا عن التاريخ القديم.. وما يرتب من حقوق.. مع افتراض جواز توزيع خرائط وحدود الأوطان المعاصرة بناء على ذلك التاريخ القديم.. ولو جاز هذا الافتراض لطالب المصريون بإمبراطورية رمسيس الأكبر (١٢٩٠ - ١٢٢٤ق.م) وطالبت إيران بمملكة قمبيز (٥٢٩ - ٥٢١ق.م) وطالبت مقدونيا بإمبراطورية الإسكندر المقدونى (٣٥٦ - ٣٢٣ق.م) ولتحول العالم إلى صورة عبثية ليس لها نظير!

● أما فى العصر الحديث، فلقد بدأت علاقة المشروع «اليهودى - الصهيونى» بأرض فلسطين كثمرة للغزوة الاستعمارية الأوروبية الحديثة، التى بدأت بحملة بونابرت (١٧٦٩ - ١٨٢١م) الفرنسية على مصر (١٢١٣هـ ١٧٩٨م) أواخر القرن

الثامن عشر الميلادى.. فلقد أعلن بونابرت ـ وهو فى طريقه من «مرسيليا» إلى «الإسكندرية» ـ عزمه على تجنيد عشرين ألفا من أبناء الأقليات الدينية فى الشرق العربى الإسلامى؛ ليكونوا مواطئ لأقدامه الاستعمارية، وثغرات اختراق لوطن العروبة وعالم الإسلام، وفى إطار هذا المخطط، وسعيا لتحقيق هذا العزم، أصدر «بونابرت» نداءه إلى يهود العالم ـ الذين ينحدر أكثر من ٨٠٪ منهم من نسل «يهود الخزر»، الذين تهودوا فى منتصف القرن الثامن الميلادى، والذين لا علاقة لهم باليهود العبرانيين، ولا ببنى إسرائيل.. أصدر «بونابرت» نداءه إلى هؤلاء اليهود ـ الذين نشأوا فى آسيا الوسطى... والذين لا علاقة لهم بفلسطين ـ طالبا منهم القيام بدور الشريك الأصغر فى مشروعه الإمبريالى، لإقامة الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية، التى كان يحلم أن تعيد سيرة الإمبراطورية الإغريقية الاستعمارية التى بناها «الإسكندر الأكبر» فى القرن الرابع قبل الميلاد، والتى قهرت الحضارات الشرقية عشرة قرون، حتى أزالتها الفتوحات الإسلامية فى القرن السابع الميلادى.

ولقد قال «بونابرت» فى هذا النداء ـ الذى أصدره إبان حصاره لمدينة «عكا» سنة ١٧٩٩م ـ مخاطبا الجماعات اليهودية:

«أيها الشعب الفريد!... إن فرنسا تقدم لكم يدها الآن، حاملة إرث إسرائيل.. إن الجيش الذى أرسلتنى العناية الإلهية به.. قد اختار القدس مقرا لقيادته، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق، التى استهانت طويلاً بمدينة داود وأذلتها؟! يا ورثة فلسطين الشرعيين ؟! إن الأمة الفرنسية.. تدعوكم إلى إرثكم، بضماناتها وتأييدها ضد كل الدخلاء»!!

ومنذ ذلك التاريخ ـ على وجه التحديد ـ بدأت الشراكة بين قطاعات من الجماعات اليهودية وبين المشروع الإمبريالى الغربى ضد استقلال الأمة الإسلامية وتحررها وتقدمها.

● وعندما تراجعت ريادة الاستعمار الفرنسى فى هذا المشروع الإمبريالى الغربى، وتسلمت الإمبراطورية البريطانية قيادة هذا المشروع، تحوّل ولاء الجماعات اليهودية إلى الاستعمار الإنجليزى، الذى تبنى مشروع الشراكة هذا.. فسعت

إنجلترا، فى العقد الرابع من القرن التاسع عشر الميلادى، إلى إقناع السلطان العثمانى ـ سرا ـ بالسماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين، لإقامة كيان معاد لمشروع محمد على باشا (١١٨٤ ـ ١٢٦٥هـ ١٧٧١ ـ ١٨٤٩م) الذى سعى إلى تجديد شباب الشرق العربى الإسلامى، للحيلولة دون سقوط أقاليمه فى قبضة الاستعمار الأوروبى، الذى كان يحرس أمراض «دولة الرجل المريض» ـ العثمانية ـ حتى يحين الحين لاتفاق إمبراطورياته الاستعمارية على توزيع ووراثة أقاليمها وولاياتها.. فكتب وزير الخارجية الإنجليزى «اللورد بلمرستون» (١٧٨٤ ـ ١٨٦٥م) إلى السفير الإنجليزى فى «الآستانة» سنة ١٨٤٠م طالبًا منه إقناع السلطان العثمانى بالسماح بهذه الهجرات اليهودية إلى فلسطين؛ «حتى يكونوا حجر عثرة أمام محمد على باشا ونواياه والأغراض التى قد تخطر بباله أو بال من يخلفه»!!

فالهدف الثابت من وراء زرع هذا الكيان اليهودى الغريب فى أرض فلسطين، هو منذ بداية تفكير الاستعمار الغربى فى هذا المشروع: إقامة عازل يهودى، يمثل قاعدة استعمارية غربية، وامتدادًا للحضارة الأوروبية فى قلب الشرق العربى والإسلامى، للحيلولة دون أمتنا ودون الوحدة والحرية والنهوض.

● وإذا كان فقه الواقع هو الفيصل فى إقامة الحجة على انعدام مشروعية العلاقة بين اليهود وبين فلسطين ـ فى العصر الحديث، كما كان حال هذا الواقع فى التاريخ القديم ـ فيكفى أن نشير إلى منطق الأرقام، الذى يعلن أن لا شرعية ولا حق لليهود فى أرض فلسطين.. والذى يفصح عن أن علاقة اليهود الحديثة والطارئة بأرض فلسطين هى علاقة الاستعمار الاستيطانى، الذى تم فى ظل هذه الشراكة بين الحركة الصهيونية وبين الاستعمار الإنجليزى والاستعمار الأمريكى..

▪ ففى سنة ١٨٥٢م لم يكن الوجود اليهودى بفلسطين يتعدى ١٣,٠٠٠ نسمة، أى نسبة ٤٪ من سكان فلسطين.

▪ وعند قيام الحرب العالمية الأولى ـ سنة ١٩١٤م ـ كان عدد اليهود فى فلسطين قد بلغ ٦٠,٠٠٠ نسمة، يحمل منهم الجنسية العثمانية ٣٩,٠٠٠ نسمة فقط، والباقون إما زوار أو حجاج أو متسللون غير شرعيين... ولقد حدثت هذه الزيادة بفعل الهيمنة الإنجليزية على السياسة العثمانية، وبسبب الضعف والفساد اللذين

أصابا الإدارة العثمانية، وبالرغم من وعى السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى (١٢٥٨ ـ ١٣٣٦هـ ١٨٤٢ ـ ١٩١٨م) بخطر الهجرات اليهودية على فلسطين.

وفى مقابل هذا الوجود الهامشى لليهود فى فلسطين سنة ١٩١٤م كان تعداد الفلسطينيين فى ذلك الوطن يومئذ ٦٨٣,٠٠٠ نسمة، منهم ٦٠٢,٠٠٠ نسمة من المسلمين و ٨١,٠٠٠ نسمة من العرب المسيحيين.

■ فلما أعطت إنجلترا ـ التى لا تملك ـ لليهود الصهاينة ـ الذين لا يستحقون ـ «وعد بلفور» فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧م.. واحتلت جيوشها فلسطين سنة ١٩١٨م.. واستأثرت باستعمارها ـ تحت اسم «الانتداب» وفق اتفاقيات «سان ريمو» فى أبريل سنة ١٩٢٠م.. وأعطت «عصبة الأمم» لهذا «الانتداب» و«لوعد بلفور» «شرعية دولية» فى سنة ١٩٢٢م فتحت إنجلترا أبواب فلسطين للاستعمار الاستيطانى الصهيونى وللهجرات اليهودية ولبناء المستعمرات «الكيبوتزات» فقفز تعداد اليهود فى فلسطين من ٥٥,٠٠٠ نسمة سنة ١٩١٨م إلى ٦٤٦,٠٠٠ نسمة فى سنة ١٩٤٨م.. أى من ٨٪ من إجمالى سكان فلسطين إلى ٣١٪ من السكان وبعد أن كانت ملكية اليهود للأرض فى فلسطين لا تتجاوز ٢٪ ـ أى نصف مليون دونم ـ بلغت فى سنة ١٩٤٨م ٦,٧٪ أى ١,٨٠٠,٠٠٠ دونم من أرض فلسطين.

■ ومع كل هذا الذى صنعه الاستعمار الإنجليزى لليهود، سكانًا وتملكًا للأرض، طوال ثلاثين عامًا من الحكم الاستعمارى لفلسطين (١٩١٨ ـ ١٩٤٨م) ظل الوجود اليهودى فى فلسطين هامشيًا، وظل ـ حتى سنة ١٩٤٨م ـ ٦٩٪ من سكان فلسطين عربًا، و٩٣,٣٪ من أرض فلسطين مملوكة لسكانها العرب.

■ لكن قرار التقسيم لفلسطين، الذى أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة ـ القرار ١٨١ فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧م ـ قد أعطى لليهود ـ الذين لم يكونوا يملكون من أرض فلسطين سوى ٦,٧٪ـ أعطاهم الحق فى دولة مساحتها ٥٤٪ من أرض فلسطين!! وقرر للعرب ـ الذين كانوا يملكون يومئذ ٩٣,٣٪ من أرض فلسطين ـ دولة مساحتها ٤٥٪ من أرض فلسطين!!.. واستثنى هذا القرار مدينة القدس ـ ١٪ من مساحة فلسطين ـ من هذا التقسيم.

■ ولم تكتف الصهيونية ـ التى ضمنت لها أمريكا التفوق الحربى والحماية فى المنظمات الدولية ـ لم تكتف بهذا «السخاء» الذى جاءها من «الشرعية الدولية» فضمت ـ بالحرب، وبخرق الهدنة ـ المساحات الجديدة من الأرض والقرى والمدن الفلسطينية، حتى ارتفعت بما تحت أيديها من ٥٤٪ من مساحة فلسطين إلى ٧٧٪ من مساحتها.. وفى سبيل ذلك ارتكبت عصاباتها المسلحة ٣٤ مجزرة، وهدمت وأزالت ٤٧٨ قرية فلسطينية، محتها من الوجود، وسعت ـ بالإعلام والفكر ـ إلى محوها من ذاكرة التاريخ!

■ ورغم أن العرب داخل حدود الكيان الصهيونى ـ الذى قام سنة ١٩٤٨م ـ يمثلون خمس السكان ـ مليون من خمسة ملايين ـ فلقد جردهم الصهاينة من أرضهم، حتى أصبح خُمس السكان هؤلاء لا يملكون سوى ٣٪ من الأرض، بينما يملك اليهود ٩٧٪ من الأرض التى احتلت سنة ١٩٤٨م!!

■ أما القدس، التى ظلت عربية ثم إسلامية منذ تأسيسها على يد العرب اليبوسيين فى الألف الرابعة قبل الميلاد ـ أى قبل ثلاثة آلاف عام من الوجود العبرى الطارئ والمؤقت على مشارفها.. والتى لم يكن بها من اليهود فى العصر الحديث سوى عدد ضئيل من العائلات ـ لم تتعد ملكيتهم في القدس قبل سنة ١٩٤٨م ١٨٪ من مساحتها ـ فلقد سيطر اليهود وخاصة بعد سنة ١٩٦٧م ـ على ٨٦٪ من مساحتها، وقفزوا بالوجود السكانى اليهودى فيها إلى ٤٥٠,٠٠٠ نسمة فى مقابل ٢٠٠,٠٠٠ نسمة من العرب يعيشون تحت الحصار! وامتدت المصادرات الصهيونية إلى القدس الشرقية، لتشمل «حائط البراق» و«حى المغاربة» وأربعة أنفاق تحت الحرم القدسى، تهدد وجوده.. وذلك غير ما صودر من الأرض الفلسطينية حول القدس، والتى تحولت إلى حزام من المستعمرات التى ضمت إلى «القدس الكبرى» وإلى عازل بين القدس وبين الضفة الغربية التى احتلت سنة ١٩٦٧م.. وفوق ذلك، تشكلت التنظيمات الإرهابية الصهيونية ـ ٢٥ تنظيمًا ـ التى تعمل ـ بالدعم والإمكانات اليهودية والأمريكية ـ لهدم الحرم القدسى، وإقامة «الهيكل» المزعوم على أنقاضه!!

- وغدا المشهد المأساوى لواقع هذا الاستعمار الاستيطانى «الصهيونى - الإمبريالى» على أرض فلسطين على النحو الذى تجسده هذه الأرقام:

● فاليهود، الذين كان تعدادهم فى فلسطين سنة ١٨٥٢م ١٣,٠٠٠ نسمة أصبح تعدادهم فى فلسطين اليوم أربعة ملايين!!.. وبعد أن كانوا لا يملكون من أرض فلسطين سنة ١٩١٨م سوى ٢٪ أصبحوا يملكون ويسيطرون الآن على كل أرض فلسطين!!

ولقد أدى هذا الاستعمار الاستيطانى، والإحلال والاحتلال اليهودى لأرض فلسطين إلى طرد وتهجير ستة ملايين فلسطينى - منهم خمسة ملايين طرد آباؤهم سنة ١٩٤٨م.. ومليون طرد آباؤهم فيما بعد سنة ١٩٤٨م - يعيشون جميعًا فى المنافى والمخيمات والمستنقعات، على الصدقات!.. ويكونون أكبر كتلة من اللاجئين وأقدم مأساة للاجئين على النطاق العالمى! وأكبر ضحية لأبشع وآخر نماذج الاستعمار الاستيطانى عبر تاريخ هذا اللون من ألوان الاستعمار والاقتلاع والإحلال والاحتلال.. أما الأربعة ملايين يهودى الذين حلوا محل هذه الملايين العربية الفلسطينية، فإن ٩٦٪ منهم قد جيء بآبائهم وأجدادهم من مختلف بلاد الدنيا؛ ليغتصبوا الأراضى والمنازل والسيادة والأمن والماء والهواء على أرض فلسطين..

● إذن.. فكل اليهود على أرض فلسطين «لصوص.. ومغتصبون.. ومحاربون» حتى ولو لم يلبسوا «الكاكى» أو يدخلوا «الجيش»، أو يحملوا «السلاح».. فالتمييز هنا، والقسمة فى هذا المقام هى بين «محارب» و«مسالم» وليست بين «عسكرى» و«مدنى».. فالمستوطنون المغتصبون للأراضى والمنازل والديار والأمن والماء والهواء هم «محاربون» رجالاً كانوا أم نساء، وبصرف النظر عن الزى الذى يرتديه هؤلاء المغتصبون، وعلى تنوع السلاح الذى «يحاربون» به طائرات.. أو دبابات.. أو مدافع كان هذا السلاح، أم جرافات ومحاريث وأفكارا.. فجميعها أسلحة فتاكة، يدعم بعضها البعض الآخر، وتتكامل جميعًا فى الاغتصاب والاستعمار الاستيطانى لأرض فلسطين.

● كما أن قدم تاريخ السرقة والاغتصاب - فى الاستعمار الاستيطانى - لا يرتب شرعية ولا مشروعية ولا حقوقًا للصوص المغتصبين.. وإلا لجاز «الإفتاء» بأن لإسبانيا حقوقًا مشروعة فى أرض «سبتة» و«مليلة» العربيتين المسلمتين المغربيتين - على الساحل الأطلسى للمغرب - وهما محتلتان ومستعمرتان استعمارا استيطانيا منذ سنة ١٤١٥م وسنة ١٤٩٧م - أى قبل أربعة قرون ونصف القرن من الاستعمار الاستيطانى الصهيونى لأرض فلسطين.

● وإذا كان زنوج جنوب أفريقيا قد رفضوا الاستعمار الاستيطانى الأوروبى لبلادهم، والذى بدأته «شركة الهند الشرقية الهولندية» سنة ١٦٥٢م.. وظلوا يجاهدون قرابة أربعة قرون حتى أزالوا هذا الاستعمار الاستيطانى فى أواخر ثمانينيات القرن العشرين، وذلك دون أن يظهر بين هؤلاء الزنوج من «يفتى» بأن للمستعمرين البيض حقا تاريخيا فى أرض جنوب أفريقيا، أو أن هؤلاء المستعمرين هم «مدنيون أبرياء» وليسوا «محاربين»؛ لأنهم لا يلبسون «الكاكى» ولا يحملون «الرتب العسكرية»!.. فغير معقول ولا مقبول أن يظهر بين أمة الإسلام، التى جعل رسولها ﷺ الجهاد ذروة سنام الإسلام، وجعل رهبانية هذه الأمة هى الجهاد، وجعل هذا الجهاد - بما فيه القتال - فرض عين على كل مسلم ومسلمة إذا احتل العدو شبرا من أرض المسلمين - وفلسطين ليست شبرا، وإنما مساحتها ٢٧,٠٠٩ من الكيلو مترات المربعة! - وهى ليست مجرد «أرض»، وإنما هى «أرض مقدسة».

غير معقول ولا مقبول أن يظهر فى أمة الإسلام من «يفتى» بأن للصوص الاستعمار الاستيطانى حقا فى أولى القبلتين وثالث الحرمين، والأرض التى بارك الله فيها عندما جعلها مسرى الرسول الخاتم ﷺ ومعراجه إلى السموات العلى.

فالإفتاء - الذى يستحق صاحبه حمل أمانة التبليغ عن رسول الله ﷺ - لابد أن يبدأ بفقه الواقع.. واقع الاستعمار الاستيطانى، القائم على اغتصاب أرض القدس وفلسطين.. ذلك الذى تحالفت فيه الشراكة «الإمبريالية - الصهيونية» على اغتصاب المنازل والديار والأرض والأمن والماء والهواء من أصحابها الشرعيين.. فلا حرمة للص مغتصب.

وإذا كانت «اتفاقات جنيف» التي أقرتها الأمم المتحدة سنة ١٩٤٩م قد جعلت إقامة المحتل للمستوطنات على الأرض المحتلة، وتغيير طبيعة هذه الأرض المحتلة «جريمة حرب ضد الإنسانية»، فإن الكيان الصهيوني بكامله هو «جريمة حرب كبرى ضد الإنسانية»؛ لأنه ليس أكثر من استعمار استيطاني، منذ أول مستعمرة أقامها الصهاينة على أرض فلسطين إلى أحدث المستعمرات التي أقاموها هناك.

* * *

انتفاضة أرض الإسراء والمعراج

مع ذكرى إسراء نبينا محمد بن عبد الله ﷺ من المسجد الحرام ـ الحرم المكى ـ إلى المسجد الأقصى ـ الحرم القدسى ـ تبدأ انتفاضة الأقصى عامها الثالث، ليرمز هذا العناق إلى معنى عميق يجسد لأمتنا حقيقة أن تحرير الأقصى والقدس وفلسطين، واستقلالها الناجز والكامل، وتطهيرها من دنس الاستعمار الاستيطانى الصهيونى الإمبريالى، إنما هو: عقيدة إيمانية إسلامية.. كما هو شرط من شروط وحدة أرض الأمة العربية وتحقق القومية العربية.. وهو أيضًا الانتصار للوطنية الفلسطينية.

كما تمثل هذه الذكرى، بالنسبة للعقول والقلوب والأقلام المرابطة على ثغور الإسلام وأمته وعالمه، فرصة ومناسبة للتذكير ببعض الحقائق التى تثبّت قلوب المجاهدين وأقدامهم، وتشد من عزائمهم.. والتى تفتح الباب أمام المهزومين نفسيًا، الذين يخافون أمريكا أكثر مما يخافون الله، كى يراجعوا أنفسهم، فى ضوء هذه الحقائق التى تقدمها هذه السطور.

● وأولى هذه الحقائق أن انتصار الشعب الفلسطينى ـ حتى لو وقف وحده، وتخلى عنه المهزومون نفسيًا ـ هو سنة من سنن الله فى تدافع الحق والباطل، وحقيقة موضوعية تعلن عنها الآية الكريمة، التى هى قانون من قوانين التدافع والصراع: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، فكل تاريخ هذا الشعب كان سلسلة من الانتفاضات والهبات والثورات.. ولم يحدث أن انكسرت إرادة هذا الشعب أمام قوى البغى الصهيونى والعدوان الاستعمارى فى يوم من الأيام.

فلقد بدأ الفلسطينيون عقد المؤتمرات وتنظيم الجمعيات للتصدى للمشروع

الصهيونى، الذى رعته الإمبراطورية الاستعمارية الإنجليزية، والإمبريالية الغربية، منذ سنة ١٩١٩م.. أى عقب الاحتلال الإنجليزى لأرض فلسطين.

● وفى ٢٠ أبريل سنة ١٩٢٠م ثار عرب القدس الشريف ضد الاستيطان اليهودى فى المدينة المقدسة.. وتدخل الجيش الاستعمارى الإنجليزى فقمع أولى الثورات للعرب المقدسيين.. ثم تكررت وتجددت الاضطرابات العنيفة ضد الصهاينة فى سنة ١٩٢١م.

● وفى أغسطس سنة ١٩٢٩م تفجرت فى القدس وفلسطين «ثورة البراق» دفاعًا عن جزء عزيز ومقدس من أجزاء الحرم القدسى، الذى أراد اليهود اغتصابه، واتخاذه معبدا لهم أسموه «حائط المبكى».. ولم تهدأ توابع «ثورة البراق» هذه إلا بعد أن حكمت اللجنة الدولية، فى التقرير الذى رفعته إلى «عصبة الأمم»، بأن هذا الحائط هو جزء لا يتجزأ من الحرم القدسى الشريف، وأنه وقف من الأوقاف الإسلامية التاريخية فى المدينة المقدسة. وكان ذلك فى ديسمبر سنة ١٩٣٠م.

● ثم كانت الثورة المسلحة التى قادها الشيخ المجاهد عز الدين القسام [١٢٩٩ - ١٣٥٤هـ ١٨٨٢ - ١٩٣٥م] الذى ولد «بقضاء اللاذقية» - فى سوريا - ودرس وتخرج فى الأزهر الشريف - بمصر - واستقر فى «حيفا» - بفلسطين - بعد مشاركته فى الثورة السورية ضد الاستعمار الفرنسى سنة ١٩٢٥م.. وهناك - فى حيفا - اشتغل بالتعليم فى المدارس الإسلامية، ورأس «جمعية الشبان المسلمين».. وأخذ يدعو إلى الجهاد ضد الصهيونية والاستعمار.

ولقد مهد الشيخ عز الدين القسام لثورته هذه، بإقامة تنظيم سرى، ضم دوائر خمسة: للدعوة.. والتدريب العسكرى.. والتموين.. والاستخبارات.. والعلاقات الخارجية.. ثم فجر القسام ثورته المسلحة هذه فى ٢ نوفمبر سنة ١٩٣٥م بمنطقة «جنين»، فبدأ بها أولى خطوات الجهاد المسلح، كطريق وحيد لتحرير فلسطين من الصهيونية والاستعمار.. وتحول هذا الشيخ المجاهد إلى رمز لهذا الطريق منذ ذلك التاريخ وحتى هذه اللحظات.

● وعقب استشهاد الشيخ عز الدين القسام، وعدد من رفاقه، بنيران جيش الاحتلال الإنجليزى، بدأت المقاومة الفلسطينية سنة ١٩٣٦م تأخذ شكل التمرد

والاحتجاج والإضراب الذى امتد ثلاث سنوات. . . وارتاد الفلسطينيون ميدان المقاطعة للسلع الصهيونية والاستعمارية. . واستمر ذلك الإضراب الشهير حتى أجهضه الملوك والرؤساء العرب سنة ١٩٣٩م لحساب إنجلترا، التى كانت تسعى لتهدئة الساحة؛ كى تتفرغ للحرب العالمية الثانية، التى شبت فى ذات العام ـ كما تسعى أمريكا اليوم إلى قمع انتفاضة الأقصى كى تتفرغ هى وإسرائيل لتصفية بؤر المقاومة فى وطن العروبة وعالم الإسلام!.

• ثم كانت المقاومة الفلسطينية المسلحة، التى ساندتها كتائب الفدائيين العرب ـ وخاصة من مصر وسوريا ـ عندما صدر قرار التقسيم لفلسطين فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٤٧م. . وهى المقاومة التى بدأت قبل دخول الجيوش العربية إلى فلسطين فى مايو سنة ١٩٤٨م، والتى استمرت حتى أجهضتها الخيانات التى حدثت. . والهدنات التى فرضت منذ سنة ١٩٤٩م.

• ولقد استمر الرفض والمقاومة والمقاطعة سلاحًا بيد الشعب الفلسطينى، عبر تاريخ جهاده ضد الصهيونية والاستعمار. . وهو تاريخ يفند الأكذوبة التى أشاعوها عن أن الفلسطينيين قد باعوا أرضهم لليهود. فعند احتلال الإنجليز لفلسطين سنة ١٩١٨م لم تكن ملكية اليهود فى أرضها تتعدى ٢٪. . ولقد ارتفعت هذه النسبة سنة ١٩٤٨ إلى ٦٫٧٪ ليس بسبب بيع الفلسطينيين أرضهم لليهود، وإنما بالأرض الأميرية التى مكن الإنجليز منها الوكالة اليهودية والاستيطان الصهيونى. . ثم جاء قرار التقسيم ليرفع الـ ٦٪ إلى ٥٤٪ من أرض فلسطين. . ولتبلغ بعد ذلك ـ بنقض الهدنة. . والعدوان الصهيونى ـ حد ابتلاع كل فلسطين!

• وفى الأول من يناير سنة ١٩٦٥م بدأت حركة «فتح» حلقة جديدة فى سلسلة المقاومة المسلحة ضد الصهيونية على أرض فلسطين. . واتسعت دائرة هذا الكفاح المسلح فشملت فصائل منظمة التحرير الفلسطينية. . فلما حدث وأصاب الإعياء قطاعا من هؤلاء الثوار، أنبتت الأرض الفلسطينية الولود، من أحفاد عز الدين القسام، جيل «أطفال الحجارة» الذى أبدع «سلاح الانتفاضة» غير المسبوق فى تاريخ حركات التحرر الوطنى. . فكانت انتفاضة الحجارة فى ديسمبر سنة ١٩٨٧م طوق نجاة الكرامة العربية، التى أسقطتها أمريكا و«نظم قطع الشطرنج»

فى مستنقع الحرب العبثية التى دارت بين العراق وإيران، لثمانى سنوات استنزفت قدرات وطاقات العرب والمسلمين!

جاءت الانتفاضة الأولى، التى اتخذت هذه الصورة الفريدة، فكانت أشبه ما تكون «بالمغص» فى معدة العدو، شل فاعلية تفوقه فى الأسلحة التقليدية وغير التقليدية.. ونقلت المعركة إلى قلب العدو لأول مرة فى تاريخ هذا الصراع.

● وعندما حاول العدو إجهاض هذه الانتفاضة «بمتاهة أوسلو» سنة ١٩٩٣م، تلك التى أراد بها العدو - مع إجهاض الانتفاضة - تحويل الثوار السابقين إلى «إدارة بلدية» تدير الشئون المحلية لمعازل وكانتونات فلسطينية تعيش على الأرض التوراتية تحت السيادة الصهيونية، وليقوموا بحراسة الأمن الصهيونى من الثورة الفلسطينية، على النحو الذى صنعه الصهاينة مع جيش سعد حداد وأنطوان لحد فى جنوب لبنان!

● لكن الذين دخلوا «متاهة أوسلو» سنة ١٩٩٣م قد اكتشفوا بعد عشر سنوات من سياسة «دوّخينى يا ليمونة!» - التى برع فيها اليهود عبر تاريخهم الطويل - اكتشفوا أن الاستيطان الصهيونى قد أكل أغلب الفتات الذى تعلقوا بالحكم الذاتى فيه. وأن المتاهة التى بدأت بـ «غزة وأريحا» أولا.. قد انتهت بـ «غزة وبيت لحم» أولا.. وأخيرًا!

● لكن الشعب الذى سطر، عبر تاريخه النضالى، العديد من صفحات المقاومة والجهاد فإنه لم ينس ذلك الرمز المتميز فى مسيرته الجهادية.. لم ينس الشيخ عز الدين القسام، الذى جسدت ثورته سنة ١٩٣٥م نموذج الإسلام المقاوم، وإسلامية حركة التحرر الوطنى للقدس وفلسطين.. فكانت انتفاضة الأقصى، لأحفاد القسام، فى ٢٨ سبتمبر سنة ٢٠٠٠م.. والتى بلغت ذروتها فى ملحمة البطولة بمخيم «جنين» فى أبريل سنة ٢٠٠٢م - حيث استشهد القسام فى نوفمبر سنة ١٩٣٥م.. هذه الملحمة التى قادها مائتان من أحفاد القسام، فأذاقوا فيها القوة الصهيونية العاتية ما لم تذقه من الجيوش النظامية عبر أكثر من خمسين عاما من تاريخ هذا الصراع.

● وإذا كان المهزومون نفسيًا أمام آلة الحرب الصهيونية، لا يسمعون إلا «الكلام

المستورد» فليقرءوا شهادات الأعداء عن ملحمة جنين. فقائد لواء المظلات الصهيونى «آفى كوخافى» يقول عن المقاومين الاستشهاديين فى جنين: «إنهم يقاتلوننا بشكل لم يخطر على بال أحد من صناع القرار فى إسرائيل»! . . والضابط الصهيونى «حيمى شاليف» يقول: «سيذكر الفلسطينيون مخيم جنين كعاصمة للمقاومة الفلسطينية، أما بالنسبة لنا فسيكون هذا المخيم كآبتنا»! . . أما الرائد الصهيونى «إيال شلاين»، فإنه يقول: «لقد جوبهنا بمقاومة لم نعرف مثيلاً لها فى كل حروب إسرائيل»!

ورقيب صهيونى آخر، كتب يقول: «لقد أصبت بصدمة، ولن أنسى ذلك فى حياتى، وشعرت برغبة فى البكاء بسبب الرعب. لم تمر فى حياتنا بشىء كهذا»! . . وجندى صهيونى آخر اكتوى بنار المقاومة الباسلة فى جنين، كتب هو الآخر يقول: «كنا كأننا ندخل الجحيم. وأحمد الله أننى بقيت على قيد الحياة لقد فخخ المقاتلون الفلسطينيون كل شىء. وضعوا المتفجرات فى كل مكان، على أغطية المجارى، وفى الحاويات والسيارات، وعلى الجدران، وعلى أغصان الأشجار»!

ويكفى أن نعرف ـ وتعرف الدنيا ـ أن المرة الوحيدة التى طلب فيها الصهاينة وقف إطلاق النار كانت فى جنين!! وبشهادة «وكالة الصحافة الفرنسية»: «فلقد طلب الجيش الإسرائيلى وقفا للنار من عشرات المقاتلين الفلسطينيين، فى مخيم جنين، بعد مقتل ثلاثة عشر جنديا إسرائيليا فى كمين متفجر، وقد دفع هذا الصمود الأسطورى رئيس أركان الجيش الإسرائيلى «شاؤول موفاز» إلى الإشراف بنفسه على إدارة المعركة»!

إنها قطرة من بحر ثقافة الشهادة والاستشهاد، التى فجرتها انتفاضة أرض الإسراء والمعراج. . وكفى شاهداً وشهيداً على فعالية هذا الطريق أن «الشهيد» ـ فى العقيدة الإسلامية ـ اسم من أسماء الله سبحانه وتعالى. . وأن هذا الطريق هو السنة التى سلكتها كل الشعوب التى أرادت التحرر من الاستعمار.

***

والحق ما شهدت به الأعداء

كثيرة هى التحديات التى تواجه المقاومة الفلسطينية على أرض فلسطين.. وفى مقدمة هذه التحديات:

١ ـ الفرعونية والقارونية الأمريكية، التى تدرجت فى تاريخها معنا ـ عبر القرن العشرين ـ من «سياسة القوة» إلى «غطرسة القوة» إلى أن وصلت الآن إلى مرحلة «جنون القوة»!

٢ ـ واليهودية العنصرية والصهيونية العالمية، وكيانها الاستعمارى الاستيطانى على أرض فلسطين، وهى التى مثلت ـ عبر التاريخ ـ شوكة فى حلق الإنسانية، وخيانة للعهود الإسلامية والسماحة الإسلامية منذ خيانة يهود «بنى قريظة» إبان «غزوة الأحزاب» سنة ٥ هـ سنة ٦٢٧م وحتى الحلف «الصهيونى ـ الصليبى» الذى تحولت به الصهيونية إلى «قفاز» فى قبضة الإمبريالية الغربية، عضت اليد الإسلامية التى أحسنت إلى اليهود عبر تاريخهم الطويل، ولحساب وخدمة الذين امتهنوا-اليهود واضطهدوهم عبر هذا التاريخ الطويل! كما حدث أيضًا من يهود «خيبر»، الذين تحالفوا مع مشركى قريش وعبدة الأوثان ضد المسلمين الموحدين، الذين يؤمنون بالتوراة، ويصلون ويسلمون على كل أنبياء بنى إسرائيل والذين فتحوا أبواب المجتمع الإسلامى أمام اليهود!

٣ ـ أما التحدى الثالث، الذى يواجه انتفاضة الأقصى والاستقلال، فهو تحدى «الهزيمة النفسية» التى يشيعها نفر قليل من أبناء جلدتنا، يتكلمون بلغتنا، لكنهم يعبدون أمريكا من دون الله، ويخشون القوة الصهيونية أكثر من خشيتهم لله.. والذين يسودون الصفحات التى تصور مقاومة الهيمنة الأمريكية والبطش الصهيونى فى صورة الكارثة التى جرتنا إليها منظمات المقاومة والجهاد على أرض فلسطين!

ولأن الهزيمة النفسية هى أخطر التحديات التى تواجه أى إنسان أو جماعة أو أمة فى أى ميدان من ميادين الحياة؛ لأنها تحوّل كل الإمكانات والطاقات العظمى إلى «صفر»، وتجعل مُلاّك الكنوز النفيسة بمثابة السفهاء الذين لا يعرفون قيمة هذه الكنوز.. فإن التصدى لدعاة الهزيمة النفسية هؤلاء هو جزء أصيل من معركتنا وجهادنا ضد الأعداء.

ولأن دعاة الهزيمة النفسية هؤلاء قد مثلوا ويمثلون الامتداد السرطانى ـ فى صفوف الأمة ـ لأطروحات وثقافة وفكر الأعداء، فإن خير ما نرد به على «كلامهم» هو شهادات الأعداء التى شهدوا بها لسلاح الانتفاضة والمقاومة المسلحة وثقافة الشهادة والاستشهاد والعمليات الاستشهادية على أرض فلسطين.

• شهادات أمريكية

لقد كتبت مجلة «نيوزويك» الأمريكية ـ فى عدد ٢٧ أغسطس سنة ٢٠٠٢م دراسة تحت عنوان (المفجرون الانتحاريون يغيرون الموازين العسكرية فى الشرق الأوسط) ـ ودعك من كلمة «الانتحاريين» التى وضعوها بدلاً من كلمة «الاستشهاديين»! ـ وفى هذه الدراسة تشهد «النيوزويك» أن العمليات الاستشهادية قد مثلت «السلاح الذكى» و«القنبلة الذكية»، الذى فلّ حديد التفوق الحربى الذى صنعته وضمنته أمريكا لإسرائيل.. وأن هذا السلاح الاستشهادى قد صنع بإسرائيل ما لم تصنعه كل الجيوش النظامية العربية لأكثر من خمسين عامًا. وبنص هذه الشهادة يقولون: «لقد أصبح المفجر الانتحارى، العام الماضى، أكثر الأسلحة فعالية فى الانتفاضة الفلسطينية ضد إسرائيل، فخلق ساحة جديدة للمعارك جعلت واحدًا من أكثر الجيوش تدريبًا وعتادا يعانى من أجل توفير الحماية الكافية لشعبه.. إن الترسانة العسكرية الإسرائيلية تشمل ٣٨٠٠ دبابة ونحو ٢٠٠٠ طائرة مقاتلة.. غير أن كل هذه القوة النارية ـ التى كانت مروعة أمام الجيوش العربية فى حروب سابقة ـ كانت بلا فعالية إلى حد كبير فى مواجهة المفجرين الانتحاريين!».

ثم تقدم «النيوزويك» الإحصاءات الشاهدة على أن العمليات الاستشهادية قد

غيرت موازين القوى فى ميدان الخسائر لدى أطراف الصراع - قتلى اليهود.. وشهداء الفلسطينيين - على النحو الذى لا سابقة له فى تاريخ هذا الصراع.. فتقول: «لقد ارتفع عدد الوفيات فى إسرائيل من جراء التفجيرات الانتحارية بأكثر من الضعف خلال العام الماضى، وحدثت تلك الزيادة على الرغم من كثافة العمليات الإسرائيلية التى شلت حركة الحياة اليومية لمعظم الفلسطينيين».

وفى هذه الدراسة الإحصائية تقارن «النيوزويك» بين خسائر الجانبين فى الانتفاضة الأولى (١٩٨٧ - ١٩٩٣م) وفى الانتفاضة الحالية.. كما تقارن بين الخسائر قبل استخدام الفلسطينيين لسلاح العمليات الاستشهادية وبعد استخدامهم لهذا السلاح.. وكيف كانت الخسائر فى الانتفاضة الأولى ٧ فلسطينيين مقابل واحد إسرائيلى.. ثم أصبحت فى الانتفاضة الحالية - قبل العمليات الاستشهادية - ٥ فلسطينيين مقابل كل إسرائيلى.. فلما استخدم الفلسطينيون «القنبلة الذكية» - العمليات الاستشهادية - تعادلت الخسائر على الجانبين تقريبًا!!

نعم.. تقدم «النيوزويك» هذه الإحصائيات، فتقول: «خلال الانتفاضة الأولى، التى امتدت ست سنوات، ما بين سنة ١٩٨٧ وسنة ١٩٩٣م ضد الاحتلال الإسرائيلى فى قطاع غزة والضفة الغربية، قتل ١١٦٢ فلسطينيًا، مقابل ١٧٤ إسرائيليًا، أى بمعدل ٦٫٧ فلسطينى مقابل كل قتيل إسرائيلى.. وكان هذا هو المعدل خلال الأشهر الستة الأولى من انتفاضة سبتمبر سنة ٢٠٠٠م - ٥٫١ فلسطينى مقابل كل إسرائيلى - ولكن بعد أن بدأ المفجرون الانتحاريون شن هجمات منتظمة فى مارس سنة ٢٠٠١م تغيرت هذه الإحصاءات بشكل هائل، فخلال الستة أشهر الأخيرة قتل ٢٩٨ فلسطينيًا و١٧٧ إسرائيليًا، أى بمعدل ١٫٧ فلسطينى مقابل كل إسرائيلى».

أما الكاتب الصحفى الصهيونى الأمريكى «توماس فريدمان» - صديق المهزومين نفسيا من أبناء جلدتنا - فإن له هو الآخر شهادة تضاف إلى شهادة «النيوزويك» فلقد كتب فى «النيويورك تايمز» - بتاريخ ٢٥ - ٤ - ٢٠٠٢م - يقول: «إن الانفجارات الانتحارية التى تواصلت على مدى شهرين متتاليين قد أدت إلى قلب إسرائيل رأسًا على عقب، كما أنها أفقدتها الشعور بالأمن أكثر من عمل أى جيش

عربى خلال الخمسين سنة الماضية، وجعلت الإسرائيليين أكثر استعداداً من أى وقت للتخلى عن الأراضى الفلسطينية!».

فهل يعى المهزومون نفسياً ـ من حزب أمريكا ـ هذه الشهادات الأمريكية، التى تقول: إن العمليات الاستشهادية هى التى غيرت موازين القوى العسكرية فى الصراع، وشلت فعاليات التفوق العسكرى الإسرائيلى، وأفقدت الكيان الصهيونى الأمن لأول مرة فى تاريخه، وجعلته يفكر فى التخلى عن الأرض المحتلة لأول مرة فى تاريخ هذا الصراع؟!

● وشهادات صهيونية

وإذا كنا قد سقنا هذه الشهادات الأمريكية للذين يعبدون أمريكا من دون الله ـ والعياذ بالله! ـ فإننا نسوق شهادات صهيونية لهؤلاء الذين يخشون القوة العسكرية الصهيونية أكثر من خشيتهم لله!

● فالمتحدث العسكرى الصهيونى، الكولونيل «أوليفيير راڤوفيتش» يقول عن الفدائى الاستشهادى الفلسطينى: «إنك تواجه مقاتلا مدججاً بما يتراوح بين ٢٠ و٣٠ رطلاً من متفجرات (T.N.T) أضف إلى ذلك عقلا بشريا، فتصبح أمام «قنبلة ذكية» إنها ساحة معركة من نوع جديد. والأكثر من ذلك، أنها طريقة رخيصة، ومتوفرة، ولا يمكن التكهن بها.. ومن السهل بدرجة نسبية إخفاؤها، ونقلها وتخزينها، ويصعب بالتالى كشفها والتصدى لها على الرغم من البراعة العسكرية الإسرائيلية العالية التقنية والخبرة الطويلة.. لقد أصبح المفجر الانتحارى النسخة الفلسطينية من السلاح الذكى، وخلق بذلك ساحة معركة من نوع جديد»!

● أما الكولونيل «جال لوفت»، فلقد نشرت له المجلة الأمريكية «فورين أفيرز» عدد يوليو ـ أغسطس سنة ٢٠٠٢م ـ شهادة يقول فيها عن العمليات الاستشهادية: «إن اسرائيل لم تستشعر فى تاريخها أذى مثل ذلك الذى ألحقته بها العمليات الانتحارية، وعلى الرغم من أنها نجحت فى استخدام ونشر النظام الدفاعى الصاروخى (آرو) لمواجهة صواريخ «سكود» العراقية، بتكلفة مليارى دولار، فإنها لم تملك ما ترد به على القنبلة البشرية الفلسطينية، غير بناء الأسوار الشائكة..

لقد وجدت إسرائيل نفسها أمام عدو لا يمكن القضاء عليه؛ ومن ثم لا يوجد حل عسكرى للمشكلة. إن الإسرائيليين يثقون فى دباباتهم وجيشهم، بينما الفلسطينيون يضعون ثقتهم فى الله، وبسبب إيمانهم ذلك فلن تستطيع إسرائيل أن تحقق إنجازات استراتيجية فى مواجهة الفلسطينيين، على الرغم من قدرتها على تحقيق الإنجازات التكتيكية»!

● لقد أصبحت إسرائيل حالة من حالات «الخوف المسلح» بالسلاح الأمريكى! ترتعد أمام الفدائى الفلسطينى المسلح بالإيمان بالله، والذى اشترى الجنة الباقية والحياة الحرة الغالية لأمته ووطنه بحياته الفانية.. ولقد عبر أحد كبار المسئولين فى الخارجية الإسرائيلية عن ذلك عندما قال: «إننا نشعر بالخوف على الرغم من قوة جيشنا ولا تصدقوا أى إسرائيلى ينكر ذلك، حتى غلاة اليمين، الذين يطالبون بطرد العرب، فإن الخوف يظل كامنا فى أعماقهم»!

فهل يعى معنى هذه الشهادات ـ الأمريكية والصهيونية ـ أولئك «الكتبة» الذين يسودون الصفحات التى تصور المقاومة والانتفاضة والعمليات الاستشهادية فى صورة «الكارثة» التى حلت بالأمة.. و«النكبة» التى حلت بفلسطين؟!

لقد سقنا شهادات «الخواجات»، عسى أن يقتنع بها أشباه «الخواجات» ـ من أبناء جلدتنا ـ الذين لا يسمعون إلا «للكلام المستورد» من بلاد «الخواجات»!!

أما المجاهدون، فإنهم يعرفون الطريق الذى حدده لهم ربهم، سبحانه وتعالى، ورسمه لهم نبيهم ﷺ وجربته أمتهم الإسلامية.. بل كل الشعوب التى ابتليت بالاستعمار.. طريق الجهاد والفداء والاستشهاد.

* * *

العنصرية اليهودية.. ودعوى شعب الله المختار

مشهورة بين الناس ومعروفة دعوى اليهود أنهم هم وحدهم «شعب الله المختار» الذين اصطفاهم الله وفضلهم على كل الأمم والشعوب.

وهم قد ادعوا ذلك لأنفسهم بحكم الولادة، وليس تأسيسًا على الصلاح والتقوى ومخافة الله وتنفيذ الشريعة التى أنزلها الله على موسى، عليه السلام.. فاليهودى ـ عندهم ـ الذى يمتاز ويتميز عن كل البشر بأنه من شعب الله المختار، هو المولود من أم يهودية، حتى ولو كان ملحدا، أو ابن زنا، أو عابداً للعجل الذهبى، أو قاتلاً للأنبياء!!

فالخيرية هنا هى صفة لصيقة، جاءت ثمرة «للبيولوچيا» ولا علاقة لها بالعقيدة والتقوى والصلاح بأى حال من الأحوال، أى أن الخيرية والاصطفاء والامتياز قد تحولت ـ فى الفكر اليهودى ـ إلى عنصرية لصيقة بمن يولد من أم يهودية، حتى ولو كان سلوكه منقطع الصلة، بل ومضاداً للشرائع الإلهية، وفى مقدمتها شريعة موسى، عليه السلام.. ومناقضًا للفضائل التى تعارف عليها الأسوياء من الناس.

ولقد وضع اليهود هذه العقيدة العنصرية فى أسفار «العهد القديم»، عندما أعادوا كتابتها بواسطة الأحبار والرؤساء والحاخامات فى مرحلة السبى البابلى (٥٨٦ ـ ٥٣٨ ق.م) التى عانوا فيها من القهر والاضطهاد، فكانت العنصرية والكراهية والرفض لكل الآخرين والأغيار سمات شائعة فى هذه الأسفار التى أعادوا كتابتها فى ظل هذا القهر وذلك الاضطهاد.

وليس القرآن الكريم وحده هو الشاهد على تحريف اليهود لتوراة موسى، عليه السلام.. وإنما يشهد الكثير من علماء اليهود أنفسهم على هذا التحريف.. ولعل الكتاب الذى كتبه كوكبة من هؤلاء العلماء عن (نقد العهد القديم من أقدم العصور

حتى العصر الحديث) والذى حرره العالم اليهودى «زالمان شازار» ونشره المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة سنة ٢٠٠٠م أن يكون خير شاهد من أهلها على صدق القرآن الكريم عندما تحدث عن تحريف اليهود لأسفار التوراة: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء: ٤٦]، ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣]، ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾

[البقرة: ٧٤ - ٧٦]

فهذه الإشارات القرآنية لتحريف الأحبار والحاخامات والرؤساء اليهود - بقيادة «عزير» عزرا - (منتصف القرن الخامس ق. م) لأسفار التوراة.. قد فصلها تفصيلاً علماء اليهود الذين نقدوا العهد القديم، وتحدثوا عن كل سفر من الأسفار، وكل نص من النصوص، وزمان ومكان وملابسات التحريف وإعادة الصياغة التى أصابت هذه النصوص.

* * *

ولقد كانت العقيدة العنصرية التى جعلت من كل يهودى، بحكم الولادة من أم يهودية، واحداً من الشعب المختار الذى اصطفاه الله ـ بزعمهم ـ دون العالمين وفوق العالمين، واحدة من العقائد العنصرية التى أثمرها هذا التحريف لأسفار العهد القديم.. بل لقد تصاعدت العنصرية بهذه العقيدة، فجعلت اليهود فيها فوق جميع الشعوب، وأكثر من هذا جعلت الرسالة الإلهية التى عهد الله بها إلى هذا الشعب المختار، هى ـ بزعمهم ـ الاستعباد والأكل والإبادة لمن عدا اليهود من الأمم والشعوب!

لقد وضعوا فى (سفر التثنية) هذه العقيدة العنصرية التى تجعلهم شعباً مختاراً، بل ومقدساً ومعصوماً من الأمراض والآفات!.. بل وتجعل حتى بهائمهم معصومة من الأمراض والآفات!! وجعلوا من هذه العنصرية أمراً إلهيا ووحياً ربانيا ـ تعالى الله عن كل ذلك ـ فقالوا، على لسان إلههم «يهوه» وهو يخاطب هذا الشعب المقدس والمختار: «سبع شعوب دفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم، فإنك تحرمهم (تهلكهم وتدمرهم) لا تقطع لهم عهداً، ولا تشفق عليهم، ولا تصاهرهم؛ لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك، إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعباً أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض.. مباركاً تكون فوق جميع الشعوب. لا يكون عقيم ولا عاقر فيك ولا فى بهائمك. ويرد الرب عنك كل مرض وكل أدواء مصر الرديئة التى عرفتها (كذا؟!) لا يضعها عليك، بل يجعلها على كل مبغضيك. وتأكل كل الشعوب الذين الرب إلهك يدفع إليك. لا تشفق عيناك عليهم». إصحاح ٧: ١ ـ ٣، ٦، ٧، ١٤ ـ ١٦.

فهم شعب مختار مقدس، فوق جميع الشعوب، وأخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض.. يأمرهم إلههم بأكل الشعوب وإبادتهم، دون أن يقطعوا لهم عهداً، أو تشفق عيونهم على هذه الشعوب!!

وهذه العنصرية التى تمارسها الصهيونية اليوم على أرض فلسطين، عندما تبيد البشر والشجر والحجر، هى ثمرة مرة للعقيدة العنصرية التى وضعها الأحبار والحاخامات فى [سفر العدد] عندما افتروا على الله فقالوا: «وكلم الرب موسى، فى عربات موآب على أردن أريحا، قائلا: كلّم إسرائيل وقل لهم: إنكم عابرون

الأردن إلى أرض كنعان فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم.. تملكون الأرض وتسكنون فيها.. وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكًا فى أعينكم ومناخس فى جوانبكم، ويضايقونكم فى الأرض التى أنتم ساكنون فيها. فيكون أنى أفعل بكم كما هممت أن أفعل بهم»!! إصحاح ٣٣: ٥٠ـ ٥٣، ٥٥، ٥٦ ـ فالتهجير ـ «الترانسفير» ـ الذى مارسته الصهيونية مع الشعب الفلسطينى منذ سنة ١٩٤٨م، والذى قذف ستة ملايين فلسطينى ـ هم تعداد اللاجئين اليوم خارج وطنهم ـ إلى المخيمات، والذى جعل ملايين أخرى تعيش فى الضفة وغزة بعيدًا عن مدنهم وقراهم الأصلية.. والذى يهدد به اليوم «شارون» من بقى من الفلسطينيين على أرض وطنهم.. هذا «الترانسفير» هو عقيدة عنصرية وضعها الأحبار والحاخامات اليهود فى أسفار العهد القديم، وافتروا نسبتها إلى الله تعالى وتنزه عن جميع ما افتروه.

بل إن هذا الذى صنعته العنصرية الصهيونية «بمخيم جنين» فى أبريل سنة ٢٠٠٢م من إبادة جماعية شهدت كثير من منظمات حقوق الإنسان الغربية بأنها «جرائم حرب» و«جرائم ضد الإنسانية» و«مجازر» ضاهت الزلازل التى لا تبقى ولا تذر.. هذا الذى صنعته العنصرية الصهيونية، فى القرن الواحد والعشرين، ما هو إلا ثمرة من ثمرات العقيدة العنصرية ـ عقيدة شعب الله المختار والمقدس، دون كل الشعوب، وفوق جميع الشعوب، الذى عهد إليه الرب برسالة أكل جميع الشعوب وإبادة كل مقومات الحياة لدى هذه الشعوب.

ولتكريس هذه العقيدة العنصرية، وضع الأحبار والحاخامات فى (سفر التثنية) كلاما نسبوه إلى الرب، يخاطب به شعبه المختار، ويقول فيه: «إذا سمعت عن إحدى مدنك التى يعطيك الرب إلهك لتسكن فيها قولاً.. فضربا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف، وتحرمها (تدمرها وتهلكها) بكل ما فيها، مع بهائمها بحد السيف. تجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها، وتحرق بالنار المدينة وكل أمتعتها كاملة للرب إلهك فتكون تلاً إلى الأبد لا تُبنى بعد»!! إصحاح ١٣: ١٢، ١٥ ـ ١٧.

تلك هى العقيدة العنصرية ـ عقيدة الشعب المقدس والمختار، لأكل الشعوب

وإبادتها وتدمير كل مقومات الحياة فيها.. كما صاغها الأحبار والحاخامات نصوصاً تقطر حقدا وعنفا ضد كل الأغيار.. ثم افتروا على الله، سبحانه وتعالى، عندما وضعوا هذه النصوص على لسانه فى أسفار العهد القديم.. وذلك لتضعها الصهيونية فى الممارسة والتطبيق على أرض فلسطين فى القرن الواحد والعشرين!!

وإذا كنا قد أشرنا إلى حديث القرآن الكريم عن هذا التحريف الذى صنعوه بأسفار التوراة.. وأشرنا إلى شهادة علمائهم المنصفين على حدوث هذا التحريف، عندما تتبعوا بالنقد العلمى كل نصوص العهد القديم.. حتى انتهوا إلى قولهم فى ص٢٠٦، ٢١٤، ٢١٥، ٢٢٠ من (تاريخ نقد العهد القديم): «إن هذه الأسفار المقدسة هى من طبقات مختلفة، وعصور متباينة، ومؤلفين مختلفين، حيث تستوعب هذه الأسفار ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة من الزمن.. فلا ارتباط بينها، سواء فى أسلوب اللغة أو فى طريقة التأليف.. إن القسم الأكبر من توراتنا لم يكتب فى الصحراء. وموسى لم يكتب التوراة كلها. وأقوال التوراة ليست إلا لفائف من أماكن وعصور مختلفة لرجال وحكام عشائر وأسباط مختلفة.. ففيها ثمانى مجموعات تعود إلى عصور مختلفة، وهى: ١ ـ لفائف قديمة تعود إلى عصر الصحراء (فى سيناء) تم تحريرها من قبل أحد أبناء أفرايم ٢ ـ ولفائف من تعاليم الكهنة، تمت إضافتها إليها حتى عصر يوشع بن صادق ٣ ـ ولفائف أعداد الأسباط ٤ ـ ولفائف باعترافات الأنبياء ٥ ـ ومجموعات من روايات بيت داود ٦ ـ وأقوال الأنبياء ومجموعاتهم فى بابل ٧ ـ وأقوال الكهنة والأنبياء العائدين من السبى ٨ ـ وتكملات مختارة من عصر الحشمونيين».

فكأنها ديوان من الأساطير، كتبه مؤلفون عديدون، فى قرون متطاولة الامتداد.. قد شاعت فيها الأفكار العنصرية عن الشعب المقدس والمختار، الذى اختاره «يهوه» لإبادة وأكل جميع الشعوب.. ولقد أصبحت هذه العقيدة العنصرية هى الثقافة المكونة للعنصرية اليهودية والصهيونية، التى نواجهها اليوم على أرض فلسطين.

* * *

القدس.. بين اليهودية والإسلام

عندما نناقش «حجج» ودعاوى الآخرين، حول قضية القدس، يجب أن نتجرد من منطق صاحب الحق الذى يخاطب ذاته.. فنتحدث بالمنطق «الموضوعى ـ البارد»، الذى يفند «حجج» الخصوم، بمنطق هؤلاء الخصوم، وبلغة العلم وعقلانية الفكر، لا بالعواطف، أو حتى بمأثوراتنا الدينية الخاصة التى لا يؤمن بها الآخرون.

وفى تطبيق هذا المنهج على «وثيقة» «رابطة الدفاع اليهودية» التى كتبها اليهودى الصهيونى الأمريكى «دانيال ياسبس» أكبر مساعدى «بنيامين كاهانا» ابن الحاخام الإرهابى «مائير كاهانا» مؤسس هذه الرابطة. فى مناقشة هذه «الوثيقة» نجد أن صرامة المنطق المجرد ـ وهو فى الفكر عملة دولية عامة ـ تقودنا إلى «إسلامية القدس»، وإلى نفى أية علاقة لهذه المدينة باليهودية واليهود.

● تقول هذه «الوثيقة»: «إن القدس هى أعظم مدينة دينية بالنسبة لليهودية».

فهل هذا صحيح؟ وهل هناك علاقة ما بين اليهودية وبين مدينة القدس؟

لقد روج اليهود هذه الدعوى، حتى تبنتها الكاثوليكية ـ ومن قبلها البروتستانتية ـ فوجدنا بابا الفاتيكان يوحنا بولس الثانى، يتحدث عن القدس فيقول: «منذ عهد داود، الذى جعل أورشليم عاصمة لمملكته، ومن بعده إبنه سليمان، الذى أقام الهيكل، ظلت أورشليم موضع الحب العميق فى وجدان اليهود، الذين لم ينسوا ذكرها على مر الأيام، وظلت قلوبهم عالقة بها كل يوم، وهم يرون فى المدينة شعاراً لوطنهم» (عن مقال الأنبا يوحنا قلتة ـ الأهرام فى ١٢ ـ ٥ ـ ١٩٩٧م).

ووجدنا ـ كذلك ـ التحالف المسيحى البروتستانتى ـ فى أمريكا ـ تحت تأثير

«الصهيونية ـ المسيحية» ـ عندما جعل الكونجرس الأمريكى يقرر سنة ١٩٩٥م ـ نقل السفارة الأمريكية من تل أبيب إلى القدس ـ وبناءها على أرض الأوقاف الخيرية الإسلامية:ـ ينص فى مقدمة هذا القرار على «أن القدس هى الوطن الروحى لليهودية».

فهل حقًا تمثل «القدس أعظم مدينة بالنسبة لليهودية» ـ كما تقول «وثيقة» رابطة الدفاع اليهودية؟

وهل هى «شعار الوطن اليهودى» كما يقول بابا الفاتيكان؟ و«الوطن الروحى لليهودية» كما يقول الكونجرس الأمريكى؟

لنسأل أولاً: ما هى اليهودية؟

إنها ـ بالمنطق العلمى المجرد ـ هى شريعة نبى الله موسى، عليه السلام، التى جاءت بها الألواح والأسفار التى أوحى الله بها إلى موسى.

وهنا نسأل ـ ثانيًا ـ: هل هناك أية علاقة بين شريعة اليهودية.. ونبى اليهودية.. وتوراة اليهودية.. وبنى إسرائيل الذين توجهت إليهم التوراة والشريعة وبين مدينة القدس؟.

إن نبى اليهودية قد ولد ونشأ وعاش ومات ودفن فى مصر، ولم تر عينه القدس فى يوم من الأيام..

وإن توراة اليهودية وشريعتها ووحيها قد نزلت فى مصر، وباللغة الهيروغليفية ـ وقبل وجود اللغة العبرية ـ ولم تشهد القدس ـ عبر تاريخها الطويل ـ شيئًا من ذلك فى يوم من الأيام..

فأين هى العلاقة الروحية ـ علاقة «الوطن الروحى» التى يتحدثون عنها بين اليهودية وبين القدس؟!

● فإذا قالوا ـ وهم بالفعل يقولون ـ بلسان «وثيقة» رابطة الدفاع اليهودية ـ: «إن اليهود يصلون فى اتجاه القدس، ويذكرون اسمها فى صلواتهم باستمرار، وينهون صلاة عيد الفصح بعبارة شوق حزين: «العام القادم فى القدس».

فإننا سنقول لهم: حسنا! لكن، هل صلاة أبناء دين من الأديان تجاه مدينة من

المدن، ترتب لأبناء هذا الدين حقوقًا «وطنية.. وسياسية.. وسيادية» في هذه المدينة؟

إن الأرثوذكس - الروس، واليونان، والصرب، والمصريين، والأحباش - يصلون جميعًا تجاه القدس، وإليها يحجون، وفيها يتقدسون.. ومعهم في ذلك، كل شعوب الكاثوليك، في جميع أنحاء الدنيا، وكذلك كل الأمم والقوميات البروتستانتية. فهل يرتب التوجه إلى القدس في الصلاة لكل هذه الأمم والشعوب والقوميات والأجناس حقوقًا «وطنية.. وسياسية.. وسيادية» في مدينة القدس؟

إن القول بهذا «المنطق»، جدير بعالم «النكات»، وهلوسات ضحايا المخدرات، ولا علاقة له بأدنى مستويات العقل والعقلاء، وقس على ذلك توجه المسلمين، من مختلف الامم والأوطان إلى مكة في الصلاة.. وهو الذي لا يرتب لشعوبهم في مكة أية حقوق «وطنية.. أو سيادية.. أو سياسية».

● فإذا قالوا: لقد عاش وحكم في القدس داود وسليمان، عليهما السلام، وفيها بنى سليمان هيكلاً لليهود.. فنقول لهم: نعم! لكن هذا لا يقيم علاقة بين اليهودية وبين القدس.. وذلك لعديد من الأسباب التاريخية والمنطقية والواقعية.. منها:

١ - أن داود وسليمان - بمنطق اليهود واليهودية - هم من «الملوك»، وليسوا من «الرسل والأنبياء»، ومن ثم فإقامتهم في القدس وعلاقتهم بها هي علاقة الاستيلاء السياسي والحربي، وليست علاقة دينية بين القدس وبين اليهودية كدين.

٢ - وأن علاقة داود وسليمان بالقدس، كانت - بالنسبة لعمر القدس، الذي يبلغ الآن ستة آلاف عام - علاقة عارضة وطارئة، وسريعة الزوال.. فهي قد بدأت في القرن العاشر قبل الميلاد، بعد أن كان عمر القدس قد بلغ ثلاثة آلاف عام - فهي قد أسسها «اليبوسيون»، أجداد العرب الفلسطينيين، قبل الميلاد بأربعة آلاف عام - ولم تدم العلاقة بين داود وسليمان، بل وبين كل العبرانيين وبين القدس وفلسطين أكثر من ٤١٥ عامًا.

فهل يؤسس ذلك لليهود حقًا «وطنيًا.. وسياسيًا.. وسياديًا» دائمًا في القدس وفلسطين؟

لقد أقام العرب المسلمون وحكموا فى الأندلس ثمانية قرون، وبنوا فيها المساجد التى لا تزال قائمة حتى الآن فهل يرتب ذلك لهم فى إسبانيا والبرتغال حقوقًا «وطنية.. وسياسية.. وسيادية»؟

ولقد أقام الإسكندر الأكبر المقدونى (٣٥٦ ـ ٣٢٤ق.م) فى مصر وغيرها من بلاد الشرق مدنا ومعابد وإمبراطورية دام حكمها وحكم خلفائه فيها قرابة العشرة قرون ـ من القرن الرابع قبل الميلاد إلى الفتوحات الإسلامية فى القرن السابع الميلادى ـ فهل يرتب ذلك للشعب المقدونى أو الإغريقى أو الرومانى ـ أو لهم جميعًا ـ فى مصر والمشرق حقوقًا «وطنية.. وسيادية.. وسياسية»؟

وقبل الإسكندر، دخلت كثير من بلاد الشرق تحت حكم «قمبيز» (٥٢٩ ـ ٥٢١ ق.م) الفارسى.. وفيها بنى المعابد والهياكل والقلاع.

وقبل «قمبيز»، حكم الفراعنة ـ قرونا متطاولة ـ أغلب هذه الأقطار، وأقاموا فيها المعابد، وتركوا فيها الآثار.. فهل يطالب أهل مصر.. أو أهل فارس بالسيادة الوطنية والسياسية على تلك البلاد؟!.

● وهذا المعبد الذى بناه سليمان عليه السلام ـ والذى دمره البابليون مع مملكة يهوذا سنة ٥٨٥ ق.م ـ هل حقا ما يدعيه اليهود أن المسجد الأقصى قد بنى على أنقاضه؟

إن اللجنة الملكية البريطانية قد حكمت سنة ١٩٢٩م بأن ما يسميه اليهود «حائط المبكى» هو «حائط البراق» ـ جزء من المسجد الأقصى، ومعراج رسول الإسلام، ولا علاقة له بهيكل سليمان.

ولقد مضى ثلث قرن على احتلال اليهود للقدس الشرقية، وتكثيفهم البحث والتنقيب وتقليب باطن الأرض بحثا عن أى أثر أو دليل على دعواهم هذه، لكنهم لم يعثروا فى كل هذه المنطقة، وطوال هذه السنين، على أدنى أثر لهذا الهيكل المزعوم.

فأين هى العلاقة بين اليهودية واليهود وبين مدينة القدس؟

● ثم.. هل يهودية التلمود.. ويهودية الصهيونية هى يهودية موسى عليه السلام؟

إن أسفار التوراة ذاتها شاهدة على نقض اليهود لشريعة موسى، وعلى استحقاقهم لعنة الله؛ بسبب خروجهم حتى على التوحيد!

كما أن اليهودية المعاصرة - التى تحتل القدس وفلسطين - تعرّف اليهودى بأنه «هو المولود من أم يهودية».. فالمعيار فيها «بيولوجى»، وليس دينيًا، وبذلك أصبح «يهود الخزر» و«الأشكناز»، الذين لا علاقة لهم ببنى إسرائيل والعبرانيين والساميين هم اليهود، وفق هذا المعيار «البيولوجى» حتى ولو كانوا ملاحدة، أو أبناء زنا!

فأين هى العلاقة بين اليهودية وبين القدس.. بل وأين هى العلاقة بين هذه اليهودية «العنصرية - البيولوجية» - وبين يهودية شريعة موسى عليه السلام؟

هذا هو «المنطق الموضوعى.. المجرد. بل والبارد»، الذى نفند به دعوى العلاقة الدينية بين القدس وبين اليهودية واليهود.

* * *

القدس فى الإسلام

تزعم رابطة الدفاع اليهودية «أن دور القدس فى الإسلام يأتى فى المرتبة الثالثة بعد مكة والمدينة.. وأنها ليست قبلة المسلمين فى الصلاة.. ولم تذكر باسمها مرة واحدة فى القرآن.. ولا تذكر على الإطلاق فى صلوات المسلمين.. وهى ليست مرتبطة ارتباطًا مباشرًا بالأحداث التى جرت فى حياة الرسول.. ولم تتحول القدس فى يوم من الأيام إلى مركز ثقافى إسلامى، أو عاصمة لدولة إسلامية».

وتقول هذه الرابطة الصهيونية: «إن ما جاء فى سورة الإسراء عن المسجد الأقصى ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ هو مجرد «تفسير أموى»!، لا يعنى مدينة القدس.. إذ لم يكن هناك يومئذ ـ وقت الإسراء ـ مسجد فى القدس اسمه ﴿الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾؛ لأن هذا المسجد قد بنى فى العهد الأموى».

تلك هى دعاوى اليهود، التى تنفى وجود علاقة بين الإسلام وبين القدس.. وبين الثقافة الإسلامية والدولة الإسلامية وبين القدس.

وفى الرد على هذه الدعاوى، وتفنيدها.. نقول:

● إذا كان الحديث النبوى الشريف يجعل القدس ثالث الحرمين ـ بعد مكة والمدينة ـ فإنه يجعلها أولى القبلتين، أى يقدمها ـ فى الترتيب التاريخى ـ كقبلة للمسلمين ـ على مكة المكرمة والكعبة المشرفة.. لقد صلى إليها رسول الله ﷺ خمسة عشر عامًا، ثم توجه إلى الكعبة بالصلاة قبل وفاته بثمانى سنوات.

ثم إن السنة النبوية قد جعلت القدس على قدم المساواة مع مكة والمدينة فى الاختصاص بشد الرحال ـ أى السفر ـ للصلاة فى مساجدها الجامعة ـ الحرم

المكى. . . الحرم المدنى. . والحرم القدسى ـ فهى ـ القدس ـ المقدمة ـ تاريخيًا ـ كقبلة إسلامية لصلاة المسلمين. . وهى المساوية لمكة والمدينة فى شد الرحال إليها للصلاة. . «لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام. . والمسجد الأقصى. . ومسجدى هذا» ـ رواه البخارى ومسلم ـ.

● وعبارة ﴿الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾ فى آية سورة الإسراء تعنى مدينة القدس ـ كل القدس ـ ولا تعنى «المسجد» بمعنى البناء المعمارى «للجامع»، فلم يكن هذا البناء ـ «الجامع» ـ قائمًا بالقدس سنة ٦٢١هـ ـ ليلة الإسراء ـ وكذلك عبارة ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فى هذه الآية، تعنى مكة ـ كل مكة ـ ولا تقتصر على الكعبة والمسجد الحرام. . فرسول الله ﷺ عندما أسرى به لم يكن ساكنًا ولا نائمًا فى المسجد الحرام ـ «الجامع» ـ وإنما كان فى مكة، فالإسراء به قد تم من ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ـ أى مكة ـ إلى ﴿الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾ ـ أى القدس ـ وفى ذلك دلالة على اعتبار القرآن كل مكة مسجداً حراماً ـ أى حرما مكيًا ـ وكل القدس مسجداً أقصى ـ أى حرمًا قدسيًا.

● ويزكى هذه الحقيقة ويشهد لها وعليها وبها أن المسلمين، ومنذ فجر الإسلام، قد عاملوا القدس، كمكة، معاملة الحرم الشريف. . ومن مميزات وامتيازات الحرم فى الإسلام تنزيهه بتحريم القتال وسفك الدماء فيه. . وعندما فتح المسلمون ـ بقيادة رسول الله ﷺ ـ مكة سنة ٨ هـ حرصوا على فتحها سلمًا دون قتال؛ لأن الحرم لا يجوز فيه القتال. . وهم قد صنعوا ذلك مع القدس عندما فتحوها سنة ١٥هـ سنة ٦٣٦م. . فلقد حاصروها حتى صالح أهلها على فتحها سلمًا، وتفردت مكة والقدس بذلك دون جميع المدن التى فتحها المسلمون. . وكما تسلّم رسول الله مكة يوم الفتح، تفردت القدس ـ دون كل مدن الفتوحات الإسلامية ـ بأن استلامها كان من اختصاص أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب»، وليس من قبل قائد الجيش الفاتح، رغم أن هذا القائد كان هو أمين الأمة الإسلامية «أبو عبيدة بن الجراح».

هذا عن مكانة القدس بالنسبة لمكة والمدينة. . وعن ذكرها فى القرآن الكريم.

● أما دعوى أن القدس لا تذكر فى صلاة المسلمين، فهى قد تهاوت، عندما

ثبت أن المراد بـ (المسجد الأقصى) فى آية سورة الإسراء ـ وهى التى يصلى بها المسلمون فى صلواتهم على امتداد أقطار الأرض، وآناء الليل وأطراف النهار ـ هو مدينة القدس الشريف.. كما أن آيات المعراج ـ فى سورة النجم (١٣ـ ١٨) ـ والتى يتعبد بها المسلمون فى الصلاة وغير الصلاة؛ إنما تذكرهم بالمعراج من القدس الشريف.

● وإذا كان الإسراء برسول الله ﷺ قد حدث من مكة إلى القدس.. وإذا كان معراجه قد تم من القدس.. فهل يجوز ـ بعد ذلك ـ أن تدعى «وثيقة» رابطة الدفاع اليهودية أن القدس «ليست مرتبطة ارتباطًا مباشرًا بالأحداث التى جرت فى حياة الرسول»؟!

إن هذا الإسراء، هو إحدى معجزات رسول الإسلام.. وارتباط القدس بمكة فى هذه المعجزة هو ـ بتعبير القرآن الكريم ـ آية من آيات الله.. كما أن المعراج من القدس، هو الآخر، إحدى معجزات الرسول، عليه الصلاة والسلام.

فكيف يكون، وأين يكون الارتباط المباشر بحياة الرسول، إذا لم يكن هذا هو الارتباط؟!

لكل ذلك، غدت الرابطة بين القدس ومكة عقيدة دينية إسلامية، وآية تتلى فى القرآن، وترتل فى الصلوات الإسلامية، ومعجزة من معجزات الرسالة الإسلامية.. وواحدة من عقائد الجهاد الإسلامى، تحدث عنها صلاح الدين الأيوبى (٥٣٢ ـ ٥٨٩هـ ١١٣٧ ـ ١١٩٣م) فى رسالته إلى «ريتشارد قلب الأسد» (١١٨٩ ـ ١١٩٩م) ـ إبان الحروب الصليبية ـ فقال عن القدس: «من القدس عرج نبينا إلى السماء، وفى القدس تجتمع الملائكة. لا تفكر بأنه يمكن لنا أن نتخلى عنها أبدًا؛ كما لا يمكن بحال أن نتخلى عن حقوقنا فيها كأمة مسلمة.. ولن يمكّنكم الله أن تشيدوا حجرًا واحدًا فى هذه الأرض طالما استمر الجهاد».

● أما دعوى «وثيقة» رابطة الدفاع اليهودية، أن القدس «لم تتحول فى يوم من الأيام إلى مركز ثقافى إسلامى»، فيفندها ويدحضها مكانة القدس فى الثقافة الإسلامية عبر أكثر من أربعة عشر قرنا متواصلة.. فالمسلمون هم الذين أطلقوا على هذه المدينة اسم: القدس..، وبيت المقدس..، والحرم القدسى.. والقدس

الشريف.. فجعلوا من القداسة اسما لها، وعنوانًا عليها، يعبر عن قداستها ومكانتها المقدسة فى الثقافة الإسلامية والعقل الإسلامى والوجدان الدينى الإسلامى.

وكما «جاور» العلماء والزهاد والعباد والمجاهدون وطلاب العلم فى الحرم المكى والحرم المدنى، ظلوا عبر تاريخ الإسلام «يجاورون» فى الحرم القدسى.

وحجم الأشعار التى نظمها شعراء الإسلام فى الحرم القدسى يبلغ المجلدات فى ديوان الأدب الإسلامى.. فلقد كانت دائمًا ـ عندهم ـ رمز الصراع بين الحق والباطل، ومفتاح الانتصارات، ورمز الاستقلال والتحرر من موجات الغزو والغزاة..

وهُيِّجْتَ للبيت المقدس لوعة ... يطول بها منه إليك التشوق

هو البيت إن تفتحه، والله فاعل ... فما دونه باب من الشام مغلق

وذلك فضلا عن مئات المخطوطات التى كتبت فى مناقب وفضائل هذا الحرم القدسى الشريف.

● أما أن هذه المدينة ـ القدس ـ «لم تكن فى يوم من الأيام عاصمة لدولة إسلامية» ـ كما تقول «وثيقة» رابطة الدفاع اليهودية ـ فهى دعوى ـ ككل الدعاوى التى فندناها ـ لا حظ لها من المنطق الذى يقيم دليلاً على المقاصد التى يريدها اليهود..

فالدولة الإسلامية ـ منذ ظهور الإسلام، وحتى إلغاء الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤م ـ كانت دولة خلافة جامعة، اختصت بمركز العاصمة فيها مدن معدودة، لا تتجاوز الست ـ هى: المدينة.. والكوفة.. ودمشق.. وبغداد.. والقاهرة.. والآستانة ـ فهل يعنى ذلك أن كل مدن الإسلام ـ والتى تعد بالآلاف ـ فى عالم الإسلام، من «غانة» غربا إلى «فرغانة» شرقا ومن حوض نهر الفولجا شمالاً إلى جنوب خط الاستواء، هل معنى ذلك أن كل هذه المدن ليست إسلامية؟ أو لا أهمية لها فى حياة الإسلام والمسلمين، أو لا حق فيها للمسلمين؟!

ثم.. إن مكة المكرمة، لم تكن فى يوم من الأيام عاصمة لدولة إسلامية..

فهل يعنى ذلك أنها لا أهمية لها فى حياة الإسلام والمسلمين؟!

● ومع هذه المكانة للقدس، فى القرآن الكريم.. وفى معجزات رسول الإسلام.. وبين المدن الإسلامية الثلاث، التى تميزت بالحرمة، فغدت حرمًا آمنا ومقدسًا فى وجدان المسلمين وحياتهم العلمية والفكرية والثقافية والأدبية والروحية.. فلقد تميزت السيادة الإسلامية على القدس، عبر تاريخها الإسلامى، بميزة تفردت بها القدس الإسلامية عن حياة هذه المدينة إبان اغتصابها من قبل الآخرين.. ففى الحقب التى انحسرت فيها السيادة الإسلامية والعربية عن القدس تم احتكارها من قبل الغاصبين، بينما تميزت السيادة الإسلامية عليها بإشاعة قدسيتها بين كل أصحاب المقدسات من مختلف المذاهب والديانات.. حتى غدت هذه الحقيقة قانونًا فى تاريخ هذه المدينة المقدسة، لم يعرف التخلف أو الاستثناء.

لقد احتكرها الرومان - فى عهد وثنيتهم - دون النصارى واليهود.. فلما تدينت الدولة الرومانية بالنصرانية احتكرت القدس دون اليهود، بل ودون المذاهب النصرانية التى لا يرضى عنها الرومان!

وعندما اغتصبها الصليبيون الفرنجة، احتكروها دون المسلمين واليهود.. واليوم، يصنع الصهاينة هذا الاحتكار للقدس، بالتهويد، وبتهديد المقدسات غير اليهودية، وتقليص الوجود العربى - الإسلامى والمسيحى - فى هذه المدينة.

على حين سجل التاريخ الإسلامى للقدس، أن المسلمين هم الذين سمحوا لليهود بالعيش فيها، والتعبد بها، بعد أن كان أهلها النصارى - إبان الفتح الإسلامى لها - يطلبون أن لا يسكن فيها أحد من اليهود ولا من اللصوص!

وفى عهدها الإسلامى أشاع المسلمون قداستها وقدسيتها لكل أصحاب المقدسات، على اختلاف المذاهب وتعدد الديانات.. لا لمجرد «التسامح الإسلامى»، وإنما لأن الإسلام هو الدين الوحيد الذى لا يكتمل الإيمان به إلا بالإيمان بكل النبوات والشرائع والرسالات.. فالمسلمون وحدهم - بحكم عقيدتهم الدينية - هم الذين يعترفون بالآخرين، ويؤمنون بقدسية وحرمة مقدسات هؤلاء الآخرين، ومن ثم فإنهم وحدهم - بحكم هذه العقيدة، التى صدّقت عليها الممارسات التاريخية - المؤتمنون على كل مقدسات هذا الحرم القدسى الشريف.

فإسلامية السيادة على هذه المدينة، ليست مصلحة إسلامية خاصة، ولا امتيازًا فلسطينيًا وطنيا، ولا ميزة قومية عربية.. وإنما هى ـ أولاً وقبل كل شىء ـ الضمان لبقاء القدس حرمًا آمنا لكل الذين يعبدون الله.

تلك هى حقيقة قضية القدس.. وعلاقتها ومكانتها بين اليهودية والإسلام.

وبمثل هذا المنطق يجب أن يكون الحوار مع الآخرين.. والتفنيد لدعاوى الخصوم.. فبه نقنع المحاورين.. ونزداد يقينا بحقنا المشروع فى القدس الشريف.. ونسحب البساط من تحت أقدام الخصوم.. ويكون حوارنا مع العالم حوار العلم بمنطق العلماء.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

* * *

إسلامية القدس.. ماذا تعنى؟؟

القدس ـ كل القدس ـ حرم مقدس.. كما أن مكة ـ كل مكة ـ حرم مقدس.. ولقد أطلق القرآن الكريم على هذه المدينة المقدسة مصطلح «المسجد» قبل الفتح الإسلامى لها، وقبل بناء المساجد الإسلامية فيها.. فهى «مسجد» كما أن مكة «مسجد» ـ أى قبلة للساجدين ـ حدث ذلك منذ العام الثانى قبل الهجرة ـ عام معجزة الإسراء ـ ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:١].. فالإسراء قد حدث من مكة ـ المسجد ـ إلى القدس ـ المسجد ـ وهو قد أقام رباطًا بين هذين الحرمين المقدسين، هو آية من آيات الله، سبحانه وتعالى.. وهو رباط يجسد وحدة الدين الإلهى عبر كل النبوات والرسالات.. فالمسجد الحرام، الذى هو أول بيت وضع للناس فى الأرض، والذى أصبح قبلة أمة الرسالة الخاتمة، عندما يربط الله ـ بالإسراء ـ بينه وبين القدس ـ قبلة النبوات السابقة ـ إنما يرمز بذلك إلى وحدة الدين الإلهى، وإلى اكتماله بالإسلام، وإلى جمع العقيدة الإسلامية الإيمان بكل الرسل والرسالات من آدم إلى محمد، عليهم الصلاة والسلام.. لا نفرق بين أحد من رسله.

وإذا كان المسلمون هم الذين سموا هذه المدينة: «القدس»، و«القدس الشريف»، و«بيت المقدس»، و«الحرم القدسى»، منذ فتحهم لها (سنة ١٥ هـ سنة ٦٣٦م) وذلك بعد أن كان اسمها يومئذ «إيليا الكبرى» فلقد صنعوا ذلك؛ ليعلنوا بهذه الأسماء القدسية عن قداستها، ولم يكن قد قام فيها يومئذ مسجد من مساجد الإسلام، ولا دخل أحد من أهلها فى دين الإسلام!

لقد عاملوها ـ كما شاء الله لها ـ معاملة الحرم المقدس.. وتجلى هذا الاعتقاد الإسلامى فى أحداث الفتوح فكما أن مكة حرم مقدس؛ ولذلك لا يحل فيها القتال.. كذلك عامل الفاتحون المسلمون القدس، فحاصرها جيش المسلمين، بقيادة

أبى عبيدة بن الجراح، حتى رغب أهلها فى الصلح، دونما قتال؛ لأنها حرم لا يحل فيها القتال. . بل لقد ظلت هذه الحرمة عقيدة إسلامية مرعية عبر عصور التاريخ. . فعلى الرغم من أن الصليبيين الذين اقتحموا القدس عنوة (٤٩٢هـ ١٠٩٩م) قد أبادوا جميع من بها من المسلمين، عندما أقاموا فيها مجزرة دامت سبعة أيام، لم يسلم من الذبح فيها حتى الذين احتموا بالمسجد الأقصى، فذبحهم الصليبيون، حتى جرت الدماء فى المسجد كالنهر، وسبحت فيه خيول الصليبيين حتى لُجُم هذه الخيول!! . . على الرغم من ذلك، عامل صلاح الدين الأيوبى (٥٣٢ ـ ٥٨٩هـ ١١٣٧ ـ ١١٩٣م) هذه المدينة المقدسة معاملة الحرم الذى لا يجوز ولا يحل فيه القتال. . فحاصرها (٥٨٣هـ ١١٨٧م) حتى صالح الصليبيون فيها على التسليم. . فهى ليست مجرد مدينة. . وإنما هى حرم، وبعبارة صلاح الدين: «إنها إرثنا وإرث كل أصحاب الديانات. . فيها تجتمع الملائكة. . ومنها عرج نبينا إلى السماء».

ولتقديس الإسلام لهذه المدينة، باعتبارها مسجدًا وحرمًا وقبلة للنبوات السابقة. . ولأن الإسلام وحده هو الذى جعل الإيمان بالنبوات والرسالات السابقة جزءًا من عقيدته، تميزت السلطة الإسلامية عبر تاريخ السيادة السياسية للدولة الإسلامية على مدينة القدس، بإشاعة قدسيتها لكل أصحاب المقدسات من أبناء كل الديانات السماوية. . فكانت الدولة الإسلامية وحدها والسلطة الإسلامية دون سواها هى المؤتمنة والأمينة على المقدسات غير الإسلامية فى هذا الحرم القدسى الشريف. . بينما كان العكس ـ أى الاحتكار ـ هو موقف كل السلطات غير الإسلامية التى استولت على مدينة القدس. . فالرومان قد احتكروها لأنفسهم، دون اليهود والنصارى فى حقبة الوثنية الرومانية وبعد أن دخلوا فى النصرانية احتكروها دون اليهود وعندما فتح المسلمون القدس، كان من مطالب أهلها ـ النصارى ـ ألا يسكن فيها أحد من اليهود ولا أحد من اللصوص! . . وصنع هذا الاحتكار، أيضًا الصليبيون، الذين احتلوها تسعين عامًا، فبعد أن ذبحوا اليهود مع المسلمين، احتكروا مقدسات المدينة، حتى لقد حولوا المسجد الأقصى إلى كنيسة لاتينية، وإلى إصطبل لخيول فرسان الإقطاع اللاتين! . . ونفس الاحتكار يصنعه الصهاينة اليوم، عندما يطاردون الوجود العربى فيها ـ إسلاميًا ونصرانيًا ـ ويهددون المقدسات بالاستيلاء والهدم والتحويل!

والفارق بين المسلمين وغيرهم فى هذه القضية ـ إشاعة قدسية القدس أو احتكارها ـ ليس مجرد تسامح يقابل التعصب.. وإنما هو دين واعتقاد دينى، فالإسلام وحده هو الذى يعترف بكل الرسالات والشرائع الدينية، ومن ثم يعترف بقدسية مقدسات أهلها، ولقد جعلت دولته من أمان وتأمين غير المسلمين على عقائدهم وصلبانهم وكنائسهم ـ مع أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأبنائهم ـ دينا وعهدا وميثاقًا.. بينما اليهودية لا تعترف لا بالمسيحية ولا بالإسلام.. والنصرانية تتخذ نفس الموقف من الآخر الدينى ومن مقدساته.. ولذلك، لم تكن صدفة، ولم يكن مجرد تسامح أن تشيع قدسية القدس بين كل أصحاب المقدسات، فى ظل السيادة الإسلامية على القدس، وأن تقع هذه المدينة وقداستها فى الاحتكار عندما يحتلها الآخرون.. الأمر الذى يجعل من السيادة الإسلامية على القدس المصلحة المحققة لكل أصحاب الديانات، وليس فقط للمتدينين بدين الإسلام.. ولأن هذه هى حقيقة الاعتقاد الإسلامى، التى جسدتها السيادة الإسلامية على القدس، فلقد رأينا ـ عبر تاريخ هذه المدينة المقدسة ـ حجج أوقاف الكنائس النصرانية تنص على أن يكون «نظار» هذه الأوقاف الكنسية من المسلمين، بل وتنص كثير من هذه الحجج على أن تكون «مفاتيح» الكنائس بيد آسر مقدسية مسلمة!.

* * *

ولأن هذا هو مقام القدس فى عقيدة الإسلام والمسلمين.. وموقعها فى التاريخ الإسلامى.. ومكانتها فى الدولة الإسلامية.. فإننا يجب أن نتعامل معها، فى هذا الطور من أطوار الصراع التاريخى حولها وعليها، باعتبارها أكثر من قطعة أرض.. وأعظم من مدينة.. وأهم من عاصمة للدولة الفلسطينية.. وأخطر من كونها قلب الصراع العربى الصهيونى.. إنها كل ذلك وأكثر من ذلك.. إنها جزء من عقيدة أمة يبلغ تعدادها مليارًا ونصف المليار، وليست مجرد قضية وطنية لعشرة ملايين من الفلسطينيين، ولا مجرد مشكلة قومية لنحو من ثلاثمائة مليون عربى. إنها عاصمة الوطن الفلسطينى.. ومحور الصراع العربى الصهيونى، وفوق كل ذلك، أنها عقيدة إسلامية، وحرم مقدس، والرباط بينها وبين الحرم المكى هو التجسيد لعقيدة وحدة دين الله، التى جاء بها الإسلام.. فإسلامية القدس، وإسلامية موقفنا فى الصراع حولها، يضيف للإمكانات الوطنية الفلسطينية

والطاقات القومية العربية، ولا ينتقص منها.. بل إن هذه الإسلامية لقضية القدس، هي - كما أشرنا - في مصلحة سائر أصحاب المقدسات من سائر المتدينين بالديانات.

* * *

وإذا كانت هذه هي حقيقة أبعاد موقفنا من قضية القدس.. فإن الوعي بهذه الحقيقة، واستدعاء طاقات هذه الأبعاد الإسلامية.. تتزايد وتشتد عندما نعلم أبعاد الموقف المعادي إزاء هذه المدينة المقدسة.. صحيح أننا نواجه - في القدس وفلسطين - مشروعًا استعماريًا استيطانيًا عنصريا، لكنه ليس كغيره من المشاريع الاستيطانية العنصرية - كالذي قام في جنوب أفريقيا مثلاً - وإنما نواجه أبعاداً أسطورية دينية لهذا المشروع الاستيطاني الاستعماري العنصري، تجعل من استدعاء الأبعاد الدينية الإسلامية لموقفنا من هذه القضية ضرورة صراعية، فضلاً عن أنها دين واعتقاد.

فهذا المشروع الاستيطاني العنصري، القائم الآن في القدس وفلسطين، قد تبلور أول ما تبلور، في «اللاهوت البروتستانتي» الغربي، انطلاقا من الفكر الأسطوري حول «رؤيا يوحنا»، وعودة المسيح - عليه السلام - ليحكم الأرض ألف سنة سعيدة، بعد معركة «هَرْمجدّون»، والذي جعل من جمع اليهود وحشدهم في فلسطين، وتهويد القدس، وإقامة الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى، أي جعل من تحقيق العلو الصهيوني، دينًا يتدين به البروتستانت في الغرب.. ثم حدث التبشير بهذا المشروع البروتستانتي بين الجماعات اليهودية، فتلقفته الصهيونية - كحركة قومية عنصرية - والإمبريالية الغربية - إبان زحفها على الشرق الإسلامي - وبحثها عن أقليات توظفها - كمواطئ أقدام - في المشروع الاستعماري.. فاجتمعت لهذا المشروع الاستيطاني الاستعماري العنصري عناصر متعددة ومركبة.. منها:

١ - البعد الديني في لاهوت النصرانية الغربية.. وهو الذي بدأ بروتستانتيًا، ثم مارس الابتزاز والتأثير على الكنيسة الكاثوليكية الغربية، حتى جعلها تشرع في «تهويد نصرانيتها» - بدلاً من تحقيق الاعتراف اليهودي بالنصرانية! - فهي الآن تسعى لتجعل «يهوه» إلهها!... وتتحدث عن «دمج المسيح في إسرائيل»... وتعدّل، ليس

فقط فى «الفكر المسيحى»، وإنما فى «الأناجيل والصلوات»!.. لتصل إلى طلب «الغفران» من اليهود، بعد أن عاشت قرونًا تبيع «صكوك الغفران»!

٢ - والبعد الاستعمارى العلمانى - بل والدهرى الوضعى والمادى - فبونابرت (١٧٦٩ - ١٨٢١م) الوضعى الدهرى.. هو أول من دعا إلى توظيف هذه الأساطير الدينية فى خدمة مشروعه الاستعمارى.. و«سايكس» - السياسى الاستعمارى الإنجليزى - الذى عقد مع «بيكو» الفرنسى - معاهدة «سيكس - بيكو» سنة ١٩١٦م لتمزيق الدولة العثمانية، وتوزيع أجزائها العربية بين القوى الاستعمارية.. قد أقاموا له تمثالاً فى قريته «سلدمير» - بمقاطعة «يوركشاير».. مكتوب عليه: «ابتهجى يا قدس»!.. فالقدس هى هدف الاستعمار الغربى العلمانى، كما هى هدف اللاهوت النصرانى الغربى.

وعندما دخل الجنرال الإنجليزى «اللنبى» القدس سنة ١٩١٧م، تقمص صورة بابوات الحروب الصليبية، فقال: «اليوم انتهت الحروب الصليبية»!.. ويومها نشرت مجلة «بنش - Punch» الإنجليزية رسما يمثل «ريتشاد قلب الأسد» الملك الصليبى - وهو يقول: «الآن تحقق حلمى»!

أما الجنرال الفرنسى «جورو» - الذى يرفع راية العلمانية الفرنسية المتطرفة - فهو الذى يذهب - عند دخوله دمشق سنة ١٩٢٠م - إلى قبر صلاح الدين الأيوبى ليركله بقدمه، ويقول: «ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين»!

فالبعد العلمانى الغربى، يحالف ويعانق ويساند ويوظف البعد اللاهوتى الغربى فى الصراع على القدس وفلسطين.

٣ - والبعد الإمبريالى الأمريكى المعاصر، الجامع بين الدين والاستعمار، ها هو يوظف «المسيحية الصهيونية»، فى خدمة «تديين» الاغتصاب الصهيونى الغربى للقدس وفلسطين.. فـ «الكونجرس» الأمريكى، عندما يقرر فى سنة ١٩٩٥ نقل السفارة الأمريكية إلى القدس - وبناءها على أرض الأوقاف الخيرية الإسلامية! - يقول، فى مقدمة قراره هذا «إن القدس هى الوطن الروحى لليهودية»!.. مع أن هذه القدس لم يرها نبى اليهودية موسى عليه السلام، ولم تنزل فيها توراة اليهودية.. وإذا كان داود وسليمان - عليهما السلام - قد عاشا فيها برهة من تاريخها الطويل، فهما - بنظر اليهود - ملوك وليسوا رسلاً ولا أنبياء.. فلم؟ ومتى

كانت القدس الوطن الروحى لليهودية؟! إن الإمبريالية تحول الأساطير إلى دين تدعم به الاغتصاب!

٤ - وأخيراً، البعد العنصرى الصهيونى، الذى حول اليهودية إلى عنصرية صرفة، لا علاقة لها بذلك الدين السماوى الذى أنزله الله على موسى، عليه السلام.. فتعريف اليهودى - فى دائرة معارف كيانها الاستيطانى - هو «المولود من أم يهودية».. أى أن هذا العامل «البيولوجى»، وليس التدين بالدين، هو الذى يحدد يهودية اليهودى.. فالمولود من أم يهودية - حتى ولو كان ابن زنا.. أو ملحدا - يصبح يهوديًا، ومن شعب الله المختار، وصاحب الحق فى الاستيطان والاغتصاب للقدس وفلسطين!!

هكذا، نواجه - فى القدس وفلسطين - استعماراً استيطانيًا إمبرياليًا عنصريًا، يوظف الأساطير والأوهام والأكاذيب؛ ليجعلها دينا يدعم المشروع الاستعمارى، و«روحانية» تغلف الاستيطان العنصرى. فهل تترك العدو يدعم الباطل بالأساطير.. ونهمل - نحن - تأييد الحق الفلسطينى الوطنى، والمطلب العربى القومى بحقائق الوحى الإلهى، وصادق الاعتقاد الدينى، وناصع صفحات واقع الحضارة والتاريخ؟!

إن الذين يخافون من «أسلمة» الصراع حول القدس وفلسطين - حتى إذا حسنت نواياهم - هم كالسفهاء، الذين لا يعرفون قيمة «الأسلحة الإيمانية»، التى ورثوها عن الأجداد فى هذا الصراع التاريخى الطويل... وهم بهذا السفه إنما ينزعون من الأمة أمضى أسلحتها فى هذا الصراع؛ فيرجحون بذلك كفة الأعداء فى هذا الصراع.

إن إسلامية القدس، هى «الحق» الذى نَفُلّ به أساطير الأعداء.. وهى لا تنتقص من الإمكانات الوطنية الفلسطينية والطاقات القومية العربية فى هذا الصراع، وإنما تضيف إليهما طاقات الاعتقاد الإسلامى وإمكانات أمة الإسلام.

كما أن هذه الإسلامية لا تهدد جهادنا بشبهة «الحرب الدينية»، التى يخافها كثيرون؛ لأن إسلامية القدس هى وحدها ضمان شيوع قدسيتها بين جميع أصحاب المقدسات، من كل الديانات.. ومن ثم فإنها ضمان عدم احتكارها.. وهو الاحتكار الذى يهددها بالتهويد فى هذه الأيام.

لقد كتبوا علينا صدام الحضارات

بعد سقوط المنظومة الماركسية ومعسكرها وأحزابها وحكوماتها سنة ١٩٩١م، وزوال «الشقاق الاجتماعي» الذى استمر داخل الحضارة الغربية لأكثر من سبعين عامًا ـ الشقاق بين «الليبرالية ـ الرأسمالية» و«الشمولية ـ الشيوعية» ـ أعلنت الليبرالية الغربية عن انتصارها «التاريخى» لا فى إطار حضارتها الغربية فقط وإنما ـ مدعية عالمية ـ بل وأبدية ـ هذا الانتصار.. وكان كتاب «فوكوياما» ـ الأمريكى الجنسية اليابانى الأصل ـ [نهاية التاريخ] الإعلان عن دعوى وادعاء هذا الانتصار..

ولقد حظى هذا الكتاب الصغير فى وطن العروبة وعالم الإسلام باهتمام كبير، ونقد كثير، ورفض شديد!.. وقبل أن تهدأ عاصفة [نهاية التاريخ] أثار الكاتب الأمريكى ـ اليهودى الديانة ـ «صامويل. ب. هنتنجتون» عاصفة أشد، بدراسته عن [صراع الحضارات].. وهى الدراسة التى استقبلت فى شرقنا العربى والإسلامى ـ أيضًا ـ باهتمام كبير، ونقد كثير، ورفض شديد!..

وعلى خلاف هذا الاستقبال الغاضب والرافض، الذى استقبلت به هاتان الدراستان.. فلقد كان الأولى ـ فى تقديرى ـ أن نتأملهما جيدًا، وأن ننظر إليهما باعتبارهما إعلانا صريحًا وصادقًا عن «واقع موقف» الحضارة الغربية من الأمم والقوميات والحضارات غير الغربية، و«واقع موقف» الليبرالية الرأسمالية من الفلسفات والمذاهب الاجتماعية الأخرى.. ومن ثم كان علينا أن نشكر «فوكوياما»، و«صامويل هنتنجتون» على الصدق فى إعلان حقيقة واقع الموقف الغربى من «الآخرين».. كل الآخرين.

فـ «فوكوياما» أراد أن يعلن ـ فى لحظة صدق، عبرت عن «واقع موقف»

الحضارة الغربية ـ أن سقوط الشيوعية يعني: السيادة الأبدية لليبرالية الرأسمالية الغربية ـ ومن ثم لنظامها «العالمي» الجديد ـ على كل المذاهب والفلسفات الاجتماعية، وعبر كل القارات والأمم والحضارات.. وإلى الأبد!..

وكان مفترضًا ـ وواجبًا ـ أن نولي الاهتمام، ونقدم الشكر، لمن يصارحنا بحقيقة موقف الغرب من المذاهب والأيديولوجيات والحضارات غير الغربية.. فمن يصارحنا بحقيقة موقفه منا أولى بتقديرنا وشكرنا ـ حتى ولو كان عدواً لنا ـ من أهل الغواية والمراوغة، الذين يقدمون «الفكر» في ثياب «الديبلوماسية»، ويتحدثون عن «حوار الحضارات» في ذات الوقت الذي يجتاحون فيه كل مقومات ذاتيتنا الحضارية، من الثقافة.. إلى القيم.. إلى الاقتصاد.. وحتى السيادة الوطنية.. وحق تقرير المصير..

ولقد تابعت الكثير مما كتب عن دراسة «هنتنجتون» حول [صراع الحضارات].. ووجدت ـ في كثير من هذا الذي كتب عنه ـ رفض الذين كانوا يتمنون لو أن الرجل لم يعلن حقيقة الموقف الغربي من الحضارات غير الغربية!!..

لقد نظر الكثيرون إلى حديث «هنتنجتون» عن:

- أن الصراع القادم هو صراع حضارات، تمايز بينها وتحدد أوطانها وحدودها «الثقافات».

- وأن أشد وقائع هذا الصراع قائم بين الحضارة الغربية وبين الحضارة الإسلامية، والحضارة الصينية..

- وأن على الغرب أن «يُحيِّد» الحضارات الأخرى، حتى يصرع الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية، ثم يستدير ليحتوى تلك الحضارات التي «حيّدها»!..

لقد نظر الكثيرون إلى حديث «هنتنجتون» هذا باعتباره «رأيا» فانتقدوه.. بينما الرجل يتحدث عن «واقع موقف» الحضارة الغربية ـ التاريخي ـ في هذا الميدان.. وعن تصاعد حدة «واقع» هذا الموقف، بعد سقوط الشيوعية، وفراغ الليبرالية الرأسمالية الغربية من نزيف الشقاق والانشقاق الاجتماعي الداخلي، الأمر الذي

أعاد الوحدة الاجتماعية ـ على أرض الليبرالية ـ لكل دول وقوميات الحضارة الغربية، وزاد من قوة قبضتها فى مواجهة «الآخرين»!..

فللرجل فضل الإعلان عن «واقع الموقف» الغربى.. وكان أولى بنا نتظر إلى دراسته بهذا المنظار.. ولو أننا نظرنا ـ حتى النظرة العجلى ـ إلى «واقع» علاقة الحضارة الغربية ـ تاريخيا ـ بغيرها من الحضارات، لوجدنا أن هذا «الواقع ـ التاريخى» قد جسد هذا الذى تحدث عنه «هنتنجتون»، فى تاريخ الصراعات والهيمنة والغطرسة والاستعمار والاستغلال.. منذ غزوة الإسكندر الأكبر [٣٥٦ـ٣٢٤ق م] ـ التى أخضعت الشرق للإغريق والرومان، حتى أزاحتها الفتوحات الإسلامية، بعد عشرة قرون!.. وعبر الغزوة الصليبية، التى جاءت لتستعيد الهيمنة على الشرق، ودامت حملاتها قرنين من الزمان [٤٨٩ ـ ٦٩٠هـ ١٠٩٦ ـ ١٢٩١م].. ووصولا إلى الغزوة الحديثة، التى بدأت الالتفاف حول العالم الإسلامى فور سقوط «غرناطة»، واقتلاع الإسلام وحضارته من غرب أوروبا ـ فى الأندلس ـ [٨٩٧هـ ١٤٩٢م].. ثم ثنّت بغزو قلب العالم الإسلامى ـ مصر والشام ـ بحملة بونابرت [١٧٦٩ ـ ١٨٢١م] على مصر [١٢١٣هـ ١٧٩٨م]... وهى الغزوة التى لا زال المسلمون يعالجون جراحها وآثارها حتى كتابة هذه السطور!.. وحتى الحديث عن إفصاح «هنتنجتون» عن حقيقة موقف الغرب من هذا الصراع..

وغير هذا «الواقع التاريخى» الذى جسد «النزعة الصراعية» للحضارة الغربية إزاء غيرها من الحضارات، وإزاء الحضارة الإسلامية على وجه الخصوص.. هناك الكتابات التى قد تعز على الحصر، والتى تتحدث عن «المركزية الغربية»، التى جعلت وتجعل الحضارة الغربية نزّاعة إلى احتواء الآخر، وترويضه ودمجه فى نمطها الحضارى ومنظومتها القيمية.. وهى النزعة التى اعتمدت طريق «الصراع» فى العلاقة بالآخرين، بل وجعلت من هذا الصراع مع الآخرين، ومن احتوائهم، وإلغاء ذاتيتهم وخصوصيتهم وهويتهم وتميزهم، جعلت من ذلك كله «رسالتها الحضارية النبيلة!» التى تقوم بها لتمدين هؤلاء الآخرين!!..

ولقد ساعدت النظريات الثلاث، التى زكّت وأثمرت هذه «النزعة الصراعية» فى البنية الفكرية للحضارة الغربية..

١ ـ الهيجلية ـ نسبة إلى «هيجل ـ Hegel» [١٧٧٠ ـ ١٨٣١م] ـ فى فلسفة التاريخ. . وهى التى قامت على نسخ العصر الجديد للعصر القديم، عبر الصراع مع مكوناته، والحلول محلها. .

٢ ـ والداروينية ـ نسبة إلى «دارون ـ Darwin» [١٨٠٩ ـ ١٨٨٢م] ـ فى فلسفة النشوء والارتقاء. . وهى التى قامت على صراع الأحياء، ونسخ ومحو الأقوى للأضعف والضعيف، لأن الأقوى ـ بإطلاق ـ هو الأصلح بإطلاق. .

٣ ـ والصراع الطبقى ـ سواء فى ماركسية «ماركس ـ Marx» [١٨١٧ـ١٨٨٣م] ـ أو فى الليبرالية الرأسمالية ـ . . والذى يعتمد «النزعة والفلسفة الصراعية» فى علاقات الطبقات الاجتماعية. . فالطبقة الوليدة والجديدة تصارع الطبقة القديمة، لتقهرها، وتزيحها، وترثها، وتنفرد بكل الثمرات والامتيازات والسلطات. . البورجوازية فى الليبرالية ـ . ـ والبروليتاريا عند الماركسيين ـ .

لقد ساعدت هذه النظريات الثلاث، التى صبغت هوية الحضارة الغربية بصبغة الفلسفة الصراعية، على «إماتة» الضمير الغربى، إبان «صراعه» مع الحضارات غير الغربية.. فبما أنه هو الأقوى، فهو ـ إذن ـ الأصلح.. ولذلك، فإن صراعه ضد الحضارات الضعيفة، والبنى الموروثة للأمم المستضعفة، هو «قانون علمى»، و«رسالة نبيلة» يقوم بها هذا الرجل الأبيض لإزالة «الماضى».. والمواريث والمؤسسات «الضعيفة»، وإحلال النموذج الحضارى الغربى «القوى.. والأقوى»، فى العالم كله، عبر التطبيقات المتنوعة «لفلسفة الصراع»!..

أما اختصاص الإسلام وأمته وحضارته وعالمه بالحظ الوافر من جهود الغرب فى صراع الحضارات، فإن واقع الصراع التاريخى شاهد عليه. . وصورة الإسلام ورسوله ﷺ وصورة المسلمين، فى الذاكرة والمخيلة والثقافة والإعلام الغربى شاهد ـ آخر ـ عليه. . وكلمة القائد العسكرى الإنجليزى «جلوب باشا» ـ الذى كتب عن الفتوحات العربية. . وحدد تاريخ «مشكلة الشرق الأوسط» مع الغرب ـ فقال: «إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط يعود إلى القرن السابع للميلاد»!! . . ـ أى إلى ظهور الإسلام ـ . وهى كلمة جديرة ـ وحدها ـ بإفاقة السكارى والنيام! . .

لذلك كله ـ ولمثله الكثير ـ كنت أتمنى ـ مع رفضنا لفلسفة الصراع فى علاقات الحضارات، ومع تزكيتنا لمنهاج الإسلام فى التدافع والتسابق بين الحضارات على طريق التقدم ـ أن ننظر إلى هذا الذى قدمه «صامويل هنتنجتون» باعتباره «فضيلة صدق» عبرت عن «واقع الموقف الغربى» فى العلاقة «بالآخرين».. وهو «الواقع» الذى خبرناه تاريخيا.. والذى صارحنا «هنتنجتون» بأنه ثابت ومستمر فى المستقبل القريب والبعيد!..

● فالرجل لم يحاول خداعنا ـ كما يصنع كتاب غربيون آخرون.. ومعهم أغلبية المتغربين من مثقفينا ـ بالقول بواحدية الحضارة عالميا.. وإنما قال الرجل بتعددية الحضارات على هذا الكوكب الذى نعيش فيه.. وهو قد حدد «الثقافة» معيارًا لتعدد وتمايز الحضارات.. ففى «المدنية» وعلوم المادة، وعمران الواقع المادى تشترك كل الحضارات.. لكنها تتمايز وتختلف فى عمران النفس الإنسانية، الذى تصنعه الثقافات.. وعن هذه الحقيقة المهمة قال «هنتنجتون»: «إن الحضارة هى كيان ثقافى..».

وعن التعددية الحضارية ـ فى عالمنا ـ.. والمعايير الثقافية التى أثمرت هذه التعددية، يقول: «.. وليس ثمة حضارة عالمية، بل عالم من الحضارات المختلفة.. وفى العالم سبع أو ثمانى حضارات كبرى.

١ ـ الحضارة الغربية..

٢ ـ والصينية الكونفوشيوسية..

٣ ـ واليابانية..

٤ ـ والإسلامية..

٥ ـ والهندية..

٦ ـ والأرثوذكسية السلافية..

٧ ـ والأمريكية اللاتينية..

٨ ـ وربما الأفريقية..

وهى حضارات تتمايز عن بعضها البعض باللغة، والتاريخ، والثقافة، والعادات، وأهم من ذلك الدين.

وأبناء هذه الحضارات المختلفة لديهم آراء مختلفة عن العلاقة بين الله والإنسان، والفرد والجماعة، والمواطن والدولة، والآباء والأبناء، والزوج والزوجة. وكذلك آراء متباينة عن الأهمية النسبية للحقوق والمسئوليات، والحرية والسلطة، والمساواة والتنظيم الهرمى.

وهذه الاختلافات هى نتاج قرون، ولن تختفى فى القريب العاجل؛ إذ إنها أكثر جوهرية من الاختلافات بين الأيديولوجية السياسية والنظم السياسية».

هكذا حدد «صامويل هنتنجتون» ـ فى دقة وموضوعية ـ موقفه مع تعدد الحضارات.. ومع دور الثقافات المتمايزة فى التعددية الحضارية، ودور الدين والثقافة فى التمايز الحضارى.. وتنوع الأمم ـ ومن ثم الحضارات ـ فى فلسفات.. رؤية الكون والماضى والمستقبل، وتصوراتها المتنوعة للمثل والمعايير الحاكمة والمنظمة للعلاقات بين الفرد والمجموع، وبين الأمة والدولة، وبين الحرية والمسئولية، وبين الآباء والأبناء، وبين الزوج والزوجة، وفى المساواة والتراتب الهرمى.. إلخ.. إلخ..

● وبعد هذا الانحياز ـ الموضوعى والدقيق ـ للتعددية الحضارية فى عالمنا، ورصد معاييرها، والإشارة إلى أصالتها وثباتها، وعلو تأثيراتها على الأيديولوجيات السياسية والنظم السياسية، أفصح «هنتنجتون» عن الموقف الغربى المنحاز لفلسفة الصراع بين الحضارات، لا كموقف ذاتى اختاره ويبشر به ويدعو إليه «هنتنجتون»، وإنما «كحتمية واقعية» للموقف الغربى إزاء الحضارات الأخرى.

فهو مجرد «واصف» لتاريخ هذا الصراع الغربى مع الحضارة الإسلامية، عندما يقول: «إن الصراع على طول خط الخلل بين الحضارتين الغربية والإسلامية يدور منذ ١٣٠٠ عام، وعلى كلا الجانبين يُنظر إلى التفاعل بين الإسلام والغرب على أنه صدام حضارات»..

وهو بالنسبة للمستقبل ـ مستقبل العلاقة بين الغرب والحضارة الإسلامية ـ

يفصح عن المخططات التى تعلنها الكثير من دوائر صنع القرار الغربى ومراكز الفكر الاستراتيجى الغربى ـ وهو مدير أحد تلك المراكز بجامعة هارڤارد الأمريكية ـ . . فيقول: «إن البؤرة المركزية للصراع، فى المستقبل القريب، سوف تكون بين الغرب والدول الإسلامية والآسيوية..».

● وبعد هذا «الإفصاح» عن «واقع الموقف الغربى» من صراع الحضارات ـ تاريخياً . . ومستقبلاً ـ . . يأتى دور «هنتنجتون» ـ كمفكر استراتيجى غربى، يهودى الديانة ـ ليشير على حضارته الغربية بكيفية إدارة هذا الصراع الحضارى، مستقبلاً، ومراحل هذا الصراع، وأولويات المعارك فيه..

فهو يشير على صناع القرار ـ فى حضارته الغربية ـ بتقسيم مراحل الصراع المستقبلى إلى مرحلتين:

الأولى ـ والقريبة ـ: هى مرحلة «المدى القصير». . وفيها ينصح «هنتنجتون» الغرب بتوحيد عالمه الحضارى، وتجييش كل أدوات الصراع ـ من آلة الحرب، إلى الاقتصاد، إلى السياسة، إلى الثقافة، إلى القيم، إلى المؤسسات الدولية ـ وتركيز الصراع ضد الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية. . فيقول: «إنه على المدى القصير من مصلحة الغرب:

● أن يعزز تعاوناً أكبر، وتوحيداً فى نطاق حضارته، وعلى وجه الخصوص بين مكونيها: الأوروبى والأمريكى الشمالى.

● وأن يدمج مجتمعات شرق أوروبا وأمريكا اللاتينية فى الغرب، وهى مجتمعات ذات ثقافة قريبة من ثقافة الغرب.

● وأن يعزز علاقات التعاون مع روسيا واليابان، ويحافظ عليها.

● وأن يحول دون تصعيد الصراعات المحلية بين الحضارات إلى حروب كبرى بين الحضارات.

● وأن يحد من توسع القوة العسكرية للدول الآسيوية والإسلامية.

● وأن يخفف من تقليص القدرات العسكرية الغربية.

● ويحافظ على التفوق العسكرى فى شرق وجنوب غرب آسيا.

● وأن يستغل الخلافات والصراعات الغربية فى الحضارات الأخرى.

● وأن يقوى المؤسسات الدولية التى تعكس وتسوّغ المصالح والقيم الغربية، وتضفى عليها الشرعية.

● وأن يروّج لاشتراك الدول غير الغربية فى هذه المؤسسات..».

فالرجل ـ كأستاذ وخبير فى الاستراتيجية.. ومقرب من دوائر صنع القرار ـ يضع لقومه «جدول أعمال» الصراع الحضارى فى «مرحلة المدى القصير».. وهو «جدول أعمال» نرى تطبيقاته قائمة على قدم وساق!.

فالمطلوب من الغرب ـ فى «المدى القصير» من هذا الصراع الحضارى ـ:

١ ـ توحيد كيانه الحضارى، وتعزيز التعاون بين دوائره. ودمج شرق أوروبا بغربها، وكل أوروبا مع أمريكا الشمالية وأمريكا اللاتينية.. أى الغرب الثقافى والقريب من ثقافة الغرب.. وهو الغرب النصرانى بمذاهبه المختلفة.

٢ ـ والتعاون والتحييد وضبط الصراعات فى كل الدوائر الحضارية، بل واستغلال حتى تناقضات الغرب فى داخل الحضارات غير الغربية؛ لكى يكون التركيز، فى الصراع، ضد الإسلام والصين.

٣ ـ وتقليص القدرات العسكرية للمسلمين والصينيين، وزيادة القدرات العسكرية الغربية، والحفاظ على التفوق العسكرى الغربى «فى شرق وجنوب غرب آسيا»، أى فى مواجهة الصين والمسلمين!..

٤ ـ وتقوية المؤسسات الدولية التى تنهض «بتسويغ المصالح والقيم الغربية، وتضفى عليها الشرعية، وإشراك الدول غير الغربية فى هذه المؤسسات».. لتلتزم بالمواثيق «الدولية»، المسوّغة للمصالح والقيم الغربية ـ على النحو الذى رأيناه ونراه فى المؤتمرات والمواثيق التى عقدت وتعقد تحت مظلة المؤسسات «الدولية» ـ من «السكان» ـ فى القاهرة ـ إلى «المرأة» ـ فى بكين ـ إلخ.. إلخ..

تلك هى معالم خطة «هانتنجتون» للمدى القصير، والمرحلة الأولى من صراع الغرب الحضارى، الذى ينصح بتركيزه على الحضارتين الإسلامية والصينية!.

والمرحلة الثانية ـ من هذا الصراع الغربى ضـد الحضارات غير الغـربية ـ مرحلة «المدى الطويل» ـ والتى هى بتـعـبيـر «هانتنجـتون» ـ: مـرحلة الاحـتـواء الغـربى للحضارات غير الغـربية، التى نجحت فى «تحديث» واقعها، مع احتفـاظها بذاتيتها وهويتها الحضارية غير الغربية!.

فبعد المرحلة الأولى مـن هذا الصراع الحضارى.. مرحلة كسر شوكة الحضارة الإسلامـية، والحضارة الصـينية.. تأتى مرحلة احتـواء الحضارات الأخرى، غـير الغربية، التى حيّدها الغرب فى المرحلة الأولى من هذا الصراع، وخاصة تلك التى نجـحت فى مـيـدان القـوة والتـحديـث العـسكرى والاقـتصـادى.. وبعـبـارات «هنتنجتون»: «أما على المدى الأطول، فسيكون اتخاذ إجراءات أخرى أمرا مطلوبًا. فالحـضارة الغربيـة هي حضارة غـربية وحديثـة معًا. وقد حـاولت الحضارات غـير الغربيـة أن تكون حديثـة دون أن تصبح غـربية. وحـتى يومنا هذا لم تنجح فى هذا المسعى إلا اليـابان. وسوف تواصل الحـضارات غيـر الغربية مـحاولاتها للحـصول على الثروة والتكنولوجيا والمهارات والمكنات والأسلحة، التى تمثل جـزءاً من كون الحضارة حديثة. كذلك ستحـاول تلك الحضارات أن توائم هذه الحداثة مع ثقافتها وقيـمها التقليـدية. أما قوتها الاقـتصادية والعـسكرية فسوف تزيد بالنسبـة للغرب. ومن ثم، يتوجب على الغرب ـ على نحو متزايد ـ:

● أن يحتـوى تلك الحضارات الحديثـة غير الغربيـة، التى تقترب قوتهـا من قوة الغرب، لكن قـيمهـا ومصالحـها تختلف إلى حـد كبيـر عن قيم ومصـالح الغرب. وسوف يستـلزم ذلك من الغرب أن يحتفظ بالقـوة الاقتصادية والعـسكرية اللازمة لحماية مصالحه فيما يتعلق بهذه الحضارات»!.

هكذا عبر وأفـصح «صامويل. ب. هانتنجتـون» عن الرؤية الغربية للمسـتقبل الحضارى للعالم الذى نعيش فيه.

فالغـرب يتصـور حضـارته منفردة «بالعـرش الحضـارى» العالمى.. فهـى المركز والمنهاج والطريق الذى يجب على الآخرين تقليده، أو اللـحاق به، لتبنيه. حداثة كان هذا النموذج، أو مـا بعد الحداثة!.. لأن الليبـرالية الرأسمالية هـى ـ بالنسبة للعالم كله ـ هى نهاية التاريخ.. و«القدَر الغربى»، الذى ليس منه فرار!..

ويتصور «الصراع» بين الحضارات المتعددة سبيلاً لإلغاء هذه التعددية الحضارية ـ فى المدى الطويل ـ . . فبعد استجماع الغرب وحدته، وتجييشه لكل إمكاناته، وتحييده للحضارات غير الغربية، ينجز مهمة المرحلة القصيرة والأولى من هذا الصراع الحضارى: كسر شوكة الحضارة الإسلامية، والحضارة الصينية . . مع ضبط كل الحضارات داخل المؤسسات «الدولية» التى تقوم بمهمة «تسويغ المصالح والقيم الغربية، وإضفاء الشرعية عليها»! . .

أما فى المدى الأطول ـ وبعد الفراغ من كسر شوكة الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية ـ فسيكون الهدف الغربى ـ فى هذا الصراع الحضارى ـ هو احتواء بقية الحضارات غير الغربية؛ تلك التى نجحت فى تحديث مجتمعاتها عسكريًا واقتصاديًا ـ وهى الحضارات التى سبق «وحيَّدها» الغرب فى المرحلة الأولى من هذا الصراع ـ . . وذلك ليتحقق للغرب الانتصار الأعظم فى هذا الصراع، منفردًا بالقوة والتحديث والهيمنة على العالم، دونما شريك . . وخاصة إذا جمع هذا «الشريك» بين التميز الثقافى والحضارى وبين نهضة التحديث وقوة التجديد! . .

* * *

هكذا يفكر الغرب ـ كحضارة ـ فى دوائر الفكر الاستراتيجى . . وفى دوائر صنع القرار . . وليس بالضرورة كإنسان، بتعميم وإطلاق . .

ففى الغرب تيارات فكرية تدرك أن هذه الفلسفة الصراعية ـ التى تتبناها كثير من مراكز الدراسات الاستراتيجية الغربية . . وتطبقها وتمارسها كثير من الحكومات الغربية ـ تدرك أن هذه الفلسفة الصراعية إنما تمثل «خطيئة فكرية»، ووبالاً على الإنسانية جمعاء . . وبعض هذه التيارات الفكرية ـ فى الغرب ـ يسعى إلى الحوار الصادق مع تيارات التجديد الإسلامى، لاكتشاف وتحديد وبلورة القيم الإنسانية المشتركة بين مختلف الحضارات والأنساق الفكرية والعقدية لمختلف الأمم والشعوب والديانات والثقافات.

أما الغرب، الذى أفصح عن «واقعه الفكرى والعملى» صامويل هانتنجتون، فهو هذا الذى رأيناه ورأينا مخططه فى صراع الحضارات.

ولنا أن نسأل من ذا الذى يستحق منا التقدير والاحترام:

- صامويل. ب. هنتنجتون.. الذى انحاز إلى التعددية الحضارية فى عالمنا.. ثم أفصح عن الموقف الغربى من هذه التعددية الحضارية؟..

- أم هؤلاء الذين يخدعوننا عندما يتحدثون عن وحدة الحضارة العالمية، التى غدت - بما يسمونه «العَوْلَمة» - قرية واحدة.. متجاهلين أن أهل هذه القرية ليسوا سواء.. فمنهم القاتل ومنهم المقتول.. ومنهم المدجج بكل أسلحة الدمار ومنهم من يُنزع سلاحه.. ومنهم مغتصب الأرض والعرض والسيادة.. ومنهم المشردون المحرومون من أبسط الحقوق فى تقرير المصير.. ومنهم الذين يجتاحون اقتصاديات وقيم وثقافات الآخرين، ومن تتعرض هوياتهم وخصوصياتهم لأشرس ألوان الاجتياح!!.. من يستحق منا الاحترام..

«هنتنجتون».. الذى يصارحنا بحقيقة الفكر السائد فى الغرب - بمراكز الدراسات الاستراتيجية.. وفى دوائر صنع القرار -؟

أم دعاة «العولمة» و«الكوكبة» و«الكوننة».. أولئك الذين يطعمهم الإعلام الغربى بالمصطلحات التى يصكها، وبمضامين هذه المصطلحات، لينطلقوا فى الترديد والتكرار والتقليد؟!.

أعتقد - والله أعلم - أن «صامويل. ب. هنتنجتون» هو الجدير بالاحترام!

* * *

وإذا كانت هذه هى الرؤية الغربية للعلاقة بين الحضارات، والتى تأسست على «النزعة الصراعية» التى صبغت فكرية الحضارة الغربية - منذ صراعات آلهة اليونان بعضهم مع بعض وحتى صراع الحضارات الذى تحدث عنه هنتنجتون - وعبر الصراعات الدينية والمذهبية والقومية والاستعمارية - فإن للإسلام رؤية أخرى للعلاقة بين الحضارات..

● فالإسلام يرفض فكرة الواحدية والمركزية الحضارية، بانحيازه إلى فلسفة التعددية»، كرؤية كونية.. فالواحدية هى فقط للذات الإلهية، وما عدا الله - سبحانه وتعالى - يقوم على التعدد والتساند والتوازن والارتفاق..

يرى الإسلام هذه التعددية السنة الإلهية والقانون الكونى الذى لا تبديل له ولا تحويل.. فى الشعوب والأمم والقبائل.. وفى الألسنة واللغات والقوميات.. وفى الشرائع والملل والنحل..

وفى المناهج والثقافات والحضارات.. فالتعددية هى الأصل والقاعدة والقانون.. والعالم يجب أن يكون «**منتدى حضارات**»، لا حضارة واحدة تصارع وتصرع غيرها من الحضارات!..

● والبديل الإسلامى لصراع الحضارات، ليس حالة «**السكون**» فى علاقات الحضارات بعضها بالبعض الآخر؛ لأن فى السكون «مواتًا»، ربما أفضى إلى «التبعية والتقليد»، اللذين ينتهيان إلى الواحدية والمركزية الحضارية.. وإنما البديل الإسلامى لفلسفة الصراع، هو «**فلسفة التدافع**» بين الحضارات.

وهذا التدافع هو «**حراك**» اجتماعى وثقافى وحضارى، أى تنافس وتسابق بين الحضارات، يعدل المواقف الظالمة، والممارسات الجائرة، والعلاقات المنحرفة، دون صراع يصرع الأطراف الأخرى - فيلغى التعددية - وإنما بالحراك والتسابق الذى يعيد العلاقات المختلة إلى درجة التوازن والعدل فى العلاقات بين مختلف الفرقاء.

«فالتدافع الحضارى» - الذى هو حراك وتنافس وتسابق، يحافظ على التعددية - ويتوسط بين «الصراع» وبين «السكون» هو فلسفة الإسلام وسبيل حضارتنا الإسلامية فى العلاقات بين الحضارات.

وفلسفة التدافع هذه ليست مجرد «**فكر إسلامى**»، حتى تكون من مناطق «**الاجتهادات والمتغيرات**»، وإنما هى «**دين ثابت**»، ومنهاج بلوره الوحى الإلهى فى القرآن الكريم، باعتباره سنة من سنن الله فى الاجتماع الإنسانى، حاكمة للعلاقات بين الأفكار والشرائع والملل والأقوام والحضارات..

فالله - سبحانه وتعالى - عندما يخاطب رسوله ﷺ فيقول له: ﴿**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾ (فصلت: ٣٤، ٣٥).. يعلمنا - سبحانه - معالم هذا المنهاج.. فالتدافع لا يتغيا «صرع الآخر وإلغاءه»، وإنما تحويل

موقفه وموقعه من «العداوة» - التى تجعله من أهل «السيئات» - إلى موقع وموقف «الولى الحميم» - الذى يجعله من أهل «الحسنات»!.. . فيتم «الحراك»، بواسطة «التدافع»، مع بقاء «تعددية الفرقاء المتمايزين».

بل لقد حدثنا القرآن الكريم عن هذه «السبيل الإسلامية» - سبيل «التدافع»، لا «الصراع» - باعتبارها الحافز الذى يدفع الحياة والعمران إلى الارتقاء دائماً وأبداً.. ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ [البقرة:٢٥١].

فالصراع الحضارى.. ونقيضه - السكون الحضارى - ليس سبيل التقدم والصلاح والإصلاح، وإنما سبيل التقدم هو وسطية التدافع والتنافس والتسابق على طريق التقدم والنهوض والخيرات..

وعندما أذن الله - سبحانه وتعالى - لرسوله ﷺ وللمؤمنين بالقتال - قتال الذين أخرجوهم من ديارهم وقاتلوهم وفتنوهم فى الدين - جاء الحديث عن التدافع»، لتكون غايات القتال - الذى فُرض على المسلمين وهو كُرْهٌ لهم - هى تعديل مواقف المشركين من مواقع العداء المشرك المعتدى إلى مواقف السلام، فهى «حراك» لا «نفى وإهلاك»: ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور ﴿٣٨﴾ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴿٣٩﴾ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴿٤٠﴾ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾ [الحج:٣٨ - ٤١].

ففلسفة «التدافع الحضارى» هى البديل الإسلامى «لفلسفة الصراع الحضارى» الغربية.. ولذلك ازدهرت فى دولة الإسلام وحضارته وأمته التعددية فى الملل والنحل والشرائع واللغات والقوميات والعادات والأعراف، فعاشت الديانات - الكتابية والوضعية - ومؤسساتها، فى ظلال حضارة الإسلام..

على حين جعلت «النزعة الصراعية» الحضارة الغربية تضيق حتى بالتعددية

المذهبية داخل النصرانية!.. ولا تزال هذه «النزعة الصراعية» تحدد للغرب منهاج العدوان وطريق الصراع ضد سائر الحضارات.. وخاصة حضارة الإسلام!.. على النحو الذى رأيناه فى «اعتراف» «صامويل. ب. هنتنجتون»!.

* * *

ولهذه الحقائق - التى ربما خالفنا فيها آخرون - فإن العقل العربى والمسلم فى أمس الحاجة إلى إدارة حوار فكرى - موضوعى وجاد وصبور - حول هذه القضية - قضية العلاقة بين الحضارات -:

- صراع هى.. هذه العلاقة؟.

- أم تدافع وتنافس وتسابق، يحافظ على التعددية فى هذه الحضارات؟..

* * *

قارعة سبتمبر.. هل قسمت العالم إلى فسطاطين؟!

● هل انقسم العالم ـ بعد أحداث سبتمبر سنة ٢٠٠١م. . فى أمريكا ـ إلى فُسطاطَين ـ ومعسكرين ـ اثنين: فسطاط الكفر. . وفسطاط الإسلام؟

لقد تذكرت، عندما سمعت هذا التقسيم لعالم ما بعد «قارعة سبتمبر»، أدبيات الحركات الماركسية، فى مصر والبلاد العربية، وكيف أن تقاريرها، وتحليلاتها ومحاضراتها كانت تبدأ غالبًا بعبارة تقول: «ينقسم العالم إلى معسكرين: معسكر الاشتراكية والشيوعية والتحرر والسلام. . ومعسكر الرأسمالية والإمبريالية والحرب والعدوان».

وعندما برزت حركات التحرر الوطنى، وتبلورت كتلة عدم الانحياز، التى كانت تكافح ضد معسكر الرأسمالية والإمبريالية، وفى ذات الوقت لا تنضوى تحت علم الشيوعية، راجع الماركسيون العرب تحليلاتهم، فلم يعودوا يرددون هذه «المسلّمة ـ اللازمة» التى تقسم العالم إلى معسكرين اثنين، وأضافوا إلى هذا التقسيم: معسكر عدم الانحياز وحركات التحرر الوطنى. . واختفى من أدبياتهم ذلك التقسيم القديم.

ولقد أدركت، كذلك، عندما سمعت هذا التقسيم ـ من بعض الإسلاميين ـ للعالم إلى فسطاطين، أحدهما للكفر والثانى للإسلام، أدركت المفارقة التى جمعت بين هذا التقسيم الثنائى الحاد وبين تقسيم «جورج بوش» ـ الصغير ـ للعالم إلى معسكرين اثنين، أحدهما يضم الذين انصاعوا لأمريكا ضد ما أسماه «الإرهاب» والآخر يضم الذين لم ينساقوا انسياق القطيع مع أمريكا فى حربها العالمية غير المسبوقة، ضد هذا «الإرهاب». . وهى مفارقة جمعت بين «جورج بوش» ـ الصغير ـ وبين أعدا أعدائه من الإسلاميين الذين قسموا العالم ذات التقسيم!

وأنا أعتقد أن هذا التقسيم قد جانبه الصواب، وأنه نموذج على اجتماع النقيضين على الرأى الخطأ، مصداقًا للقاعدة المتعارف عليها فى الفكر السياسى، والتى تقول: إن أهل الغلو، من أقصى اليمين وأقصى اليسار، إنما يقفون على «أرض الخطأ» المشترك!

* * *

ونحن إذا عدنا إلى المنهاج الإسلامى فى رؤية العالم، وفى علاقة «الذات الإسلامية» بـ «الآخر غير المسلم»، كما رسمه القرآن الكريم وضرب عليه الأمثال، سنجد منهاجًا، علميًا وموضوعيًا وواقعيًا شديد الحرص على تبين كل ألوان أطياف الفروق فى صفوف «الآخر»، وعلى تلمس كل مؤشرات «الأشباه والنظائر» بين الإسلام وبين فصائل وطوائف ومذاهب هذا «الآخر» على النحو الذى يرفض التعميم، ويأبى وضع كل الآخرين فى فسطاط واحد وسلة واحدة.

وإذا كان هذا المنهاج الإسلامى هو الأدق والأصوب والأجدى، فإنه هو الأعدل.. وأيضًا هو الأصعب فى الفكر النظرى، والأصعب فى الممارسة والتطبيق.. فالتعميم الذى يقسم العالم إلى فسطاطين، هو السهل الميسور للذين «يفكرون» وللذين لا يفكرون!.. بينما تبين الفروق وتحديدها، واكتشاف الأشباه والنظائر وتقديرها، ثم ترتيب المهام والواجبات الإسلامية بناء عليها، هو الطريق الصعب والوعر، الذى يحتاج إلى ملكات الاجتهاد فى فقه الواقع وفقه الأحكام معا..

إن الإسلام لم يضع عالم الكفر فى سلة واحدة، وإنما ميّز بين المشركين وبين الكتابيين الذين كفروا برسول الإسلام ﷺ وشريعته، مع إيمانهم بشرائع وكتب سبقت ظهور الإسلام.

بل إن الإسلام لم يضع المشركين جميعًا فى سلة واحدة، وإنما ميّز بين المحاربين منهم وبين المعاهدين الذى لم ينقصوا المسلمين شيئًا من العهود التى تعاهدوا معهم عليها، فدعا إلى قتال المقاتلين من المشركين.. ودعا إلى الوفاء بعهود المعاهدين من هؤلاء المشركين.. بل وميّز بين شرك الجاحد للحق الذى يعرفه، وبين شرك الجاهل الذى أشرك عن جهل، فإذا استجار هذا المشرك الباحث عن المعرفة، فعلى المسلمين إجارته، وتقديم المعرفة إليه، ثم إيصاله آمنا إلى

مأمنه، وتركه لضميره، دونما إكراه ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

بل لقد ميّز الإسلام بين الدهريين، الذين استبدلوا الدهر بالله سبحانه وتعالى وبين المشركين الذين لم يجحدوا وجود الخالق للخلق، لكنهم أشركوا مع الخالق الأصنام التي زعموا أنها تقربهم إلى الله زلفى!

نعم.. تحدثت آيات القرآن الكريم عن هذا التنوع وعن هذه التعددية في صفوف وأصناف المشركين.. وهو منهاج علمي وموضوعي في دراسة الواقع.. كما أنه نموذج للعظمة في العدل بين الناس.

* * *

وكذلك صنع المنهاج الإسلامي في وصف الكتابيين، فميز بين اليهود وبين النصارى.. فالأولون هم أشد الناس عداوة للذين آمنوا، بينما النصارى هم الأقرب مودة للمسلمين.. ثم هو لم يضع جميع النصارى في سلة واحدة، وإنما ميّز بين الموحدين منهم ـ أتباع «آريوس» (٢٥٦ ـ ٣٣٦م) من مثل نجاشي الحبشة، وأهل شبه الجزيرة الأيبيرية ـ الذين يتعبدون على شريعة عيسى ـ عليه السلام ـ وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول في القرآن ـ عن عيسى ومريم ـ ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق.. يميّز الإسلام بين هؤلاء النصارى، وبين النصارى الذين عبدوا المسيح وأمه والأحبار والرهبان من دون الله، فوصفوا في القرآن بصفات الكفر، بل وبالشرك أيضًا.

وكذلك صنع المنهاج القرآني مع فصائل ومذاهب اليهود أيضًا.. فمع حديثه عن عداوتهم الأشد للمؤمنين، وعن العنصرية التي جعلتهم يحادّون الله ويقتلون أنبياءه، نجد القرآن يبلغ قمة العدل معهم عندما لا يضعهم جميعًا في سلة واحدة وقسطاط واحد، وإنما يرى أنهم ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣ ـ ١١٥].

بينما منهم الذين لا يتناهون عن منكر فعلوه ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

ويؤكد القرآن الكريم هذا المنهاج عندما لا يعمم في الحديث عن هؤلاء الكتابيين.. وإنما يستخدم حرف التبعيض - «من» - للتمييز بين الفرقاء والمذاهب والتوجهات داخل هؤلاء اليهود، فيقول: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، وعندما يتحدث عن ﴿طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٦٩]، و ﴿كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [البقرة: ١٠٩] دونما تعميم وإطلاق.

ومع اشتراك الفرس والروم - يوم ظهر الإسلام - في التجبر والظلم والاستعمار ونهوض الإسلام لتحرير ضمير الإنسان من القهر الديني والثقافي والحضاري الذي مثله الفرس والروم في ذلك التاريخ، إلا أن الإسلام لم يسوِّ بين هذين الطاغوتين - الفرس والروم - فميز القرآن الكريم بين المتدينين منهم بالديانة السماوية - الروم - وبين المجوس، وذلك عندما تحدث عن حزن المسلمين لتغلّب الفرس على الروم، وفرحهم يوم يأذن الله بانتصار الروم النصارى على الفرس المجوس ﴿الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ١ - ٤].

ففي إطار قوى التجبر والهيمنة هناك أيضًا فروق، لا يغفلها منهاج الإسلام في رؤية الآخرين، وفي العلاقات مع هؤلاء الآخرين.. ولقد جاء فقهاء الإسلام فانطلقوا من هذا المنهاج القرآني فميزوا أصناف الكفر ودرجاته.. فهناك كفر جحود للحق.. وكفر جهل وتقصير.. وهناك كفر من بلغته الدعوة، وكفر من لم تبلغه الدعوة، أو بلغته مشوهة، ودون إقامة للحجة وإزالة للشبهات.. بل وتحدث الفقهاء عن «كفر النعمة» الذي هو غير «كفر الاعتقاد».. وقالوا بوجود «كفر دون كفر».. ولم يضعوا كل ألوان الكفر في سلة واحدة ولا في فسطاط واحد.

هذا هو المنهاج الإسلامي - العلمي والموضوعي والأعدل - في رؤية الآخر، والحكم على هذا الآخر.. فالآخر ليس واحدًا، ولا هو كتلة صماء يمكن وضعها

فى سلة واحدة.. وإنما فيه ألوان وأطياف، وبين فصائله وشعوبه وعقائده ومذاهبه ومقاصده فروق وفروق وعلى قدر فقه هذه الفروق، ودقة إدراك ما بين مصالح الإسلام وبين مصالح بعض فرقاء هذا الآخر من نظائر وأشباه تكون عبقرية السياسة الإسلامية فى التعامل مع الآخر، ويكون عدل المنهاج الإسلامى فى النظر إلى الآخرين.

***

وإذا كان واقع عالم اليوم، بعد سقوط الثنائية القطبية، وتفرد أمريكا بقيادة الحضارة الغربية، وبالهيمنة على العالم، قد أتاح لأمريكا ـ بعد «قارعة سبتمبر» ـ إرهاب الآخرين، واستغلال مشكلات كثير من الدول مع «الإسلام المقاوم» والصحوة الإسلامية؛ وذلك لجعل هؤلاء الآخرين يؤيدون ـ كليًا أو جزئيًا ـ هذه الحرب التى تشنها أمريكا لتطويع الإسلام وصحوته لهيمنتها.. فإن ذلك لا ينبغى أن يصرف العقل المسلم عن الوعى بالفروق ـ الفكرية والمصلحية ـ داخل صفوف هؤلاء الآخرين.

لقد استغلت أمريكا مشكلة روسيا مع الإسلام فى الشيشان.. والضعف الروسى الآنى، والحاجة إلى المعونات، وإلى تأمين حدودهم مع شرق أوروبا، فصمت الروس عن الوجود الأمريكى والقواعد الأمريكية فى خاصرة روسيا بجمهوريات آسيا الوسطى!

واستغلت أمريكا مشكلة الصين مع الإسلام فى تركستان الشرقية، وحرص الصين على عدم الصدام مع أمريكا، حتى تستكمل مقومات القطب العملاق، وسعى الصين لكسب التأييد الأمريكى لوحدة «تايوان» مع الصين الأم فجعلت الصين تصمت على الوجود الأمريكى على حدودها!

وكذلك صنعت أمريكا عندما استغلت مشكلة الهند مع الإسلام فى كشمير وباكستان؛ لتجعل الهند ترحب بالوجود الأمريكى على حدودها!

وإذا كانت أمريكا قد بحثت عن «الأشباه والنظائر» بين مقاصدها فى حرب «الإسلام المقاوم» وبين مقاصد هذه الدول، فإن المنهاج الإسلامى فى رؤية العالم

وفي التعامل مع قواه الفاعلة يجب أن لا يغفل عن اكتشاف «الأشباه والنظائر» بين مقاصد الإسلام في التحرر الوطني، وعدالة النظام الدولي، وبين ذات هذه المقاصد لدى هذه الدول والأمم والحضارات.. إن علينا أن نبصر الأرض المشتركة بين مقاصد الإسلام هذه وبين نظائرها عند الآخرين، وأن نمسك خيوطها، مهما كانت رقيقة، وأن ننميها.. علينا أن نصنع بعض الذي تصنعه أمريكا مع هذه الدول: محاصرة التناقضات، وتنمية الأشباه والنظائر؛ لنقصّر من أمد انفراد أمريكا بالهيمنة على مقدرات عالم اليوم.. بل إن علينا أن ندرك الفروق بين تيارات الفكر وألوان المصالح في داخل أمريكا ذاتها. فإذا كان «التحالف المسيحي» الذي يضم اليمين المسيحي، والصهيونية المسيحية، وقوى الضغط الصهيونية، تستخدم الآن مع الإسلام ويقظته «جنون القوة» فإن في أمريكا قوى أخرى، لها مصالح أخرى، ومن الممكن ـ باكتشاف الفروق بينها وبين هذا اليمين المسيحي؛ وباكتشاف الأشباه والنظائر بين أفكارها ومصالحها وبين سياساتنا ومصالحنا ـ أن نجد لنا حلفاء منها، وأن نحيّد قوى عديدة حتى داخل أمريكا ذاتها.

إن الكاثوليك الأمريكان غير البروتستانت.. وليس كل البروتستانت في أمريكا مع اليمين المسيحي والمسيحية الصهيونية، والعلمانيون الليبراليون هناك غير «الأصوليين»، والسود غير البيض.. وذلك فضلاً عن العرب والمسلمين الأمريكان.. فنحن أمام عالم من الفروق والتمايزات، يحتاج إلى فقه للواقع، وإلى اجتهاد يثمر فكراً سياسياً لا يكتفي بأن يضع الآخرين في فسطاط واحد ـ وكفى الله المؤمنين عبء التفكر والاجتهاد!!

أما إذا نحن وضعنا كل الآخرين في سلة واحدة، وقلنا إن العالم قد انقسم إلى فسطاطين اثنين. فإننا نكون قد جافينا الفقه لحقيقة الواقع الذي نعيش فيه.. وجافينا منهاج الإسلام في النظر إلى الآخرين.. وقدمنا هدية كبرى «لرأس الحربة» الموجهة إلى صحوة الإسلام، وهي التحالف بين الصليبية الغربية والصهيونية اليهودية، وجنون القوة الذي يواجهون به الإسلام.

* * *

أمريكا.. هل هى شعب الله المختار؟!

إذا كانت العقيدة اليهودية العنصرية، التى تدعى أن اليهود هم الشعب المختار والمقدس والمعصوم، دون كل الشعوب، وفوق جميع الشعوب، وضد سائر الشعوب، قد جعلت اليهود يتصرفون مع كل الأغيار والآخرين تصرف الفعّال لما يريد، والذى لا يُسأل عمّا يفعل ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران:٧٥].. فلا تطبق عليهم قرارات المنظمات الدولية ـ من الجمعية العامة للأمم المتحدة إلى مجلس الأمن ولا اتفاقيات جنيف لعام ١٩٤٩م ولا مواثيق حقوق الإنسان الفلسطينى والعربى.

إذا كان هذا هو حال العنصرية اليهودية.. فيبدو أن رعاة البقر الأمريكان قد أرادوا منافسة اليهود فى هذا الميدان، فحسبوا ـ وهم الأقوى ـ أنهم الأحق بأن يكونوا شعب الله المختار!

● يلوثون العالم، ويخرقون الأوزون، دون أن يخضعوا لمواثيق البيئة التى ارتضاها العالم.

● ويستخدمون الفيتو بإسراف، على النحو الذى يجهض إرادة ما يقرب من مائتى دولة تمثل الأسرة الدولية فى الأمم المتحدة.

● ويتحدون الإنسانية فى التفرد باستخدام الأسلحة الذرية ضد المدنيين فى مدينتى «هيروشيما» و«نجزاكى» سنة ١٩٤٥م.

● ويمرقون ضد العالم فى العودة إلى دوامة سباق التسلح، بالدرع الصاروخى.

● ويقسمون العالم ـ وفق هواهم «ودون شورى أو ديموقراطية» ـ إلى «خير

وشر» و«سلم وإرهاب» و«تحضر وبربرية»، جاعلين أنفسهم ومن رضوا عنه وتبعهم الخير والسلم والتحضر.. وجاعلين الأغيار هم الشر والبربرية والإرهاب.

● ويعطون أنفسهم الحق فى شن الحروب الاستباقية ضد الحكومات التى لا تعجبهم، ضاربين عرض الحائط بمبدأ سيادة الدول الوطنية والقومية على أرضها.. وهو المبدأ الذى قامت على أساسه الشرعية الدولية منذ نشأتها وحتى الآن..

● وأخيرًا.. يريدون تقرير العصمة لجنس الأمريكان! يفعلون ما يريدون، ولا يسألون عما يفعلون أمام المحكمة الجنائية الدولية التى ارتضتها الإنسانية حكمًا وحاكمًا فى الخروج على قواعد ومواثيق حقوق الإنسان.

* * *

يبدو أن رعاة البقر الأمريكان قد قرروا منافسة اليهود فى عقيدة أنهم شعب الله المختار، بل والاستئثار بهذه العقيدة العنصرية دون الأمم والشعوب، بمن فيهم أداتهم الصهيونية وإسرائيل!

ففى كتاب (أمريكا وبريطانيا فى نبوءات الكتاب المقدس) للقس الأمريكى «هيربرت أرمسترونج» - والذى طبعت منه خمسة ملايين نسخة فى أمريكا.. والذى روّج له مؤلفه من خلال برنامج «العالم غدا» الذى كان يذاع على أربعمائة قناة تليفزيونية فى جميع أنحاء العالم - فى هذا الكتاب نرى التأسيس الدينى لدعوى أن رعاة البقر الأمريكان، ومعهم الإنجليز، هم شعب الله المختار، الذين يملكون حق وعد الرب لإبراهيم، عليه السلام.. فهم الذرية الإبراهيمية التى قطع الرب لها هذا العهد التوراتى، بذلك الميراث المقدس.. وهم الذين جعلهم الرب حملة رسالة استعمار العالم!!.. وفى مقدمته أرض فلسطين؛ ليعود المسيح - عليه السلام - حاكمًا للعالم الألفية السعيدة التى تحدثت عنها النبوءات!

وإذا كان هذا التحريف لتفسيرات النبوءات - التى هى فى الأصل من وضع الأحبار والحاخامات اليهود - هو واحد من «عجائب الفكر».. فإن وضع رعاة البقر الأمريكان لهذه العقيدة العنصرية فى التطبيق - بإعلانهم أن القرن الواحد والعشرين هو قرن الإمبريالية الأمريكية - يدعونا إلى النظر فى مقولات هذا

الكتاب، الذى وضعه القس الأمريكى؛ كى يؤسس لهذه النزعة العنصرية، ويجعلها دينا يتدين به اليمين الدينى الذى يحكم أمريكا هذه الأيام.

* * *

● يبدأ صاحب كتاب (أمريكا وبريطانيا فى نبوءات الكتاب المقدس) من الأسطورة التى أراد بها حاخامات اليهود تأسيس العنصرية والامتياز لشعب الله المختار، أسطورة وعد الله لإبراهيم - عليه السلام - بأن يجعل له من الذرية أمما كثيرة.. ونسلاً كثيراً جداً. وأن يعطى الأرض التى أراها لإبراهيم لهذه الذرية.. وأن ترث هذه الذرية بوابات مدن أعدائها، أى تغزو وتستعمر مدن الأعداء (سفر التكوين ١٧: ١ - ٦، ٢٢: ١٦ - ١٨).

● ثم يشرع المؤلف فى «التفسير الأمريكانى» - وليس اليهودى - لهذه الأساطير، فيقول: إن هذا الوعد هو للأمريكان والإنجليز، وليس لليهود.. فاليهود جماعة صغيرة محدودة العدد، وليسوا أمما كثيرة، بينما الأمريكان والإنجليز هم الذين ينطبق عليهم وصف الأمم الكثيرة والنسل الكثير.

● ثم يقول إن هذا الوعد هو «لإسرائيل»، وليس «لليهود». فاليهود جزء من إسرائيل، وليسوا كل إسرائيل، إنهم نسل يهوذا، وهو سبط من الأسباط الاثنى عشر، ثم إنهم هم الذين عصوا ربهم، ودمر ملكهم وبيت عبادتهم، وانقطعت سلسلة ملوكهم منذ عهد الملك «صدقيا» بعد عصر «سليمان» أما الأسباط العشرة - بقية إسرائيل وأغلبيتها - الذين استمر فيهم الوعد والعهد والميراث والملك ووعد البكورية فلقد حمل بذرتهم وامتدادهم النبى «إرميا» مع إحدى بنات الملك «صدقيا» إلى إيرلندا - [!!] - ثم إلى إنجلترا - [!!] - ثم إلى الولايات المتحدة الأمريكية - [!!] - فتجسد الوعد المادى - بالأرض.. والثروة.. والغزو والاستعمار للشعوب.. ووراثة مدن الأعداء - تجسد هذا الوعد المادى فى الإمبراطورية الأمريكية والإمبراطورية الإنجليزية.. ولقد جمع الأمريكان والإنجليز إلى هذا الوعد المادى الوعد الروحى باتباعهم ليسوع المسيح، عليه السلام.

● ويستشهد القس «أرمسترونج» على أن الأمريكان والإنجليز - وليس اليهود - هم شعب الله المختار، بأن الوعد الإلهى والنبوءة المقدسة قد جعلت من هذا

الشعب المختار شعبًا استعماريًا، يقهر الشعوب ويستولى على المدن.. فهذه الصفات تنطبق على الأمريكان والإنجليز منذ بداية القرن التاسع عشر، وليس على اليهود.. أى أن آيات ومعجزات وصفات النبوة والقداسة والاصطفاء للشعب المختار هى الاستعمار للدول والقهر للشعوب، وهى آيات ومعجزات أمريكية وإنجليزية لم تظهر على أيدى اليهود المقهورين المضطهدين!!

هذه هى الأسطورة المؤسسة لكون رعاة البقر الأمريكان - ومعهم الإنجليز - هم شعب الله المختار، الفعالون بالشعوب ما يريدون، والذين لا يُسألون عما يفعلون، والذين يمثل اجتياحهم للعالم، ونهبهم لثرواته، وقهرهم لشعوبه التحقيق لوعد الله لإبراهيم ولذرية إبراهيم!!

● أما النصوص الغريبة والعجيبة التى ساقها القس الأمريكانى؛ كى يؤسس دينيا للهيمنة الأمريكية على العالم، فإن منها قوله: «إن اليهود أمة مختلفة تمامًا عن إسرائيل؛ لذا فمن الخطأ أن نسمى يهود اليوم إسرائيل، إنهم ليسوا أمة إسرائيل، إنهم سبط يهوذا.. وإن الأسباط العشرة لإسرائيل اليوم ليسوا اليهود.. بل هم إسرائيل التى كانت فى حرب ضد اليهود».

● وإن النبوءة كانت تشير دائمًا إلى «السامرة»، ولم تشر أبدًا إلى اليهود، «والسامرة» هى المنطقة التى سكنتها الأسباط العشرة من إسرائيل، بينما اليهود - سبط يهوذا - كانوا يسكنون المنطقة اليهودية - جنوبى السامرة.

● وبعد موت الملك «صدقيا» - ملك يهوذا - تم غرس عرش داود فى إسرائيل؛ وليس فى يهوذا واليهود.. وذلك بواسطة إحدى بنات «صدقيا» التى صحبت النبى «إرميا» فى رحلته إلى «إيرلندا» فأصبحت زوجة لملك إيرلندا.. ومنذ ذلك التاريخ «أصبحت إسرائيل مستقلة فى إيرلندا.. فإسرائيل، التى مقرها إيرلندا، كان يحكمها سلسلة من الملوك يمتد نسبهم إلى ابنة صدقيا، والإسرائيليون الإيرلنديون كانوا عبارة عن جالية لم تقع تحت السبى الأشورى».

● «وأن عرش داود، الذى أعيد غرسه فى إيرلندا، قد انقلب ثانية وأعيد غرسه فى إسكتلندا.. وانقلب فى المرة الثالثة وتم غرسه فى لندن.. وكان الملك جورج يمتلك خريطة (مرسومًا) يوضح نسب كل جيل حتى يصل هذا النسب إلى ابنة صدقيا.. وداود.. وحتى آدم».

● ولما كانت النبوءة، والوعد الإلهى لإبراهيم يتحدث عن أن الذين «يملكون امتياز البكورية»، هم أمم كثيرة ـ وليسوا قلة كاليهود ـ وأنهم «سوف يرثون بوابات (مدن) أعدائهم.. أى يصحبون شعبًا استعماريًا.. وتتوسع مستعمراتهم وتمتد من الجزر البريطانية إلى كل أنحاء العالم» فإن هذه الصفات تنطبق على الأمريكان والإنجليز، لا على اليهود.

● ثم تكتمل سلسلة الفكر الأسطورى لليمين الدينى الأمريكى، بالحديث عن انتقال الآباء المؤسسين لأمريكا من إنجلترا، حاملين «بذرة إسرائيل» ـ الشعب المختار ـ إلى الأرض الجديدة، التى رأوا فيها «أرض الميعاد»، والتى رأوا فى خروجهم إليها محاكاة لخروج بنى إسرائيل من مصر إلى أرض كنعان.. ولذلك، رأيناهم يطلقون على ولاياتها أسماء عبرانية.. ويسمون أبناءهم أسماء عبرانية.. ويفرضون تعليم اللغة العبرية فى مدارسهم وجامعاتهم، حتى إن أول دكتوراه منحتها جامعة «هارفارد» سنة ١٦٤٢م كان عنوانها «العبرية هى اللغة الأم»!، وأول كتاب طبع فى أمريكا هو «سفر المزامير»!.

● ولا يكتفى أبناء إسرائيل الأمريكان، بالدعم والتأييد للمشروع الصهيونى فى فلسطين، وإنما يرون فى هذا المشروع مجرد أداة وتمهيد لاستعمارهم هم لفلسطين، فالأمريكان ـ وليس اليهود ـ هم بنو إسرائيل «المالكون لامتياز البكورية.. والوارثون لوعد الله لذرية إبراهيم..» وبعبارة «أرمسترونج»: فإنهم هم الذين «سيقومون بغرس العنب فى بلدهم الأصلى السامرة، عندما يعود بيت إسرائيل إلى فلسطين عند عودة المسيح.. فأحفاد أفرايم هم البريطانيون، وأحفاد منسى هم الأمريكان، وليس من حق اليهود أن يطلق عليهم اسم بيت إسرائيل»!!.. ثم يعلن هذا القس الأمريكى على الملأ: «نعم.. إننا شعب الله المختار إسرائيل»!!

● هكذا تحدث القس الأمريكى «هيربرت أرمسترونج» عن الأساطير الدينية المؤسسة لإمبريالية الإمبراطورية الأمريكية حتى تكون إمبريالية مقدسة، يمثل اجتياحها للعالم التحقيق لوعد الله لإبراهيم، عليه السلام!

وإذا كان البعض سيقول: ومالنا وهذه التخاريف الأسطورية؟!.. فإننا نقول

لهم: وهل قام حكم اليمين الدينى فى أمريكا اليوم إلا على التخاريف والأساطير؟!.. إننا أمام خرافات تستخدم فى دعم الباطل.. فلم لا نستخدم حقائق الإسلام فى دعم قضايانا العادلة، واستخلاص حقنا السليب من براثن الأعداء، الغارقين فى الأساطير، والزاعمين أنهم العقلانيون المتقدمون؟!

* * *

الحرب الثقافية على الإسلام

في كتاب (الحرب الباردة الثقافية: المخابرات الأمريكية وعالم الفنون والآداب) فضحت الكاتبة الإنجليزية «فرانسيس ستونر سوندرز» ـ بالوثائق والحقائق والوقائع والأرقام والأسماء والتواريخ ـ قصة الحرب العالمية الثقافية، التي شنتها أمريكا، بواسطة المخابرات المركزية الأمريكية (C.I.A) ضد الشيوعية، وحركات التحرر الوطني، وعدم الانحياز، وكل المناوئين للرأسمالية الأمريكية والهيمنة الغربية، بواسطة ثقافة الحداثة الغربية والأمريكية.

وفي هذا الكتاب ـ الذي تزيد صفحاته على الخمسمائة.. والذي نشره المجلس الأعلى للثقافة، بمصر ـ نرى حربًا «شرسة.. وناعمة!» معلنة وممتدة على النطاق العالمي، استمرت طوال سنوات الحرب الباردة ـ أي قرابة الخمسين عامًا ـ بواسطة الأقلام والكتب والصحف والإذاعات والتلفاز والسينما والمسرح والرسم والتصوير والكاريكاتير والشعر والموسيقى والرقص والغناء، وكل ألوان الآداب والفنون.. وبواسطة المذاهب الحديثة التي كانت أيديولوجية هذه الحرب الثقافية والعقيدة القتالية للمؤسسات الأمريكية التي خاضت غمارها.

* * *

وأنا أدعو القارئ العربي والمسلم ـ الذي يقرأ هذا السفر النفيس ـ أن يستحضر ـ أثناء قراءته له ـ وقائع هذه الحرب الشرسة التي تشنها أمريكا اليوم ـ ومعها دوائر غربية عديدة ـ ضد الإسلام وثقافته وقيمه وحضارته وعالمه.. وبالذات «الإسلام المقاوم» لهيمنة الإمبراطورية الإمبريالية الأمريكية، وذلك بعد أن أعلنت أن الإسلام هو العدو الذي حل محل إمبراطورية الشر الشيوعية.

إنها حرب معلنة، تتوزع الأدوار فيها على عدد من الجبهات والمؤسسات.

ـ فالتنصير الأمريكى يشنها ضد «كل الإسـلام»، طامحا وطامعًا فى طى صفحة الإسلام من الوجود، بتنصير كل المسلمين.

ـ واليمـين الدينى الأمريكى، المتحـالف مع الصهيـونية العنصرية، يشنهـا ضد مقدسات المسلمين وسيادتهم الوطنية وحقهم التاريخى فى القدس وفلسطين.

ـ ومشروع الهيمنة السياسية والاقتـصادية الأمريكى ـ كما عبر عنه «فوكوياما» ـ فى عدد «النيوزويك» السنوى ـ ديسمبر سنة ٢٠٠١ ـ فبراير سنة ٢٠٠٢م ـ يريدها «حربًا داخل الإسـلام» تغير طبيـعته، فـتجعله ليـبراليًا يتسـامح مع «شارون»!.. وحداثيًا يقيم قطيعة معرفيـة كبرى مع ماضيه ـ كما صنع به «أتاتورك» فى النموذج العلمانى المتـوحش بتركـيا ـ وإسلامًـا علمانيا، يتـخلى من منهاجـه الشامل للدين والدولة والاجتماع، ويقبل بالمبدأ النصرانى: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله!

فهذه الحرب الثقافية، التى فضحت وقائعها وثائق كتاب (الحرب الباردة الثقافية) هى ـ فى الحالة الإسلامية ـ ما يسميه «هنـتنجتون» بصدام الحضارات؛ لأن الثقافة عنده، ومنظومة القيم الدينية هى التى تمايز بين الحضارات.

وهو قد أشار على صانع القرار الأمـريكى أن يبدأ هذه الحرب مع الإسلام، ثم يثنى بالكونفشيوسـية الصينية.. ثم يستدير على الحضـارات الأخرى، التى حيّدها حتى يفرغ من الإسـلام والصين.. وبذلك تصب أمريكا العالم فى قـالب نموذجها وقيمها؛ لتؤبد هيمنتها على العالم، واستغلالها لما فيه من ثروات.

ولقد كانت البداية بالإسلام، الذى أعلن الغـرب أنه العدو، فور سقوط العدو الشيـوعى؛ لأن الإسلام هو أكـثر النمـاذج الثقـافية والحـضارية استـعصاءً على العلمنة، وأكثرها امـتلاكًا لنموذج نهضوى متـجدد، يغنيه ويغنى أمته من التقليد الذليل للنموذج الغربى فى التحديث!

إننا ندعـو القارئ العـربى والمسلم، الذى يطالع صبـاح مـساء وقائـع وأحداث الهجـوم الشرس على الإسلام وثقـافته وقـيمه، فى الكتب والصـحف والمجلات والقصص والروايات، وعلى شاشات التلفاز.. وذلك فضلاً عن صور الدماء التى تفجـرها الأسلحـة الفتاكـة لهذه الحـرب فى بؤر التوتـر العنيـف ـ من فلسطين إلى

كشمير إلى الشيشان ـ ومن قبل ذلك فى السودان والبلقان . . إلخ ـ ندعو هذا القارئ إلى الربط بين وقائع هذه الحرب، وأن يسلكها فى إطارها الجامع . . وأن لا يتعامل معها «بالقطاعى»، فيقع فى «اللا أدرية» وعدم الفهم إزاء التعليل لتواصل هذه المعارك التى تطفح بوقائعها وسائل الإعلام ومواد الثقافة ومناهج التعليم فى أمريكا وكثير من البلاد الغربية.

فالربط «الجدلى» بين وقائع هذه الحملات الشرسة المتواصلة ضد الإسلام وقيمه وثقافته، والنظر إليها فى إطار هذه الحرب المعلنة، هو الدرس الأول الذى نستفيده من قراءتنا لكتاب (الحرب الباردة الثقافية: المخابرات المركزية الأمريكية فى عالم الفنون والآداب)، كما أن هذا الوعى هو الذى سيعيننا على التصدى لمحاولات الأعداء كسر شوكة الإسلام، إما بالشكل المباشر والفج، أو بواسطة العملاء الثقافيين والحضاريين!

* * *

● فعندما تصدر أمريكا أوامرها إلى عديد من الحكومات العربية والإسلامية بتغيير مناهج التعليم الدينى، لتقف فقط عند الشعائر والمناسك والعبادات والشكليات والآليات، مع إلغاء كل ما يتعلق بالسياسة والاجتماع والاقتصاد والدولة والثروات والعزة والجهاد وتاريخ الغزوات والفتوحات والتحرر الوطنى والولاء والبراء . . مع اختصار «حصص» هذا التعليم الدينى ـ فى بعض البلاد ـ من أربع وعشرين ساعة أسبوعيًا إلى أربع ساعات فقط!

● وعندما تضع الصهيونية العنصرية على رأس جدول أعمال المفاوضات متعددة الأطراف ـ منذ نحو عشر سنوات ـ «بند ثقافة السلام» بدعوى أن الإسلام يحض على كراهية اليهود!

● وعندما تصدر أمريكا التعليمات، وتعتمد الميزانيات لتكوين «الدعاة والأئمة المستنيرين!!».

● وعندما يطلب الرئيس الأمريكى «بوش ـ الصغير» من الحكومات العربية والإسلامية حذف ثقافة «الشهادة والاستشهاد» من مواد الفكر والثقافة والإعلام . .

ثم نجد من يفتى - فى بلد عربى - بأن الاستشهاديين الفلسطينيين ليسوا شهداء، وإنما منتحرون - أى إلى جهنم والعياذ بالله! - .. ثم تجد السفارة الأمريكية - بالقاهرة - تطبع هذه الفتوى على شرائط كاسيت، وتعممها بين الناس!

● وعندما نجد الأدباء الفاشلين، الذى احترفوا الهجوم على الإسلام وقيمه وثقافته ومقدساته، يتحولون إلى أبطال فى المجتمعات الغربية.. يستقبلهم رؤساء الدول.. وتحميهم أجهزة الأمن.. وتنهال عليهم الجوائز العالمية الكبرى - من «نوبل» إلى غيرها!

● وعندما نجد دول الديموقراطيات والليبراليات والحريات وحقوق الإنسان الغربية تتحول - بالنسبة للمسلمين فقط - إلى دول بوليسية.. تعتقل المسلمين دون أدلة.. وتحاكمهم وتحكم عليهم بما يسمى «بالأدلة السرية» التى لا يعلمون عنها شيئا؛ كى يدافعوا عن أنفسهم إزاءها.. وتعاملهم فى المطارات معاملة المجرمين - بحكم عقيدتهم الإسلامية وسحنتهم الشرقية -.. وتخضع عقولهم وقلوبهم ومؤسساتهم الخيرية والثقافية إلى صورة جديدة من صور محاكم التفتيش التى أخضعت أوروبا وكنيستها المسلمين لها فى إسبانيا قبل خمسة قرون!

● وعندما نرى الغرب يحتفل سنة ١٩٩٢م بذكرى مرور خمسمائة عام على اقتلاع الإسلام من أوروبا - الأندلس - بسقوط غرناطة فى يناير سنة ١٤٩٢م: فيقيم الدورة الأولمبية فى ذات البلد الذى شهد هذا الاقتلاع والانحسار - «برشلونة» وتعرض فى هذه المناسبة المسرحيات والأفلام والأناشيد التى تذكّر بهذا الحدث!

ثم يشن الغرب - فى نفس عام هذه الذكرى سنة ١٩٩٢م - حرب الإبادة لمسلمى البوسنة والهرسك؛ كى لا تقوم «دويلة» إسلامية فى أوروبا - مع السماح لكل الأعراق والقوميات والديانات فى يوغوسلافيا السابقة بحق تقرير المصير والاستقلال! - ثم يظل هذا الموقف الغربى ثابتا من ثوابت الاستراتيجيات الغربية إزاء كل مسلمى البلقان - من الألبان.. إلى كوسوفا.. إلى السنجق - دون كل الديانات والقوميات!

● وعندما يهب الغرب عن بكرة أبيه لتمكين أقل من مليون كاثوليكى - فى

تيمور الشرقية ـ من الانفصال عن الدولة الأندونيسية، بدعوى حق هؤلاء الكاثوليك فى تقرير المصير ـ ويحاول ذلك الآن مع الوثنيين فى جنوب السودان ـ بينما يحرم الغرب الشعوب الإسلامية ـ فى فلسطين. . وكشمير. . والبلقان ـ من تقرير مصيرها، رغم قرارات الأمم المتحدة التى تؤكد لها هذه الحقوق!

● عندما يحدث ذلك ـ والكثير الكثير من أمثال ذلك ـ ونقرأ عنه ونشاهد وقائعه. . لابد أن ندرك أنها وقائع مترابطة فى حرب شاملة معلنة وممتدة، على جبهة الفكر والثقافة والفنون والآداب والإعلام، ضد الإسلام وأمته وعالمه. . يمهد فيها الفكر للممارسة والتطبيق!

نعم! هى حرب معلنة. . وليست وهمًا من الأوهام، ولا أثرًا من آثار «ذهنية المؤامرة» كما يشيع المتغربون. . لأن المؤامرة هى: «تدبير سرى» بينما نحن أمام مواقف معلنة على العالمين، وموضوعة فى الممارسة والتطبيق.

● ولقد سبق للمفكر الفرنسى «إرنست رينان» (١٨٢٣-١٨٩٢م) ـ فى ثمانينيات القرن التاسع عشر ـ أن اتهم العقل العربى بالعجز عن الفكر المركب والتفلسف. . ويومها رد عليه جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م) ردًا منطقيًا فى محاضرة شهيرة ألقاها بباريس. . فإذا ظل البعض منا ينظرون إلى وقائع هذه الحرب الثقافية وحملاتها الشرسة ضد الإسلام وقيمه وأمته «بالقطاعى»؛ وكوقائع متناثرة لا رابط بينها. . فإن هذا البعض ستصدق عليهم دعوى «رينان». . أما الذين يسلكون وقائع هذه الحملات فى الإطار الجامع لهذه الحرب الغربية المعلنة ضد الإسلام، فإنهم هم الخلف الصالح لأسلافنا العظام، الذين أبدعوا فى الفكر المركب والفلسفة الكونية الشاملة علومًا تفردت بها حضارتنا الإسلامية. . من مثل: «فلسفة التوحيد للحق». . و«الاستخلاف للإنسان». . وعلوم «أصول الفقه» و«أصول الدين». . وذلك فضلاً عن «المنهج التجريبى»، الذى أنقذ العقل والعلم من «المنطق الصورى» اليونانى العقيم.

فأى العقليتين سنختار. . وأى الطريقين سنسلك ـ يا ترى ـ إزاء وقائع هذه الحرب المعلنة على الإسلام؟!

* * *

الهجمة الأمريكية على الإسلام

ما أن وقعت الواقعة، ونزلت «قارعة ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م» بأمريكا.. حتى أعلنت كثير من الدوائر الغربية ـ السياسية.. والفكرية.. والإعلامية.. والدينية ـ «حربا عالمية» على الإسلام. وهى حرب ـ فى ضوء ما أسلفنا الإشارة إليه ـ لم تبدأ من الصفر، ولم تخترع جديدًا غير مسبوق، فى إطار «النزعة الصراعية» الغربية ضد الحضارة الإسلامية.. وإنما الجديد فيها هو «مستوى الحدة والغضب» الذى كشف الستار عن مكنونات «ثقافة الكراهية السوداء» التى يموج بها الموروث الثقافى الغربى تجاه الإسلام..

ولقد كان السعى إلى «علمنة الإسلام» وتحويله إلى صيغة نصرانية تقف عند العبادات والشعائر والوصايا الأخلاقية، تاركة شئون الدنيا والدولة والسياسة والاجتماع والاقتصاد للنموذج الغربى والقيم الغربية هو القاسم المشترك فى كثير من التصريحات والكتابات التى طفحت بها هذه الحرب الإعلامية الغربية على الإسلام وأمته وحضارته، منذ ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م وحتى الآن.

● فالرئيس الأمريكى «جورج بوش ـ الصغير» الذى أعلن حربًا عالمية قبل بدء التحقيقات فى «قارعة سبتمبر».. قد وصف هذه الحرب ـ فى ١٦ سبتمبر ـ بأنها «حملة صليبية»، وذلك عندما وجه أصابع ـ بل وصواريخ ـ الاتهام إلى الإسلام المقاوم للاستعمار والصهيونية، واصمًا كل ألوان المقاومة الإسلامية، ومنظمات الجهاد الإسلامى، التى تسعى لتحقيق التحرر الوطنى وحق تقرير المصير «بالإرهاب»!

● وفى ١٧ سبتمبر سنة ٢٠٠١م ـ أى بعد ستة أيام من الأحداث ـ وصف «تونى بلير» ـ رئيس وزراء إنجلترا ـ هذه الحرب بأنها «حرب المدنية والحضارة (فى الغرب) ضد البربرية فى الشرق!!».

● وفى ٢٦ سبتمبر سنة ٢٠٠١م أعلن «سيلفيو بيرلسكونى» - رئيس وزراء إيطاليا - أن الحضارة الغربية أرقى من الحضارة الإسلامية.. ولابد من انتصار الحضارة الغربية على الإسلام، الذى يجب أن يهزم؛ لأنه لا يعرف الحرية ولا التعددية ولا حقوق الإنسان.. وأن الغرب سيواصل تعميم حضارته، وفرض نفسه على الشعوب. .وأن الغرب قد نجح حتى الآن - فى تعميم حضارته وفرض نفسه - مع العالم الشيوعى، وقسم من العالم الإسلامى...»[1].

● وفى ٨ نوفمبر حدد الرئيس «بوش - الصغير» أن الحضارة الغربية - التى أعلن الحرب للدفاع عنها - هى حضارة اليهود والمسيحيين.. وأن هناك - فى الجانب الإسلامى - من «يحرض على قتل اليهود والمسيحيين».. ولذلك، حمّل الرئيس «بوش» ملكًا عربيًا - هو ملك الأردن - «رسالة تحذير موجهة إلى عدد من الحكام العرب، تطالب بضرورة أن يتوقف الإعلام فى بلادهم عن «حملة الكراهية لأمريكا وإسرائيل»[2]!

ووجدنا أحد أقباط المهجر - فى أمريكا - والمشرف على «ملحق المهجر» فى صحيفة (وطنى) القبطية - مجدى خليل - يهاجم البرنامج التليفزيونى المصرى «رئيس التحرير» - الذى يقدمه الإعلامى القدير الأستاذ حمدى قنديل - واصفًا هذا البرنامج «بأن أكثر ما فيه دعائى تحريضى، يحض على الكراهية، وخاصة تجاه أمريكا وإسرائيل»[3]!!

ثم توالت التصريحات، غير المسئولة! من «المسئولين» الغربيين، ذوى التأثير فى «صناعة القرار» الغربى فوجدنا:

● السيناتور الديموقراطى الأمريكى «جوزيف ليبرمان» - الذى كان مرشحًا لمنصب نائب الرئيس فى الانتخابات الرئاسية الأمريكية السابقة.. ومرشح الرئاسة القادمة - يعلن «أنه لا حل مع الدول العربية والإسلامية إلا أن تفرض عليها أمريكا القيم والنظم والسياسات التى تراها ضرورية.. فالشعارات التى أعلنتها أمريكا عند استقلالها لا تنتهى عند الحدود الأمريكية، بل تتعداها إلى الدول الأخرى»[4]!!

● أما وزير العدل الأمريكي «جون أشكروفت» فلا يكتفي بالحديث عن حرب الحضارة ضد البربرية.. والخير ضد الشر.. والمدنية ضد التخلف.. وإنما يذهب ليتفوق على غلاة المتصرين، عندما يسب إله العالمين، الذي يؤمن به مليار ونصف مليار من المسلمين.. فيقول: «إن المسيحية دين أرسل الرب فيه ابنه ليموت من أجل الناس، أما الإسلام فهو دين يطلب الله فيه من الشخص إرسال ابنه ليموت من أجل هذا الإله»[٥]!!

● ووزيرة الخارجية الأمريكية السابقة «مادلين أولبرايت» تعلن: «إننا، معشر الأمريكيين أمة ترتفع قامتها فوق جميع الشعوب، وتمتد رؤيتها أبعد من جميع الشعوب»[٦]!!.. فتتحدث بلغة النازية، التي سبق وعانت هي منها!!

● ويعلن الكاتب الصحفي ـ اليهودي.. الأمريكي ـ القريب من دوائر صنع القرار السياسي.. أن الحرب الحقيقية هي ضد الفكر الإسلامي.. والتربية والتعليم الإسلاميين فيكتب «توماس فريدمان» من «بيشاور» فيقول: «إن الحرب الحقيقية في المنطقة الإسلامية هي في المدارس، ولذلك يجب أن نفرغ من حملتنا العسكرية ضد ابن لادن بسرعة، ونخرج.. وعندما نعود ـ (من أفغانستان) ـ يجب أن نكون مسلحين بالكتب الحديثة، لا الدبابات.. وفقط، عندما تنمو تربة جديدة، وجيل جديد.. يقبل سياساتنا، كما يحب شطائرنا.. وإلى أن يحدث هذا، لن نجد أصدقاء لنا هنا»[٧].

ثم يكتب، مهدداً المدارس الإسلامية، التي تعترف مناهجها الدينية بكل النبوات والرسالات والشرائع، وتقول حتى للمشركين ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ فيقول، في معرض التهديد للمملكة العربية السعودية.. بمقال صاغه في شكل رسالة من الرئيس «جورج دبليو بوش إلى الشيخ صالح الشيخ وزير الشئون الإسلامية في المملكة العربية السعودية: «إن مشكلتكم مع الشعب الأمريكي: أن مدارسكم والألوف من المدارس الإسلامية التي تمولها حكومتكم وجمعياتكم الخيرية في مختلف أنحاء العالم تدرس أن غير المسلمين أدنى من المسلمين».

ثم يطلب صياغة «إسلام معدل» فيقول: «نريدكم أن تفسروا الإسلام على نحو يقدس التسامح الديني.. وإذا تعذر عليكم أن تفعلوا هذا واجهتم مشكلة، وباتت

المملكة العربية السعودية، في حربنا على الإرهاب، كما كان الاتحاد السوفيتى فى حربنا على الشيوعية: مصدراً للأموال والأيديولوجية والأفراد وكل ما يشكل تهديداً لنا»!!

ثم يعلن الشعار الذى تبناه كثير من الكتّاب والمفكرين الغربيين: «لا نريد حربًا مع الإسلام، نريد حربًا داخل الإسلام»[٨]!!

● وعندما يخضع حاكم باكستان للضغط الأمريكى، ليس فقط بوضع القواعد العسكرية الباكستانية، وكل إمكانات باكستان فى خدمة الحملة العسكرية الغربية على أفغانستان» منذ ٦ أكتوبر سنة ٢٠٠١م ـ وإنما ـ أيضًا ـ بتنفيذ توجيهات أمريكا ضد التعليم الدينى فى باكستان.. ويعلن «برويز مشرف» ذلك ـ فى خطاب ١٢ ـ ١ ـ ٢٠٠٢م ـ عندئذ يتحول «مشرف» بنظر الغرب و«توماس فريدمان» من «ديكتاتور» تفرض على بلده العقوبات بسبب «ديكتاتوريته» إلى بطل علمانى، يسير على طريق «أتاتورك» [١٨٨١ ـ ١٩٣٨م]. والنموذج العلمانى المتوحش الذى قطع صلات تركيا بماضيها الإسلامى.. فيكتب «توماس فريدمان» يقول: «إنه، للمرة الأولى منذ ١١ سبتمبر، يتجرأ قائد مسلم على الاعتراف علنا بالمشكلة الحقيقية، وهى أن التطرف الإسلامى ظل متجذراً فى الأنظمة التعليمية وترتيبات الحكم فى العديد من المجتمعات الإسلامية، وأنه تسبب فى أن يعيش معظم العالم الإسلامى فى حالة من التخلف.. لكنه ـ (الجنرال مشرف) ـ أيضًا رسم خريطة لطرق الخروج، بعمل شىء ما لمواجهة ذلك الوضع، ليس بمجرد رمى المتطرفين فى السجون، لكن بمواجهة أفكارهم المتطرفة بالمدارس الحديثة والإسلام التقدمى.. لقد تبنى «مشرف» طموحات القطاعات الباكستانية العلمانية.. مخالفًا بذلك نهج الجنرال ضياء الحق «الذى بنى شرعيته وأسس حكمه على تحالف الجيش والمسجد».

ومنذ ١١ سبتمبر، صار واضحًا أننا نحتاج لحرب داخل الإسلام، وليس حربًا مع الإسلام.. ولقد أقدم، أخيرًا، قائد واحد، على الأقل، بإعلانها وسيكون حسنًا إذا أقدم على القيام بالأمر نفسه بعض القادة العرب المسلمين...»[٩].

● أما الكاتب «ستانلى أ. فايس» فإنه يكتب ـ فى «الهيرالد تريبيون» الدولية ـ معلقًا على توجه «الجنرال برويز مشرف» إلى تقليص التعليم الدينى وعلمنته..

فيقول: «إن حقيقة الحرب على الإرهاب تكمن فى: هل ستقوم الدول الإسلامية باتباع النموذج الاجتماعى ـ السياسى لتركيا، أكثر النماذج نجاحاً فى العالم، كدولة مسلمة، حديثة وعلمانية، وديموقراطية؟ أو نموذج العربية السعودية المبنى على الرؤية الوهابية المتعصبة للأصولية الإسلامية، والذى يدفع معتنقيه قروناً إلى الوراء؟» . .

ثم يتحدث عن أهمية علمنة باكستان، فيقول: «إن أهمية باكستان «كنموذج». فإذا أمكن لها أن تتبع طريق تركيا، فإنه يمكن أن يحدث ذلك أيضاً فى بلاد كإيران ودول جنوب آسيا. . وإذا فعل الرئيس «مشرف» كل هذا، فإنه سيحق له أن ينال مجداً يشبه مجد الأبطال الذين يعتز بكل منهم كمثله الأعلى: محمد على جناح، العلمانى، الذى أسس دولة باكستان، ومصطفى كمال أتاتورك، الذى أجبر تركيا بإصرار شديد على أن تهجر ماضيها. .»[١٠].

لقد اعتمدت أمريكا ٢٠٠ مليون دولار «لتحديث وعلمنة» التعليم الدينى فى باكستان. . وذلك حتى تسير باكستان على درب تركيا الكمالية، التى قطعت صلاتها بماضيها الإسلامى ـ كما يقولون ويعلنون ـ !.

● ولم تكن باكستان حالة فريدة للتدخل الأمريكى من أجل تقليص التعليم الدينى الإسلامى و«تحديث» ـ أى علمنة ـ هذا التعليم فالنيوزويك الأمريكية تنشر للكاتب الأمريكى «جوناثان آلتر» مقالاً يعتبر فيه مناهج التعليم فى المملكة العربية السعودية وغيرها من البلاد الإسلامية «نفايات ممتلئة بالكراهية لأمريكا وإسرائيل». . ويدعو إلى شن الحرب الفكرية ضد هذه المناهج، بعد الفراغ من الحرب المسلحة فى أفغانستان. . فيقول: «بعد أن يتم التخلص من ابن لادن، على الولايات المتحدة أن تبدأ بالضغط على هذه البلاد ـ (السعودية وغيرها من البلاد العربية والإسلامية) ـ كى تتخلص من أحاديث النفايات المعادية لأمريكا والمعادية للسامية فى كتب مناهجها المقررة، وأن تتوقف عن تمويل المدارس الدينية الممتلئة بالكراهية فى جميع أنحاء العالم»[١١]!

ثم يقدم السفير الأمريكى بالمملكة العربية السعودية مذكرة لحكومة المملكة، تطلب فيها أمريكا «اختصار ساعات تدريس مواد العلوم الدينية من عشرين ساعة

فى الأسبوع إلى أربع ساعات فقط، وبحيث لا يتجاوز تدريس تلك المواد حدود الأمور العبادية المباشرة، التى تنصب على علاقة المرء بربه. الأمر الذى يعنى استبعاد كل ما يتعلق بنظم المعاملات والحياة العامة، وعلاقة المسلمين بغيرهم من المناهج كما طلبت الرسالة - المذكرة - أن يبادر المسئولون عن قطاع التربية والتعليم، إلى مراجعة كل كتب العلوم الدينية فى ضوء تلك المقترحات، وعلى وجه السرعة. بحيث تطبق المناهج الجديدة ابتداء من العام الدراسى المقبل.. وذلك لتجفيف ينابيع التطرف والإرهاب»[١٢]!!

وفى اليمن - وحتى لا يحدث لها ما حدث لأفغانستان - سارعت الحكومة بالاستجابة للضغوط الأمريكية، فدخل العسكريون الأمريكان إلى البلاد لتدريب قوات مسلحة، يقودها نجل رئيس الجمهورية، متخصصة فيما يسمى بمحاربة الأصولية الإسلامية والإرهاب الإسلامى!.. وتعدلت خطة وزارة التربية والتعليم اليمنية للعام الدراسى ٢٠٠١ - ٢٠٠٢م بحيث تم تخفيض ساعات تدريس مادة القرآن الكريم، اعتباراً من الصف الخامس الأساسى حتى المرحلة الثانوية، بنسب تتراوح بين ٢٥٪ إلى ٥٠٪ عما كانت عليه وخفضت حصص التربية الإسلامية فى المرحلة الثانوية بنسبة ٢٥٪»[١٣]! - هذا عن النزر اليسير الذى تسرب إلى وسائل الإعلام -.

وحتى منابر المساجد.. اعتمد لها الرئيس الأمريكى «بوش - الصغير» ملايين الدولارات، لما سمى «بدعم الأئمة المستنيرين» الذين يطلب منهم «ترويج أفكار الغرب، وتشكيل الذهنية العربية لدى الجيل الجديد، وإعادة صياغته تجاه الصراع العربى الإسرائيلى»[١٤]!

بل لقد تجاوز التدخل الأمريكى فى التعليم الدينى بالبلاد العربية والإسلامية حدود المطالبة باختزال المناهج وساعات التدريس، والاكتفاء من الإسلام بالجانب العبادى والشعائرى - الفردى دون الاجتماعى - تجاوز الأمر هذه الحدود إلى حيث طلبت أمريكا تحويل المدارس إلى أجهزة مراقبة أمنية، على المدرسين والطلاب، لحساب أجهزة الاستخبارات ومكاتب التحقيقات الأمريكية!.. «فخصصت أمريكا لباكستان مائة مليون دولار؛ لكى تراجع كتب الثقافة الإسلامية - وليس فقط

المناهج المدرسية ـ وتحكم السيطرة على المدارس الدينية، بحيث يُعَد ملف لكل أستاذ وطالب. .»[15]!!

● لقد أكدت هذه الحرب ـ التي أعلنتها أمريكا «على الإسلام ـ أو داخل الإسلام» ـ أن هدف «الغرب: السياسي» هو علمنة الإسلام، وتحويله إلى صيغة نصرانية، تقبل الفصل بينه وبين الدولة، لإلغاء التميز الإسلامي، وتسهيل إلحاق العالم الإسلامي والحضارة الإسلامية بالنموذج الغربي، تأبيداً وتأبيداً للتبعية الحضارية، وتكريساً لعولمة التغريب. . وفى هذا الإطار، سارع المستشرق اليهودى الأمريكى «برنارد لويس» ـ بعد «قارعة ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م ـ إلى إصدار كتاب عنوانه (ما هو الخطأ الحادث فى العلاقة بين الإسلام والغرب) وفى هذا الكتاب واصل أطروحاته القديمة حول «أن إرهاب اليوم هو جزء من كفاح طويل بين الإسلام والغرب. . فالنظام الأخلاقى الذى يستند إليه الإسلام مختلف عما هو فى الحضارة اليهودية ـ المسيحية (الغربية). . . وآيات القرآن ـ بزعمه ـ تصدق على ممارسة العنف ضد غير المسلمين. . وهذه الحرب ـ (التى أعلنها الغرب بقيادة أمريكا ـ بعد قارعة سبتمبر) هى برأى «برنارد لويس» ـ «حرب بين الأديان»[16]!

● والزعيم «الدينى ـ السياسى» «بات روبرتسون» مؤسس جماعة التحالف السياسى المسيحى ـ التى تسيطر على الكونجرس الأمريكى، وترى فى دعم إسرائيل، وهدم المسجد الأقصى، وإقامة «الهيكل اليهودى» على أنقاضه ـ عقيدة دينية بروتستانتية، وتحقيقًا لشروط عودة المسيح إلى الأرض؛ كى يحكمها ألف سنة سعيدة، بعد إبادة العرب والمسلمين فى معركة «هرمجدون». . هذا الزعيم الأمريكى وهو مرشح أسبق للرئاسة الأمريكية ـ والذى يعد الرئيس الأمريكى وحزبه الجمهورى من أتباعه ـ يعلن «أن الدين الإسلامى دعا إلى العنف. . وأنه بالنظر إلى المعنى الحقيقى لآيات قرآنية، فإن أسامة بن لادن أكثر وفاء لدينه الإسلام من آخرين. . وأن أمريكا بحاجة إلى إنذار ضد خطر المسلمين الذين يكرهون أمريكا ويحاولون تدمير إسرائيل»[17]!

● أما «مارجريت تاتشر» ـ رئيسة وزراء إنجلترا الأسبق ـ فإنها تكتب عن «تحدى الإرهاب الإسلامى الفريد» الذى لا يقف عند أسامة بن لادن وأفغانستان، وإنما

يستوطن فى أفريقيا وجنوب شرق آسيا وغيرها من الأماكن، والذى يشمل حتى الذين أدانوا هجمات الحادى عشر من سبتمبر ـ على أمريكا ـ والذين انتقدوا بشدة أسامة بن لادن وطالبان، لكنهم «يرفضون القيم الغربية، وتتعارض مصالحهم مع مصالح الغرب». تصف «تاتشر» هؤلاء المسلمين الذين «يرفضون القيم الغربية وتتعارض مصالحهم مع مصالح الغرب» بأنهم «أعداء أمريكا.. وأعداؤنا».. وتشبههم بالشيوعية، داعية الغرب إلى معاملتهم كما عامل الشيوعية، وتقول.. «إن التطرف الأصولى، كالبولشفية فى الماضى، يمثل مسارًا مسلحًا. إنه أيديولوچية عدائية يدفع بها أتباع متشددون ومسلحون بشكل جيد، وكما هو حال الشيوعية، فإنها تتطلب تبنى استراتيجية طويلة المدى ليتسنى هزيمتها»[١٨]!!

● أما وزير الداخلية فى ألمانيا «أوتو شيلى» فلقد والى التصريحات المعادية للإسلام وأمته وحضارته حتى لقد وصف «عقيدة الإسلام بأنها هرطقة وضلال»[١٩]!!

● أما الروائى الفرنسى «ميشيل هويلبيك» فلقد وصف الإسلام ـ فى روايته «منصة» ـ بأنه «دين ظهر فى الصحراء، وسط الأفاعى والجمال والحيوانات المفترسة من كل نوع»!.. ثم استطرد قائلاً: «هل تعلم كيف أسمى المسلمين؟ إنى أسميهم حقراء الصحراء. فهذا هو الاسم الذى يستحقونه»!!

وفى حديثه إلى مجلة (لوفيجارو) ـ الفرنسية، بتاريخ ٢٥ ـ ٨ ـ ٢٠٠١م ـ قال: «إن قراءة القرآن مثيرة للتقزز.. وإن الإسلام دين عدوانى، لا متسامح، يجعل الناس أشقياء تعساء»[٢٠]!!

وهو فى هذا يسير على خطا «الأدباء» الذين حققوا شهرتهم فى الغرب بالتهجم على الإسلام.. من سلمان رشدى.. إلى «نايبول»، الذى منحته «نوبل» جائزتها سنة ٢٠٠١م.

● أما أشهر كتّاب ومفكرى الاستراتيجية فى أمريكا ـ «صموئيل هنتنجتون».. و«فرانسوا فوكوياما» ـ فإنهما يعلنانها صريحة لا مواربة فيها: «حرب داخل الإسلام.. حتى يقبل الإسلام الحداثة الغربية.. والعلمانية الغربية.. والمبدأ المسيحى.. فصل الدين عن الدولة».

فهنتنجتـون، يعيد التأكيد على مـقولة «صدام الحضارات» فيـقول: «إن عناصر صدام الحضارات متوافرة، وإن ردود الفعل تجاه أحداث ١١ سبتمبر تمت فى حدود الخطوط والأطر الحضارية بشكل صـارم.. والصحوة الإسلاميـة هى رد فعل تجاه الحداثة والتـحديث والعولمة.. ومع ذلك، فـإن عصر حروب المسلمـين له جذوره فى أسبـاب أكثر عمومـية، وهذه الأسـباب تعنى العـقيدة الإسـلامية والـقناعات الإيمانية فى الإسلام..»(٢١).

أما «فوكوياما»، فإنه يعـيد تأكيـد مقولتـه الشهيـرة عن أن النموذج الليـبرالى الرأسمالى الغربى هـو نهاية التاريخ، الذى يجب تعميمه فـى سائر أنحاء العالم.. «فالحداثة ـ (التى تعنى فى المصطلح الغربى: القطيعة المعرفية مع الموروث الدينى، وجعل الإنسان سيد الكون، ومحور الثقافة ـ بدلاً من الله ـ وإحلال العقل والعلم والفلسفة مـحل الله والدين) ـ هذه الحداثة ـ كما يكتب «فوكـوياما» ـ «التى تمثلها الولايات المتحـدة وغيرها من الديموقراطيـات المتطورة، ستبقى القـوة المسيطرة فى السيـاسة الدوليـة، والمؤسسـات التى تجسـد مبـادئ الغرب الأسـاسية فـى الحرية والمساواة ستستمر فى الانتشار عبر العالم».

ثم يناقش «فوكوياما» قضية القوى والحضارات القابلة للحداثة الغربية ومنظومة قيمها.. والقوى والحضارات الرافضـة لهذه الحداثة وقيمها، والتى تمثل «مشكلة» أمام تعـميم هذه الحـداثة عبر العـالم... فيـقول: «هنالك، فى الحقـيقة، أسباب للاعتـقاد بأن القيم والمؤسسـات الغربية تلقى قـبولاً كبـيراً لدى الكثير من شـعوب العالم غير الغربية، إن لم نقل جميعها».

وبعـد أن يؤكد على النشـأة الغربيـة والمسيـحيـة لهذا النـموذج المراد تعـميمـه وعولمتـه.. وعلى «العلاقـة التاريخيـة بين كل من الديموقراطـية والرأسمـالية مع المسيحية، وحـقيقة أن الديموقراطية تملك جذورها الثـقافية فى أوروبا.. وأن هذه الديموقراطية الحديثة.. كما أشار الفلاسفة من «أليكسيس دى توكوفيل» و«جورج هيجل» [١٧٧٠ ـ ١٨٣١م] إلى «فريدريك نيتشة» [١٨٤٤ ـ ١٩٠٠م]. هى نسخة علمانية للمبدأ المسيحى فى المساواة الإنسانية عالميًا..».. تساءل «فوكوياما» تساؤلا يذكرنا بدراسـة مجلة (شئـون دولية) سنة ١٩٩١م.. هل هناك قوى وحـضارات

رافضة لقبول هذه الحداثة وهذه العلمانية؟ وعبارته: «فإن السؤال الذى نحتاج إلى طرحه هو:

- هل هناك ثقافات أو مناطق فى العالم ستقاوم، أو تثبت أنها منيعة على عملية التحديث؟».

ثم يجيب «فوكوياما» على هذا التساؤل، بذات الإجابة التى سبق وقرأناها فى دراسة مجلة (شئون دولية) قبل عقد من الزمان.. فيقول: «إن الإسلام هو الحضارة الرئيسية الوحيدة فى العالم التى يمكن الجدال بأن لديها بعض المشاكل الأساسية مع الحداثة.. فالعالم الإسلامى يختلف عن غيره من الحضارات فى وجه واحد مهم. فهو وحده قد ولّد تكراراً خلال الأعوام الأخيرة حركات أصولية مهمة، ترفض لا السياسات الغربية فحسب، وإنما المبدأ الأكثر أساسية للحداثة: التسامح الدينى.. والعلمانية نفسها. فما يكرهه المسلمون هو أن الدولة فى المجتمعات الغربية يجب أن تكرس التسامح الدينى والتعددية بدلاً من خدمة الحقيقة الدينية».

ونحن نلاحظ أن «فوكوياما» يجهل أن الإسلام يرى التعددية قانونًا كونيا فى كل عوالم الخلق والنظم والأفكار، دون أن تكون هذه التعددية وهذا التسامح الدينى نقيضًا للحقيقة الدينية.. كما نلاحظ أن الرجل يبلغ أقصى درجات التناقض عندما يزعم الإيمان بالتعددية، ثم ينكر على الإسلام والمسلمين التميز عن النموذج الغربى، إعمالاً لمبدأ التعددية!!.. فيذهب إلى أن المشكلة هى رفض الإسلام الانصياع، كغيره، لهذه الحداثة والعلمانية الغربيتين!!.. فيقول: «إنه بينما تجد شعوب آسيا وأمريكا اللاتينية ودول المعسكر الاشتراكى السابق وأفريقيا الاستهلاكية الغربية مغرية، وتود تقليدها لو أنها فقط استطاعت ذلك، فإن الأصوليين المسلمين يرون فى ذلك دليلاً على الانحلال الغربى».

وبدلاً من أن يحترم «الليبرالى» فوكوياما حق المسلمين فى التميز الحضارى والقيمى عن الحداثة والعلمانية والاستهلاكية الغربية.. نراه يصف هذه الرغبة الإسلامية فى التميز القيمى وفى الاستقلال الحضارى بأنها مشكلة المشاكل، التى لابد من شن الحرب عليها.. الحرب داخل الإسلام، فى سبيل تطويعه لقبول

النموذج الحضارى الغربى.. وفى ذلك يقول: «إن المسألة ليست ببساطة «حربا» على الإرهاب، كما تظهرها الحكومة الأمريكية بشكل مفهوم -[؟!]- وليست المسألة الحقيقية - كما يجادل الكثير من المسلمين - هى السياسة الخارجية الأمريكية فى فلسطين، أو نحو العراق. إن الصراع الأساسى الذى نواجهه، لسوء الحظ، أوسع بكثير، وهو مهم، ليس بالنسبة إلى مجموعة صغيرة من الإرهابيين، بل لمجموعة أكبر من الراديكاليين الإسلاميين، ومن المسلمين الذين يتجاوز انتماؤهم الدينى جميع القيم السياسية الأخرى.. إن الصراع الحالى ليس ببساطة معركة ضد الإرهاب، ولا ضد الإسلام كدين أو حضارة، ولكنه صراع ضد العقيدة الإسلامية الأصولية - الفاشية الإسلامية - غير المتسامحة، التى تقف ضد الحداثة الغربية.. وإن التحدى الذى يواجه الولايات المتحدة اليوم هو أكثر من مجرد معركة مع مجموعة صغيرة من الإرهابيين، فبحر الفاشية الإسلامية الذى يسبح فيه الإرهابيون يشكل تحديًا أيديولوجيا هو فى بعض جوانبه أكثر أساسية من الخطر الذى شكلته الشيوعية».

ثم يتحدث «فوكوياما» عن «التطور الأهم» الذى يجب أن يحدث للإسلام، والذى يجب أن يتم داخل الإسلام، لتعديل الإسلام، حتى يصبح قابلاً للحداثة الغربية والعلمانية الغربية.. فيقول: «إن التطور الأهم ينبغى أن يأتى من داخل الإسلام نفسه، فعلى المجتمع الإسلامى أن يقرر فيما إذا كان يريد أن يصل إلى وضع سلمى مع الحداثة، خاصة فيما يتعلق بالمبدأ الأساسى حول الدولة العلمانية.. وإن هناك بعض الأمل فى ظهور فكر إسلامى أكثر ليبرالية؛ بسبب المنطق الداخلى للعلمانية السياسية».

ثم يختم «فوكوياما» هذا المقال - الذى يرى - بعبقرية - أن جذور الصراع هى بين استقلال الحضارة الإسلامية وبين تبعيتها للنموذج الغربى.. وهى جذور أعمق من السياسة الخارجية الأمريكية ومن العنف الإسلامى المقاوم لها.. لأن هذه الجذور هى الباعث الأول على هذه السياسة الأمريكية تجاه قضايا الإسلام والمسلمين - يختم «فوكوياما» مقاله بالتأكيد على حتمية انتصار الغرب على الإسلام - فى المدى البعيد - وذلك بشرط انتصار الغرب على الإسلام فى المدى القصير!..

فيقول: «إن المؤسسات الغربية تسيطر على الأوراق كلها، ولذلك فهى ستستمر فى الانتشار فى أنحاء العـالم على المدى الطويل، لكن الوصول إلى هذا المدى يتطلب أن نبقى أحياء على المدى القصير؟!»[٢٢].

فالقضـية ـ فى التحليل الأعمق ـ ليست ما يسميـه الغرب «بالإرهاب» ولا هى ذلك الذى حدث فى أمريكا يوم الحادى عشـر من سبتمبر سنة ٢٠٠١م.. بل ولا حتى السياسة الخارجية الأمريكية فى فلسطين، وإزاء العراق.. فكل ذلك وغيره تجليات للصـراع بين النزوع الإسلامى إلى التـمايز الحضارى والاستقلال القيمى والثقافى وبين النزوع الغربى لفرض حداثتـه وعلمانيته على العالم، وعلى الإسلام وأمته وحضارته بوجه خاص.

وحتى لا يخلط الوهـم بين هذه الحداثة الغربيـة ـ التى يريدون فرضـها علينا ـ وبين التـجديد والتطور والتـقدم، الذى تحـتاجـه مجـتمـعاتنا الإسـلاميـة وفكرنا الإسـلامى.. أى حتى لا تختـلط أوراق «الالتـحـاق بالغرب» بأوراق «الإصـلاح بالإسلام»، نقدم تعريفًا غربيًا لهذه الحداثة التى يريدون فرضها علينا، والتى أقامت وتقيم قطيعـة معرفية كبرى مع الديـن، حتى إنها وإن استخدمت ـ فى تعبيراتها ـ بعض المصطلحات الديـنية، فإنها تفـرغها من مـحتواها الدينى، إمـا بالتأويل لكل النصـوص الدينية، وإمـا بجعل «التـاريخيـة.. والتاريخانـية» أداة لتجـاوز الدين وأحكامه، عندما ترى التطور التاريخى والتغيرات الواقعية قد نسخت هذا الدين.. يقول هذا التعريف الغـربى لهذه الحداثة الغربية ـ التى هى ثقافة الفلسـفة الوضعية العلمانية اللادينية للتنوير الغربى:

«إنه بعد أن كان المسيحى حريصًا على طاعة الله وكتابه، لم يعد الإنسان يخضع إلا لعقله.. فـأيديولوجيـة التنوير قد أقامـت القطيعة الأبستمولوجـية (المعرفـية) الكبرى، التى تفصل بين عصرين من الروح البشـرية: عصر (الخلاصة اللاهوتية) للقـديس «تومـا الأكـوينى» (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤م) وعصـر (الموسـوعة) لفـلاسفـة التنوير.. فمنذ الآن فصاعـدًا راح الأمل بمملكة الله ينزاح لكى يخلى المكان لتقدم عصر العقل وهيمنته.. وهكذا راح نظام النعـمة الإلهية ينمحى ويتلاشى أمام نظام الطبيعة.. لقد أصبح الإنسان وحده مقـياسًا للإنسان.. وأصبح حكم الله خاضعًا

لحكم الوعى البشرى، الذى يطلق الحكم الأخيـر باسم الحرية.. ويمكن للمعجم اللاهوتى القديم أن يستمر، ولكنه لم يعد يوهم أحدًا، فنفس الكلمات لم يعد لها نفس المعانى»[٢٣].

فالإنسانـية ـ فى هذه الحداثة ـ هى العلمانيـة، التى تجعل العالم مكتفـيًا بذاته، والإنسان مكتفيًا بذاته، عن التدبير الإلهى للعالم والإنسان؛ لأن هذا الإنسان ـ فى هذه الحداثة ـ هو سيد الكون، وهو ـ وحده ـ محـور الثقافة الحداثية.. والدين ـ فى المصطلح الحداثى ـ هو «الدين الطبيعى»، الذى هو إفـراز للعقل البشرى، فى مـرحلة طفـولة هذا العـقل، وليس «الوضع الإلهى» الذى أوحـاه الله إلى الرسل والأنبياء، عليهم الصلاة والسلام.

ولقد كان الوعى الإسلامى ـ فى مـدرسة الإصلاح بالإحياء والتجديد ـ عـميقًا بالطابع اللادينى لهذه الحداثة الغربيـة، منذ تبلور هذه المدرسة على يد جمال الدين الأفـغـانى (١٢٥٤ـ١٣١٤هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م) الذى تحـدث عن الـطابع الدهرى لهـذه النزعـة عند «فـولتـيـر» (١٧٣٤ ـ ١٧٧٨م) و«روسـو» (١٧١٢ ـ ١٧٧٨م) اللذين ـ كما يقول الأفغانى ـ «يزعمان حماية العدل، ومغالبة الظلم، والقيام بإنارة الأفكار، وهداية العقول، فنبشا قبر أبيقور الكلبى (٣٤١ ـ ٢٧٠ق.م) وأحـييا ما بلى من عـظام الدهريين، ونبـذا كل تكليـف دينى، وغـرسـا بذور الإباحــيـة والاشتـراك، وزعما أن الآداب الإلهـية جَعْلِيّات خرافيـة، كما زعـما أن الأديان مخترعات أحدثها نقص العقل الإنسانى، وجهر كلاهما بإنكار الألوهية، ورفع كلٌ عقـيرته بالتشنيع على الأنبـياء (برأهم الله مما قالا). وكـثيرًا ما ألف «وولتـير» من الكتب فى تخطئة الأنبيـاء والسخرية بهم والقدح فى أنسابهم وعـيب ما جاءوا به، فأخذت هذه الأباطيل من نفوس الفرنسـاويين، ونالت من عقولهم، فنبذوا الديانة العيسوية ونفـضوا منها أيديهم. وبعد أن أغلقوا أبوابها فتـحوا على أنفسهم أبواب الشريعة المقدسة (فى زعمهم) شريعة الطبيعة..»[٢٤].

فهـذه الحداثة الغربية، الـتى يريد الغرب فرضهـا على الإسلام وثقافـته، والتى تصاعدت حـدة الهجمة الغـربية لتحقـيقها بعد «قـارعة ١١ سبتـمبر سنة ٢٠٠١م» بأمريكا، هى الثـقافة اللادينيـة، المتمحورة حـول «الإنسان الطبيـعى»، لا الإنسان

الذى نفخ الله فيه من روحه، والذى هو عبد لله وخليفة له. . والدين - فى هذه الحداثة - إذا استخدمت مصطلحاته، إنما هو «الدين الطبيعى»، وليس وحى الله، سبحانه وتعالى، إلى الرسل والأنبياء، عليهم الصلاة والسلام.

وقد لا يصدق البعض أن عملاء هذه الحداثة - من أبناء جلدتنا - بدلاً من أن يرعووا، وينحازوا إلى أمتهم وحضارتهم الإسلامية، ودينهم الإسلامى، فى مواجهة هذه الهجمة الشرسة على الإسلام وحضارته، رأينا هؤلاء العملاء يرفعون عقيرتهم بمقولات هذه الحداثة، ظانين أن تصاعد الحرب الغربية على الإسلام هى فرصة ذهبية لتحقيق مقاصدهم الحداثية فى نسخ الإسلام، وتأويل نصوصه التأسيسية، وطى صفحة عقائده وشريعته بدعوى تاريخية الأفكار والأحكام، بل والتبشير «بالدين الطبيعى» بدلاً من «الدين الإلهى»، حتى لكأنهم «غلاة السلفية» - سلفية التغريب - التى لا تزال تردد كالببغاء ذلك الهذيان اللادينى الذى انتقده جمال الدين الأفغانى وهو يتحدث عن فلاسفة التنوير الوضعى والحداثة اللادينية عند «روسو» و«فولتير»!

لقد كتب واحد من أنشط المبشرين بهذه الحداثة الغربية - بعد أحداث سبتمبر - وإعلان الغرب الحرب لتحديث الإسلام وعلمنته، مهللاً ومستبشراً «بهذه الفرصة الذهبية» التى أتاحتها هذه الهجمة على الإسلام لهذه الحداثة، التى يبشر بها.

فمع الهجمة الغربية - والأمريكية أساسًا - على التعليم الدينى الإسلامى، دعا هذا «الحداثى» إلى إلغاء مؤسسات العلم الدينى الإسلامى. . وبنص عبارته: «فبمواجهة كل كلية شريعة أو معهد دينى ينبغى أن نؤسس كليات لتدريس تاريخ الأديان المقارن، أو علم الاجتماع الدينى. هذا أهم من تدريس الكيمياء، أو الفيزياء، أو قل إن له الأولوية حاليًا».

ومع الدعوات الغربية إلى «حرب داخل الإسلام» تسفر عن «إسلام ليبرالى» يتسامح مع الذين يحتلون الأرض الإسلامية وينهبون الثروة القومية، ويمسخون الهوية الحضارية، دعا هذا «الحداثى» إلى استبدال «الدين الطبيعى» بديننا الإلهى. . فعنده. . وبصريح عبارته: «فإننا يجب أن نلتحق بفولتير وتصوره الطبيعى عن الدين والأخلاق، فالدين الحقيقى هو الدين الطبيعى. . وإن العبرة هى بأعمال

الإنسان وليس بمعتقداته، أو حتى صلواته وعباداته.. ولابد من تأويل جديد لتراثنا يختلف عن تأويل الأصولية، بل وينقضه.. تأويل يكشف عن تاريخية النصوص التأسيسية، ويحل القراءة التاريخية - أي التنويرية - محل القراءة التبجيلية لهذا التراث..»[٢٥]!!

فالهدف هو «تحديث الإسلام» بتأويل نصوصه التأسيسية - القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة - ونسخ عقائده وأحكامه - أي علمنة الدين - بتطبيق «التاريخية والتاريخانية» التي تنكر الثبات والإطلاق والخلود عن جميع مكونات هذا الدين.. وإحلال «الدين الطبيعي» الذي بشر به «فولتير» محل «الدين الإلهي» الذي نزل به الروح الأمين على قلب الصادق الأمين، عليه الصلاة والسلام.

● ولون ثان من ألوان هذه «العمالة الحداثية» التي انتعشت في ظلال حرب الهجمة الغربية على الإسلام بعد «قارعة سبتمبر» - وجدناه في كتابات ذلك الذي افترى على القرآن الكريم؛ ليؤكد الافتراءات الغربية حول صدور «الإرهاب» عن آيات هذا القرآن الكريم.. فكتب هذا «الحداثي» يقول: «يجب علينا عدم المراوغة للتهرب من الإجابة عن السؤال التالي:

- لماذا يستشهد المسلمون دائمًا بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تبرز الوجه السلمي المتسامح للإسلام، ويتجاهلون النصوص الأخرى التي تحض على القتال والقتل والإرهاب؟».

ثم يستطرد، في طعنه بالقرآن، واتهام آياته بالحض على قتال الآخرين وقتلهم وإرهابهم، فيقول: «في الإجابة الدفاعية الاعتذارية - [عن هذا السؤال] - يتم تجاهل النصوص التي تحض على القتال والتربص للمشركين في كل مكان، أو يتم اللجوء إلى توظيف مقولة «النسخ» رغم كل ما تثيره من مشكلات من الوجهة اللاهوتية، فالنصوص التي تحض على القتال والتربص بالمشركين نزلت بعد النصوص التي تؤكد التسامح والمساواة بصرف النظر عن اللون أو اللغة أو حتى العقيدة»[٢٦]!!

وهذا الافتراء على القرآن الكريم بادعاء أن فيه آيات تحض على القتال والتربص

بالمشركين فى كل مكان، وعلى القتل والإرهاب لهؤلاء المشركين.. يجهل أو يتجاهل الحقائق القرآنية الصلبة والعنيدة التى تتجلى ناصعة من خلال استقراء جميع الآيات القرآنية التى جاء فيها ذكر القتل والقتال.

● فالقرآن ـ على عكس كل الفلسفات التى رأت فى القتال «غريزة طبيعية» لصيقة بالإنسان، يرى القتال استثناء وشذوذا عن الطبيعة الإنسانية، وأنه «مفروض.. ومكروه» ﴿كُتب عليكم القتال وهو كُرْهٌ لكم﴾[27]، ويؤكد على هذا البلاغ القرآنى الفريد البيان النبوى لهذه الحقيقة القرآنية، فيقول رسول الله ﷺ لصحابته: «لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، لكن إذا لقيتموهم فاثبتوا، وأكثروا ذكر الله» ـ رواه الدارمى ـ.

● وجميع آيات القرآن الكريم، التى ورد فيها «الإذن بالقتال» أو «التحريض عليه» قد وردت فى مقام رد العدوان الذى وقع من الأعداء المقاتلين للمسلمين، بالفتنة لهم فى دينهم ـ وهى أشد من القتل ـ أو بإخراج المؤمنين من ديارهم أو المظاهرة على الإخراج من الديار، لا لشىء إلا لأن المؤمنين قد قالوا: ﴿ربنا الله﴾[28]. وما عدا هذين الموقفين ـ رد عدوان الفتنة فى الدين.. ورد عدوان الإخراج من الديار ـ فلا يجوز القرآن للمسلمين أى قتال للآخرين.. بل إنه البر والقسط مع هؤلاء الآخرين.

هذا هو الموقف القرآنى، فى كل الآيات التى ورد فيها مصطلح «القتال»، بما فى ذلك آيات سورة «براءة» ـ التى يلحد إليها هذا «الحداثى» ـ والتى تتحدث عن التربص والقتال للمشركين المقاتلين.. فهذه الآيات تميز فى المشركين بين المعاهدين، الذين يحترمون العهود، فتدعو المسلمين إلى الوفاء بالعهود لهؤلاء المشركين ﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين﴾[29]، تميز هذه الآيات بين هذا الصنف من المشركين ـ المعاهدين.. والمحترمين للعهود ـ وبين الصنف الآخر من المشركين الذين لا عهد لهم، والذين ﴿لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون﴾[30]، فالتربص والقتال ليس لمطلق المشركين ولا لكل المخالفين، وإنما هو رد لعدوان الذين نقضوا العهود ونكثوا الأيمان وأخرجوا الرسول ﷺ،

والمؤمنين من ديارهم ﴿ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾[٣١].

وهذا هو ذات الموقف القرآني من القتل والقتال في كل السور وفي جميع الآيات..

«فالإذن» للمؤمنين بالقتال إنما هو للذين سبق واعتدوا على المؤمنين بإخراجهم من ديارهم ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير (٣٩) الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله﴾[٣٢].

«والأمر» للمؤمنين بالقتال، هو أيضًا خاص بقتال الذين أخرجوا المؤمنين من ديارهم واعتدوا عليهم وفتنوهم في دينهم ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين (١٩٠) واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين (١٩١) فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم﴾[٣٣].

وهكذا كل آيات القرآن الكريم، لا تبيح القتال، ولا تأذن به، ولا تحرض عليه إلا لرد عدوان الذين اعتدوا على المؤمنين بإخراجهم من ديارهم أو بالفتنة لهم في دينهم[٣٤].

ثم جاءت آيات سورة الممتحنة ٧، ٨، ٩ ـ لتقنن العلاقة بالآخر، ولتقرر أن القتال لا يجوز إلا في هذه الحالات حصراً ـ ضد الذين يفتنون المؤمنين في دينهم.. وضد الذين يخرجون المؤمنين من ديارهم أو يظاهرون على هذا الإخراج ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم (٧) لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين (٨) إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾[٣٥].

هذا هو الموقف القرآني من القتل والقتال.. وهو الموقف الذي جسدته السنة النبوية في القتال للمعتدين فقط، وفق المعيار القرآني ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين

يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾[٣٦]، ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾[٣٧].

فأين هذا الذى يجب أن نعتذر عنه، من آيات القرآن، للغرب الذى يتهم إسلامنا بالإرهاب والعدوان؟!.. وأين هى «الثغرات» التى توهم «عملاء الحداثة الغربية» أن الفرصة قد سنحت لهم؛ كى يطعنوا بها الوحى الإلهى وثقافة الأمة التى إليها ينتسبون؟!

● ونموذج ثالث من نماذج «العمالة الحداثية للغرب» تجاهل صاحبه ما طفحت وتطفح به الثقافة الغربية من ألوان الكراهية السوداء للإسلام وأمته وعالمه وحضارته.. فأخذ يتهم ثقافتنا نحن بالتعصب الذى يغذى ثقافة الإرهاب.. كما تجاهل هيمنة الغرب، التى بلغت مرحلة «جنون القوة» فى تعاملها مع بلادنا العربية والإسلامية ومع قضايا أمتنا العادلة.. فتحدث عن الموقف ـ بعد أحداث ١١ سبتمبر ـ وكأنما نحن «المجرمون المذنبون!».. فقال هذا «الحداثى» ـ الذى قبل «التطبيع» مع رموز الصهيونية.. ومع «جون جارنج».. وأبى «التطبيع» مع هوية الأمة! ـ قال: «لم أدهش عندما أعلنت المخابرات الأمريكية أن أكثر دول قدمت عددًا كبيرًا من التنظيمات المعروفة بالتعصب الدينى كانت من السعودية ومصر، وهذا الأمر كان معروفًا فى الكواليس؛ لأن مجمل سياسات هذه الدول فى مجالات صياغة الوجدان الثقافى والإنسانى لمصر كانت فى هذا الاتجاه، ودون إعلان وثيقة أو خط سياسى كانت الدولة تمارس أمرين: الأول: أمر أمنى لضرب الإرهاب، والآخر: بالمزايدة على الفكر المتطرف.. وأن الدولة تتبناه باعتباره الدين الصحيح حتى تجتذب التأييد الشعبى فى هذا الظرف الدقيق».

وبعد هذا التأييد.. والتنظير لما أعلنته المخابرات الأمريكية ضد مصر والسعودية.. لم تستح هذه «العمالة الحداثية» من تبرير العدوان الأمريكى على بلادنا.. ومن شمول هذا العدوان مصر والسعودية.. وكأنما هذا العدوان أمرًا مشروعًا!!

أى والله! حدث هذا.. واستطرد هذا «الكاتب» ليقول: «وعندما جاءت أحداث ١١ سبتمبر، واهتزت أمريكا، وأدركت أن الإرهاب ظاهرة دولية يمكن أن تفترسها، أنفقت بالملايين على أجهزة مخابراتها، فأدركت بأن للإرهاب والفكر المتعصب أماكن وبؤراً ينمو فيها وفق مخططات مدروسة لدول بعينها. وهكذا تحركت أمريكا فى اليمن والصومال وإيران وباكستان والهند والسعودية، ولابد أنها ستتحرك إن آجلا أو عاجلاً فى مصر..»[٣٨]!!

هكذا بلغت «العمالة الحداثية» حد اتهام وطننا مصر بالتخطيط المدروس لتنمية ثقافة التعصب والإرهاب.. بل واقتربت من حد استعداء أمريكا للتحرك نحو مصر «إن عاجلاً أو آجلاً»!

ونحن نسأل: هل هناك فارق بين هذه «الأفكار» التى تسمى ثقافة الأمة الإسلامية «أصولية.. وتعصبًا.. وتطرفًا.. وفاشية».. وبين الموقف الصهيونى الذى جعل إسرائيل تشيع ذات الفكر ونفس الموقف، على لسان العديد من قادة كيانها العدوانى.. ومنهم «بنيامين نيتانياهو»، الذى كتب فى كتابه (مكان تحت الشمس) يقول: «إن الإسلام الأصولى يهدف إلى السيطرة على العالم كله، وإلحاق الهزيمة بالكفار غير المسلمين فى حرب مقدسة هى الجهاد، وأصبحت المشكلة الكبرى فى الشرق الأوسط هى الإسلام المتطرف؛ ولذا فإن الأمن يسبق السلام، ومن لا يدرك ذلك فمصيره إلى الفناء»[٣٩]!

فهل أصبح الموقف الصهيونى من الإسلام المجاهد فى سبيل تحرير الأرض والمقدسات، أمراً مسلمًا، يحتذيه ويقتدى به «الحداثيون» الذين وضعوا أنفسهم وأقلامهم فى صف الحملة المسعورة على الإسلام والمسلمين؟!

● ونموذج رابع من نماذج «العمالة الحداثية لأمريكا والغرب» أشار إليه الكاتب اليهودى الأمريكى «توماس فريدمان»، عندما كتب عن زيارته للمملكة العربية السعودية - فى فبراير سنة ٢٠٠٢م - فهناك، وأثناء لقاءاته وحواراته مع «النخب» السعوديين، اتهم المملكة بأنها «قد أصبحت مصدراً للمال وللتنظير الإسلامى لأولئك الذين يتهددون أمريكا الآن».. ولقد سمع «فريدمان» من القطاع الوطنى فى النخبة السعودية ما أغضب صلفه الأمريكى وتعصبه الصهيونى، عندما قال له

هؤلاء المثقفون السعوديون الأحرار: «إن اليهود يسيطرون على حكومة الولايات المتحدة، وأنهم يحتلون الكونجرس الأمريكي، وأن ذلك يمثل صلب المشكلة... وأن الخاطفين للطائرات فى أحداث سبتمبر إنما كانوا يعبرون عن الغضب العربى من التأييد الأمريكى الأعمى للعنف الإسرائيلى تجاه الفلسطينيين».

ولقد انسحب «فريدمان» من جلسة الحوار التى سمع فيها هذه الحقيقة!!.. وكاد يعلن يأسه التام من كل السعوديين، لولا أن نفرا من «العملاء الحداثيين» قد أسر إليه ما أسعده وشرح صدره.. فلقد قال له هؤلاء «العملاء الحداثيون» ـ الذين ضربت عقولهم فى مصانع الحداثة الأمريكية ـ إن المشكلة المزمنة فى «النظام العشائرى» ببلادهم، وهو الذى يجعل المجتمع يقف مع الشريحة من أبنائه الذين يرفضون سياسات أمريكا!!

يحكى «توماس فريدمان» ما أسره إليه ـ فى لقاء خاص ـ هؤلاء «العملاء الحداثيون»، فيقول: «كنت على وشك استنتاج أن الفجوة الثقافية بيننا شاسعة، ولا يمكن تجاوزها، لو أننى لم ألتق بقلة من السعوديين الذين تلقوا تعليمهم فى الولايات المتحدة، وأعربوا لى ـ على انفراد ـ بأنهم يتفقون معى فى ما طرحته، حيث قال لى أحدهم: «إن العقلية العشائرية هنا راسخة للغاية، وفى الصحراء، عندما تتعرض عشيرة للهجوم، لابد أن يقف الجميع معا. فالناس يعلمون بأن هناك مشاكل متعلقة بنظامنا التعليمى الإسلامى، وبعضهم يشعرون بسعادة لأنك تمكنت من الحديث عنها. لكنهم يشعرون بأنهم معرضون للخطر، ولذلك فإنهم لن يتحدثوا بصراحة معك»[40]!!

فهؤلاء «العملاء الحداثيون» الذين «والوا» الصهيونى «توماس فريدمان»، قد أعلنوا «البراءة» من آبائهم وعشائرهم!.. ثم هم قد أعمتهم «الحداثة الغربية» عندما خلطوا بين التضامن الوطنى والإسلامى مع قضايا الأمة العادلة ـ من مثل القدس وفلسطين ـ وبين التعصب القبلى فى الأمور السلبية... ولو أنهم فقهوا حتى كلام الحداثة عن «المجتمع المدنى» لرأوا فى «العشيرة» مؤسسة طبيعية من أفضل مؤسسات المجتمع المدنى والأهلى فى مثل البيئة السعودية.. ولكانت العشيرة مصدر فخر لهم، لا سبة يلحقونها بآبائهم وأجدادهم وذويهم!.. لكنها العمالة

الحضارية، تسلخ صاحبها من الهوية والانتماء.. ولا حول ولا قوة إلا بالله!

● بقى أن نقول: إن هذا الوعى بمعانى الحداثة ومخاطرها، وبالفروق الجوهرية بين هذه «الحداثة الغربية» وبين «التجديد الإسلامى.. والتقدم والإصلاح بالاسلام»، ذلك الذى رأينا نموذجه عند جمال الدين الأفغانى - فى القرن التاسع عشر - هو الذى نراه عند علماء ومفكرى اليقظة الإسلامية المعاصرة.. وكنموذج لهم المفكر الإصلاحى الدكتور محمد خاتمى - رئيس الجمهورية الإسلامية فى إيران - والذى كتب فى تعريف هذه «الحداثة الغربية» كلاما نفيسًا ودقيقًا قال فيه: «إن الحداثة لفظ يراد به التحولات التى جرت فى الغرب فى العصر الأخير من تاريخ الإنسان، وبالتالى يمكن القول، بتعبير أدق، إن الحداثة هى الثقافة التى تتمحور حول الإنسان، فى مقابل ثقافتنا التى تتمحور حول الله.. فالحداثة هى روح الحضارة الغربية، المنسجمة معها، والمختلفة والمتباينة مع ثقافتنا الإسلامية ومع ثقافة الغرب القروسطية.

لقد كانت ثقافة العالم الإسلامى وثقافة الغرب القروسطية، على نحو ما، نوعى جنس واحد، إن لم نقل إنهما صنفان لنوع واحد، وكان أبرز وجوه الشبه بينهما هو محورية الله فى فكر الإنسان واعتقاده وفى نظامه الفكرى والأخلاقى والعاطفى.. ولقد حارب الغرب ثقافته القروسطية هذه، وكان من نتيجة حربه عليها ظهور حضارته الحديثة وثقافته الحديثة التى تبوأ الإنسان سدة المحورية فيها.. فكان ذلك التحول - من محورية الله إلى محورية الإنسان - أبرز وجوه الاختلاف بين ثقافتنا وتقاليدنا الثقافية وبين ثقافة الغرب وحضارته الحديثة..»[41].

هكذا يجب أن لا تختلط الأوراق بين:

- الإسلام، الذى جاء ليحرر الإنسان من الإصر والأغلال، ومن هيمنة كل الطواغيت - ومنها طاغوت الهيمنة الأمريكية المعاصرة.

- والحداثة الغربية، التى تقيم قطيعة معرفية كبرى مع الدين.. والتى يريدون فرضها على الإسلام؛ حتى يفرغوه من محتوياته الدينية، بل وينزعوا أسلحة مقاومته للطواغيت، فلا يبقى منه سوى تمتمات فى الشعائر والعبادات.

* * *

- **الهوامش**

(١) صحيفة (الحياة) لندن ـ في ٣٠ ـ ٩ ـ ٢٠٠١م.
(٢) صحيفة (الأهالي) القاهرة ـ في ١٢ ـ ١٢ ـ ٢٠٠١م.
(٣) صحيفة (وطني) القاهرة ـ في ٩ ـ ١٢ ـ ٢٠٠١م.
(٤) صحيفة (الأهرام) القاهرة ـ في ١٦ ـ ١ ـ ٢٠٠٢م.
(٥) صحيفة (الشرق الأوسط) لندن ـ في ٢١ ـ ٢ ـ ٢٠٠٢م.
(٦) صحيفة (الأهرام) القاهرة ـ في ٣٠ ـ ١٠ ـ ٢٠٠١م.
(٧) (نيويورك تايمز) الأمريكية.. والنقل عن صحيفة (وطني) القاهرة ـ في ٢٥ ـ ١١ ـ ٢٠٠١م.
(٨) (نيويورك تايمز) الأمريكية والنقل عن صحيفة (وطني) القاهرة ـ في ٢٣ ـ ١٢ ـ ٢٠٠١م.
(٩) (نيويورك تايمز) الأمريكية ـ والنقل عن (الشرق الأوسط) لندن ـ في ٢٢ ـ ١ ـ ٢٠٠٢م.
(١٠) (الهيرالد تريبيون الدولية) والنقل عن صحيفة (وطني) القاهرة ـ في ٢٧ ـ ١ ـ ٢٠٠٢م.
(١١) (النيوزويك) الطبعة العربية ـ في ٢٥ ـ ١٢ ـ ٢٠٠١م.
(١٢) صحيفة (الأهرام) القاهرة ـ في ٢٥ ـ ١٢ ـ ٢٠٠١م.
(١٣) صحيفة (العالم الإسلامي) مكة ـ في ١١ ـ ١ ـ ٢٠٠٢م.
(١٤) صحيفة (الأسبوع) القاهرة ـ في ٢٨ ـ ١ ـ ٢٠٠٢م.
(١٥) فهمي هويدي ـ صحيفة (العربي) القاهرة ـ في ١٣ ـ ١ ـ ٢٠٠٢م.
(١٦) صحيفة (الأهرام) القاهرة ـ في ٢ ـ ٣ ـ ٢٠٠٢م، ٣ ـ ٣ ـ ٢٠٠٢م ـ والأهرام ينقل عن مقال (النيوزويك) ـ بقلم «راخاري كاريل» في ١٤ ـ ١ ـ ٢٠٠٢م.
(١٧) صحيفة (الشرق الأوسط) لندن ـ في ٣ ـ ٣ ـ ٢٠٠٢م، وصحيفة (الحياة) لندن ـ في ٢٦ ـ ٢ ـ ٢٠٠٢م.
(١٨) صحيفة (نيويورك تايمز) الأمريكية والنقل عن صحيفة (الشرق الأوسط) لندن ـ في ١٤ ـ ٢ ـ ٢٠٠٢م.
(١٩) صحيفة (الأهرام) القاهرة ـ في ٢ ـ ٣ ـ ٢٠٠٢م.
(٢٠) صحيفة (الشرق الأوسط) لندن ـ في ١٠ ـ ٩ ـ ٢٠٠١م، وصحيفة (العربي) القاهرة ـ في ٩ ـ ١١ ـ ٢٠٠١م.
(٢١) مجلة (النيوزويك) الأمريكية العدد السنوي الخاص ـ ديسمبر سنة ٢٠٠١م ـ فبراير سنة ٢٠٠٢م.
(٢٢) (نيوزويك) الأمريكية العدد السنوي: ديسمبر سنة ٢٠٠١م ـ فبراير سنة ٢٠٠٢م.
(٢٣) إميل بولا (الحرية، العلمنة: حرب شطري فرنسا ومبدأ العدالة) طبعة باريس ـ منشورات سيرف ـ سنة ١٩٨٧م نقلا عن هاشم صالح ـ مجلة (الوحدة) الرباط عدد فبراير ـ مارس سنة ١٩٩٢م ص ٢٠، ٢١.

(٢٤) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) ص١٦١، ١٦٢ دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧م.

(٢٥) هاشم صالح: صحيفة (الشرق الأوسط) لندن ـ في ١٣ ـ ١٢ ـ ٢٠٠١م «وجدير بالذكر أن هاشم صالح هذا هو القائم على ترجمة المشروع الفكري للدكتور محمد أركون، المكرس لتحديث الإسلام وعلمنته.. والذي عرّف الحداثة عنده «شاهد من أهلها» هو الدكتور علي حرب، عندما قال: إن هذه الحداثة تعني «القول بمرجعية العقل وحاكميته.. وإحلال سيادة الإنسان وسيطرته على الطبيعة مكان إمبريالية الذات الإلهية وهيمنتها على الكون»!!

ـ صحيفة (الحياة) لندن في ١٨ ـ ١١ ـ ١٩٩٦م فالعدو عند هؤلاء الحداثيين ليس الإمبريالية الأمريكية وهيمنتها، وإنما إمبريالية الذات الإلهية وهيمنتها على الكون!!.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(٢٦) د. نصر حامد أبو زيد ـ مقال بعنوان «الإسلام والغرب. حرب الكراهية» مجلة (وجهات نظر) القاهرة ـ يناير سنة ٢٠٠٢م.

(٢٧) البقرة: ٢١٦.

(٢٨) فصلت: ٣٠

(٢٩) التوبة: ٤.

(٣٠) التوبة: ١٠.

(٣١) التوبة: ١٣.

(٣٢) الحج ٣٩، ٤٠.

(٣٣) البقرة: ١٩٠ ـ ١٩٢.

(٣٤) انظر آيات: البقرة ٢١٦، ٢١٧ والأنفال: ٣٠، والإسراء: ٧٦، ومحمد: ١٣، والتوبة: ٣٨ ـ ٤١، وآل عمران: ١٩٥.

(٣٥) الممتحنة: ٧ ـ ٩.

(٣٦) البقرة: ١٩٠.

(٣٧) البقرة: ١٩٦.

(٣٨) د. ميلاد حنا ـ صحيفة (أخبار الأدب) القاهرة ـ في ٩ ـ ١ ـ ٢٠٠٢م.

(٣٩) أمين هويدي ـ صحيفة (الأهرام) القاهرة في ٥ ـ ٣ ـ ٢٠٠٢م.

(٤٠) صحيفة (نيويورك تايمز) الأمريكية والنقل عن صحيفة (الشرق الأوسط) لندن في ٢٥ ـ ٢ ـ ٢٠٠٢م.

(٤١) د. محمد خاتمي (الدين والتراث والحداثة والتنمية والحرية) ص٤١ ـ ٤٩ تقديم: د. محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٩٩م.

* * *

الطيب والخبيث فى الدعوة إلى تغيير مناهجنا الدينية.. وخطابنا الدينى

عندما بدأنا الدراسة بالأزهر الشريف، قبل نحو ستين عامًا، كنا نواجه، فى الفكر الإسلامى الذى ندرسه، مشكلة لا نعرف لها سراً.. فأغلب كتب هذا الفكر الإسلامى التى ندرسها قد أُلفت فى عصر المماليك والعثمانيين، أى فى عصر التراجع الحضارى لأمتنا العربية الإسلامية!.. وكان السؤال الذى لا نعرف له يومئذ جوابًا هو:

ـ لماذا ندرس مؤلفات عصر التراجع الحضارى بالذات؟!.. ولماذا لا ندرس إبداعات عصر الازدهار الحضارى، الذى سبق التراجع والركاكة والتقليد؟.. أو مؤلفات عصر اليقظة والإحياء لنهضتنا الحديثة؟

ومن أعلامه الأئمة والشيوخ: حسن العطار (١١٨٠ ـ ١٢٥٠هـ ١٧٦٦ ـ ١٨٣٥م)، ورفاعة الطهطاوى (١٢١٦ ـ ١٢٩٠هـ ١٨٠١ ـ ١٨٧٣م)، ومحمد قدرى باشا (١٢٣٧ ـ ١٣٠٦هـ ١٨٢١ ـ ١٨٨٨م)، وجمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م)، وعبد الرحمن الكواكبى (١٢٧٠ ـ ١٣٢٠هـ ١٨٥٤ ـ ١٩٠٢م)، ومحمد عبده (١٢٦٥ ـ ١٣٢٣هـ ـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م)، ومحمد مصطفى المراغى (١٢٩٨ ـ ١٣٦٤هـ ـ ١٨٨١ ـ ١٩٤٥م)، ومصطفى عبد الرازق (١٣٠٢ ـ ١٣٦٦هـ ـ ١٨٨٥ ـ ١٩٤٦م)، وعبد المجيد سليم (١٢٩٩ ـ ١٣٧٤هـ ١٨٨٢ ـ ١٩٥٤م)، ومحمد الخضر حسين (١٢٩٣ ـ ١٣٧٧هـ ١٨٧٦ ـ ١٩٥٨م)، ومحمود شلتوت (١٣١٠ ـ ١٣٨٣هـ ١٨٩٣ ـ ١٩٦٣م) وغيرهم وغيرهم من عشرات الأئمة المجددين فى فكر الإسلام؟..

لقد كنا ندرس فى الشعر والأدب إبداعات تيار الإحياء والتجديد: محمود سامى البارودى باشا (١٢٥٥ ـ ١٣٢٢هـ ١٨٣٩ ـ ١٩٠٤م)، وأحمد شوقى (١٢٨٥ ـ ١٣٥١هـ ١٨٦٨ ـ ١٩٣٢م)، وحافظ إبراهيم (١٢٨٧ ـ ١٣٥١هـ ١٨٧١ ـ

١٩٣٢م)، وأحمد محرم (١٢٩٤ ـ ١٣٦٤هـ ١٨٧٧ ـ ١٩٤٥م) وغيرهم، وكذلك إبداعات عصور التأسيس والازدهار الأدبي، من معلقات العصر الجاهلى إلى روائع عصور الإبداع الإسلامى فى الشعر والآداب.

لكن، وحدة الفكر الإسلامي ـ في الفقه.. وعلم الكلام.. والتفسير.. والحديث ـ كانت مؤلفات عصر التراجع الحضارى هى المقررة علينا، والتى كنا نعانى نمطها الأسلوبى المتميز، الذى تثقل فيه «الحواشى» و«التعليقات» و«التهميشات»، و«الاعتراضات»، و«الأجوبة على الاعتراضات».. تثقل «المتون» والمضامين بالتفكيك والتطويل، حتى لقد كان «الخبر» ـ أحيانا ـ يتأخر عن «المبتدأ» عدة صفحات!!

صحيح أن هذه المعاناة الشديدة فى تحصيل المعلومات الإسلامية قد مرنت عقولنا وملكاتنا على الصبر فى تحصيل المعلومات، ومطاردة المقاصد!.. لكن أخطر سلبيات هذه المناهج والكتب كان فى «فقه الواقع» الذى تقدمه لنا.. فلقد كانت تقدم فقه واقع القرن العاشر الهجرى لأبناء أواخر القرن الرابع عشر الهجرى!.. الأمر الذى يكوّن عقلية مهاجرة من العصر إلى الماضى.. عقلية غريبة عن عصر التأسيس والأصالة، وعن الواقع المعيش والمعاصر معا!

ولقد كان لهذه المشكلة امتداداتها خارج قاعات الدرس بالأزهر الشريف.. فخطباء المساجد، يقرأ أغلبهم خطبًا مؤلفة منذ عقود طويلة من السنين، حتى إنهم كانوا يدعون بالنصر والعزة والتأييد لجيوش وسلاطين وملوك طواهم الموت منذ عقود وعقود!.. ويتحدثون ـ بالسجع الركيك ـ عن مشكلات واقع قد تغير وتبدل، وذلك فصلاً عن الافتقار إلى الحد الأدنى للبلاغة ـ وهو مطابقة الكلام لمقتضى الحال ـ وذلك من مثل «تبكيت» الفقراء المعدمين على حياة الترف والغنى والأكل فى صحاف الذهب والفضة!.. ومهاجمة التبرج والسفور فى بيئات مشكلتها الملحة هى «الحفاء» والبحث عن ما يستر العورات!!

وأمام هذه المشكلة فى مناهج التعليم الدينى والخطاب الدينى، كانت لنا ـ كطلاب أزهريين ـ مؤتمرات وإضرابات ومظاهرات واعتصامات، نطالب فيها بتطوير مناهج التعليم فى الأزهر الشريف.

وأذكر ـ فيما أذكر ـ أن هذه الأنشطة «الثورية» قد بلغت الذروة فى سنة ١٣٧٠هـ سنة ١٩٥١م، عندما كوّن اتحادنا الطلابى فى «معهد طنطا الأحمدى الدينى الثانوى» وفدًا ضم ممثلين من المعاهد المختلفة، وذهبنا إلى مشيخة الأزهر ـ بالقاهرة ـ وعلى عتبات سلّمها كان الصدام بيننا وبين الشرطة، فتدحرجت عمائمنا على سلّم المشيخة، ودخلنا غاضبين على الإمام الأكبر الشيخ الجليل عبد المجيد سليم، شيخ الأزهر، الذى غضب لغضبتنا، فكان تصريحه المدوى عاليًا، والذى ألمح فيه إلى ما يفعله الملك فاروق يومها من سفه فى ملاهى «كابرى»، فقال: «تقتير هنا.. وتبذير هناك»!!.. وضحى بمنصبه عقب هذا التصريح!

بل لقد شهد نفس العام حدثًا غير مسبوق فى تاريخ الأزهر المعاصر، عندما أضرب شيوخه، وشاركوا فى التظاهرات، فلم يقف أمر المطالبة بالإصلاح عند حماس الشباب والطلاب!

هكذا كنا نعيش «مشكلة» لها تاريخ.. مشكلة مناهج العلم الدينى والتربية الإسلامية والخطاب الدينى، وهكذا واجهنا هذه «المشكلة» منذ ما يقرب من ستين عامًا.. وقبل جيلنا كانت للأجيال السابقة مع هذه «المشكلة» مواجهات ومواجهات.

ولعل هذه «المشكلة» ـ بالنسبة لى ـ كانت وراء «التمرد»، الذى جعلنى أتوجه ـ بعد الثانوية الأزهرية ـ إلى كلية «دار العلوم» جامعة القاهرة ـ والتى كانت «أزهرا ـ متطورًا»، تلبى الكثير من شروط وضرورات التجديد، إن فى المؤلفات والمناهج أو فى طرائق التدريس.

وبعد التخرج، والانخراط فى العمل الفكرى ـ تأليفًا وتحقيقًا ـ ومعايشة تراث الأمة ـ القديم منه والحديث ـ والوعى بتيارات الفكر الإسلامى، وعلاقات تلك التيارات بالتجديد والاجتهاد والإبداع أو بالجمود والتقليد.. أدركتُ الأبعاد الكبرى للمعركة الأكبر التى خاضها أئمة وعلماء دعوا إلى تجديد مناهج الفكر، وإصلاح المؤسسات التى تصوغ العقل العربى والمسلم، وتطوير مناهج التربية والتعليم، وتجديد وتقنين الفقه الإسلامى، وإصلاح المساجد والقضاء، على نحو أشمل وأعمق من ذلك الذى أدركته عقولنا ونحن طلاب فى المعاهد الدينية

الأزهرية، يوم تظاهرنا وأضربنا واعتصمنا مطالبين بالإصلاح والتجديد والتطوير.

لقد أدركتُ أن عصور الركاكة والتراجع الحضارى والجمود والتقليد قد مثلت حاجبا بين عقولنا وبين عطاءات منابع عصر التأسيس والازدهار والإبداع.. فنحن ـ فى الفقه مثلا ـ لا ندرس (الموطأ) لإمام دار الهجرة مالك بن أنس (٩٣ ـ ١٧٩هـ ٧١٢ ـ ٧٩٥م) ولا ندرس (كتاب الخراج) للقاضى الفقيه أبى يوسف (١١٣ ـ ١٨٢هـ ٧٣١ ـ ٧٩٨م) ولا ندرس (الأم) أو (الرسالة) للشافعى (١٥٠ ـ ٢٠٤هـ ٧٦٧ ـ ٨٢٠م) وهى نماذج من الآثار الفكرية النفيسة، التى أسست علومًا إسلامية، وقدمت الاجتهادات المتألقة فى أسلوب بيانى يحاكى إبداعات أساطين الفنانين!.. لا ندرس شيئًا من ذلك، وإنما ندرس «الحواشى» و«التعليقات» و«التهميشات» و«الاعتراضات» التى أثقلت هذا الإبداع ـ فى عصر التراجع والتقليد ـ فحجبت ما فيه من تألق وعطاء يعلمنا التفكر وينمى ملكات الذكاء لدينا حتى هذه اللحظات!

ولقد أصبحت بقايا هذا «الحجاب» ـ المتحدرة من عصور التخلف الموروث ـ تغالب لتحجب أيضًا إبداعات تيار اليقظة والإحياء والاجتهاد، التى أثمرتها حركة التجديد، تلك التى تبلورت بعد الاحتكاك العنيف بين أمتنا وبين الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة، والتى بدأت بصيحة الشيخ حسن العطار: «إن بلادنا لابد أن تتغير، ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها»!

فبينما إبداعات مدرسة الإحياء تعمل على تجديد الفكر الإسلامى لتتجدد به دنيا المسلمين؛ كى لا تقع دنيانا فريسة للتغريب والحداثة الغربية والعلمانية والفلسفة الوضعية والمادية اللادينية.. كان التخلف الموروث، وامتدادات الجمود والتقليد ـ بعد الحيلولة بين العقل المسلم وبين منابع الإبداع القديم ـ تغالب إبداعات اليقظة الحديثة أيضًا، فتكرس الفراغ الفكرى، الذى يملؤه ـ رغما عنها ـ فكر التغريب والاستلاب الحضارى!

أدركنا هذه «المشكلة» التى أثمرت «متخصصين» فى شئون الواقع الدنيوى، لا دراية لهم بعلوم الدين ولا بالفنون المكوِّنة لهوية الأمة وحضارتها.. كما أثمرت «علماء ودعاة» فى الفكر الدينى، يعيشون فى واقع عصور قد تجاوزها التطور، ولا

دراية لهم بعلوم الواقع الذى تعيش فيه أمتهم.. وكأنما قد أثمرت هذه المشكلة لونين من «الهجرة»: هجرة فى الجغرافيا، حدثت لطلاب فنون الواقع، عندما ضُربت عقولهم فى مصانع المناهج الغربية، فهاجروا من واقع أمتهم إلى واقع الوافد الغربى.. وهجرة فى التاريخ، حدثت لطلاب علوم الدين، عندما وقفت عقولهم عند واقع وكتابات وأساليب عصر المماليك لا تكاد تتعداه!

وهكذا امتلك الغرب والتغريب دنيانا وعصرنا.. ووقفت مناهج التعليم الدينى عند تراث عصر الركاكة والتراجع والتقليد.. وأصبح تيار اليقظة والتجديد والإحياء بين نارين، ويحارب فى جبهتين: يحارب أهل التغريب المقلدين للغرب.. وأهل الجمود المقلدين للتراث المملوكى، جميعًا!

فالأزهر الشريف، الذى كان يدرّس ـ فى عصور الازدهار والإبداع ـ إلى جانب القرآن وعلومه، والسنة وعلومها، والشريعة وعلومها، والعربية وعلومها وآدابها ـ التاريخ، والجغرافيا، والفلسفة والمنطق، والعلاقات الدولية، والفلك والحساب، والجبر، والهندسة، والطبيعة، والطب والتشريح، والصيدلة، والموسيقى، والرياضيات.. هذا الأزهر قد أصبح غريبًا عن أغلب هذه العلوم والفنون.. حتى لقد مات الإمام محمد عبده كمدا من الصراع مع الشيوخ الرافضين تدريس الجغرافيا، رغم تسمية محمد عبده لها ـ كى يقبلوا تدريسها ـ باسمها الموروث: «تقويم البلدان»!.. كما رفضوا ـ خوفا من التغريب ـ تجديد أساليب القضاء.. وتقنين الفقه الإسلامى.. فتركوا الفراغ الذى تمدد فيه «فقه نابوليون» الوضعى العلمانى!!.

أدركنا، من خلال المشروع الفكرى، ومعايشة تيارات الفكر الإسلامى، والمعارك الفكرية، جذور هذه المشكلة وأبعادها، والمخاطر التى تهدد إسلامية النهضة وإسلامية المشروع الحضارى وهوية الأمة إذا بقيت هذه المشكلة دون حلول حاسمة لها.

وأدركنا ثمرات الجمود فى قطاعات من الخطاب الدينى، تلك التى تمثلت فى ادعاءات نتوءات قليلة أنها هى وحدها «الفرقة الناجية»، وأن من عداها ـ من جمهور الأمة ـ هالكون!.. وما أحدثته وتحدثه هذه الادعاءات من تكفير وحرج

فى صدور الأمة، وتضييق لسعة الرحـمة الإلهية.. بل واتهام للإسلام بالإفلاس، إذا لم يتعلق بصحيحه سوى هذه النتوءات!

وأدركنا، كذلك، عـلاقة مثل هذه الادعـاءات بإنتاج وتبرير فكر فـصيل العنف والغضب والاحتجاج، ذلك الذى وإن حسنت نواياه ومقاصده، إلا أن الغضب قد دفعه إلى ما يقرب من الجنون!!.. ولقد صدق فقهاؤنا عندما وصفوا الغضب بأنه قطعة من الجنون.. وأفتوا بأن يمين الغاضب وحكمه وفتواه لا تجوز!

وأدركنا، أيضًا، كيف كانت هذه المشكلـة هى الدافع النبيل وراء مشروع تطوير مناهج الأزهر الشـريف سنة ١٣٨١هـ سـنة ١٩٦١م فعندمـا اصطدمت «مـصـر: الثورة.. والتحـرر الوطنى» بالاستعمـار الغربى فى قلب أفريقيـا، رأت الثمار المرة لهذه المشكلة فى مناهج التعليم الدينى.. رأت الأغلبيـات المسلمة، فى المستعمرات الأفريقـية، قـد وقفت بتعليم أبنائـها عند «الخلاوى.. والكتـاتيب»، وعند بعض «المتون» و«الحواشى» الموروثة عن عصـر التراجع الحضارى، بينما أقام الاسـتعمار المدارس الحـديثـة، التى تعلّم ـ مع النصـرانيـة والتـغـريب ـ علوم الإدارة للدولة والمجتمع وفنون الواقع المعيش.. فأصـبحت الدولة ـ عند الاستقلال ـ حكرًا على الأقلية التى تنصـرت وتغربت!.. وظلت الأغلبيـة المسلمة قابضـة على عقيـدتها، وعاجزة عن التعامل مع الواقع والعصر، ومعزولة عن الدولة الحديثة ومقدراتها!

فكان أن فكرت «مـصر: الـثورة.. والتـحرر الوطـنى» فى حل هذه المشكلة، بتطوير الأزهر الشـريف، ليعـود كمـا كان فى عـصور الازدهار والإبداع، صـانعًا وصائـغًا للعـالم المتفـقه فى الدين والدنيـا، والمتـخصص فى علوم العـقل والنقل والوجدان.. ليأخذ هذا العالم وهذا الداعيـة بيد أبناء هذه المجتمعات إلى دولة لا تتنكر للدين.. وإلى عـقل لا يتنكر للنقل.. وإلى فقه للـواقع يبحث عن الحلول فى فـقه الأحكام الإسـلاميـة.. فكان هذا الهدف النبيل هو الدافع إلى مـشروع تطوير مناهج الأزهر الشريف ـ رغم ما آل إليه التطبيق من ضعف وقصور؛ بسبب الضعف والقـصور اللذين أصابا كل المؤسسـات! ـ كان هذا الدافع هو التعبـير عن اتجاه «الحل الحـقيقى» لهـذه «المشكلة»، التى عانينا منهـا كطلاب أزهريين، والتى عانى منها وجاهد فى سبيل حلها أعلام تيار اليقظة والإحياء والتجديد، منذ الشيخ حسن العطار.. وحتى هذه اللحظات.

إذن، نحن أمام «مشكلة» فى قطاع كبير من مناهج الفكر الإسلامى، والتعليم الإسلامى، والخطاب الإسلامى. ذلك الذى تقدمه الكثير من المعاهد والمدارس والجامعات والمنابر والكتب والصحف والمجلات والإذاعات والفضائيات.. إذ لا يزال الجمود والتقليد بالعجز وراء الفراغ الذى يتمدد فيه التغريب.. ولا يزال تيار الإحياء والتجديد والوسطية الإسلامية الجامعة يحارب فى جبهتى الجمود والتغريب معا، بل ولا يزال واقعًا - فى أحيان كثيرة - بين شقى رحى هذا الجمود وذلك التغريب!

* * *

لكن قارعة ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م، التى نزلت بأمريكا.. قد جعلت أمريكا، ومن ورائها الغرب عمومًا، يرفعون شعارات الدعوة إلى تغيير مناهج التعليم الإسلامى، وطرائق ومقاصد الخطاب الإسلامى، وذلك فى سياق الحملة العالمية - بل والحرب العالمية - التى أعلنوها على الإسلام، بعد أن قرنوه وربطوه بالعنف الهادف إلى تحقيق أغراض سياسية - والذى سموه «بالإرهاب» - فاختلطت فى فضاء هذه الحملة كثير من الأوراق، وتبنى الذين أعلنوا الحرب على الإسلام، ذات الشعارات التى طالما رفعها المجددون الإسلاميون، الذين سعوا إلى الإصلاح بالإسلام، ورفضوا التغريب مع رفضهم للجمود والتقليد.. الأمر الذى استوجب ويستوجب تمييز الطيب من الخبيث فى هذه المقاصد والشعارات والدعوات.

فنحن مطالبون بأن نميز بين هذه «المشكلة» التى تعانى منها أمتنا وثقافتنا منذ قرون، والتى جاهدت لحلها مواكب من العلماء المجددين، ورسموا لحلها معالم على الطريق، بل وحققوا - على طريق حلها - الكثير من الإنجازات.. نحن مطالبون بأن نميز بين هذا وبين ما تطالب به أمريكا والغرب، على نحو صريح، وفى لهجة بلغت حد الإنذار والتهديد والوعيد، إزاء تعليمنا الدينى وخطابنا الإسلامى.

فما تطلبه أمريكا والغرب، تحت عنوان «تغيير مناهج التعليم الدينى.. وتطوير الخطاب الدينى»، هو - فى حقيقته - جزء من «المشكلة»، وليس الحل «للمشكلة» التى نعانى منها.. بل إنه التصعيد الحاد للتغريب الذى جاءتنا به الغزوة الاستعمارية الغربية قبل قرنين من الزمان.. وإن الانصياع لهذه المطالب هو الذى

سيدعم تيار الجمود والتقليد فى فكريتنا الإسلامية، وينمى مصداقية ومشروعية تيار العنف والرفض والغضب والاحتجاج، عندما يصبح أهل الجمود والغضب هم قادة المقاومة للاجتياح الغربى لتعليمنا الدينى وثقافتنا الدينية.

ذلك أن ما تريده أمريكا ـ ومعها كل الذين لهم مشكلة مع حركات التحرر الوطنى للشعوب المسلمة ـ من الصهيونية.. إلى الهندوسية.. إلى الأرثوذكسية الروسية ـ ليس «التجديد» لفكرنا الدينى، وإنما هو «التبديد» لهذا الفكر الدينى.. فالتجديد هو استصحاب الثوابت، وفقه الواقع المتغير فى ضوء هذه الثوابت، بينما الذى تريده أمريكا، هو «الحداثة» ـ بمعناها الغربى ـ أى إقامة القطيعة المعرفية الكبرى مع ثوابت الإسلام، ومع الخصائص الجوهرية التى تميز هذا الإسلام.

وحتى لا يظن ظان أن رؤيتنا هذه هى محض «رأى.. وهوى»، أو مجرد «استنتاج»، فتعالوا نقرأ ونعى «المطالب الأمريكية ـ الغربية» من الدول والمجتمعات الإسلامية.. وهى ـ لحسن الحظ ـ معلنة، وصريحة وواضحة، لا تحتاج إلى تأويل أو حتى تفسير!

إن من أهم خصائص الإسلام هى وسطيته الجامعة، التى جعلته: دين الفرد والطبقة والأمة والإنسانية.. دين الوطنية والقومية والجامعة الإسلامية.. دين الدنيا والآخرة.. دين التكاليف الفردية والاجتماعية.. دين العقل والنقل والتجربة والوجدان.. دين الروح والجسد.. دين الشعائر والعبادات والقيم والدولة والسياسة والاجتماع والاقتصاد والقانون.. إنه الدين الذى لا تكتمل إقامته إلا فى جماعة وأمة ووطن ودولة ونظام واجتماع... حتى إن رهبانيته وسياحته هى الجهاد، الذى هو فريضة اجتماعية بامتياز!

وعلى العكس من هذه الخصيصة ـ الممثلة لجوهر الإسلام ـ جاءت النصرانية.. فهى رسالة روحية محضة، مغرقة فى الصوفية المسالمة والسلام الصوفى، هدفها خلاص الروح، ومملكتها فى السماء، وليست فى هذا العالم، ولذلك كانت قمة اكتمال إقامتها فى الرهبانية الفردية، التى تدير الظهر للدنيا والدولة والوطن والأمة والنظام والاجتماع.

ولهذه الحقيقة: كانت الدولة الكنسية الكهنوتية، فى تاريخ التطور الغربى،

تجاوزًا من الكنيسة لحدود نصرانيتها، وكان رد الفعل العلمانى، الذى أعاد اللاهوت النصرانى إلى داخل الكنيسة، وحرر الدنيا والدولة والمجتمع من الدين، وعزل السماء عن الأرض، كان له الكثير مما يبرره فى طبيعة النصرانية وخصوصيتها.. الأمر الذى جعل العلمانية - فى السياق الحضارى للنهضة الغربية - حلا غربيًا لمشكلة غربية، لا علاقة له بطبيعة الإسلام، ولا بمشكلات الثقافة والسياسة فى مجتمعات الإسلام.

فمشكلتنا - فى التعليم الدينى والخطاب الدينى - فى جوهرها هى الفصام بين «الدينى» و«المدنى» فى ثقافتنا الإسلامية، سواء بالجمود الدينى الذى يجهل الواقع المدنى، أو بالتغريب الذى يفقه الواقع المدنى بمعايير وضعية غربية، لجهله فقه أحكام الإسلام.. وهذه المشكلة، التى نعانى منها، ونجاهد للخروج من أسرها هى بعينها التى تريد أمريكا - ومعها الغرب - تكريسها وزيادة حدتها وتعميم بلواها، على هذا النحو الذى نشهده بعد قارعة سبتمبر سنة ٢٠٠١م.

وإذا شئنا نماذج - مجرد نماذج - من «المطالب - الأوامر!» الأمريكية فى هذا المقام، فيكفى أن نشير إلى:

● ما كتبه الكاتب اليهودى الأمريكى - الصهيونى.. والمقرب من دوائر صنع القرار - «توماس فريدمان» عندما قال: «إن الحرب الحقيقية فى المنطقة الإسلامية هى فى المدارس؛ ولذلك يجب أن نفرغ من حملتنا العسكرية فى أفغانستان لنعود، مسلحين بالكتب الحديثة، لا بالدبابات.. لتنمو تربة جديدة، وجيل جديد، يقبل سياساتنا، كما يحب شطائرنا»!

ثم يهدد بعض البلاد الإسلامية، فيقول: «إن المشكلة هى فى مدارسكم الإسلامية».. ويطلب «تفسيرًا جديدًا للإسلام» وإلا كنا - بالنسبة لأمريكا - «مثل الاتحاد السوفييتى، فى الحرب على الشيوعية»!.. ثم يضع النقاط على الحروف، فى هذا «التفسير الجديد» الذى يريده للإسلام، فيقول: «لا نريد حربًا على الإسلام، نريد حربًا داخل الإسلام»!! (صحيفة «وطنى» القاهرة فى ٢٣، ٢٥ - ١١ سنة ٢٠٠١م - نقلا عن «نيويورك تايمز»).

● أما المفكر الاستراتيجى الشهير، والمشير على صانع القرار الأمريكى، «فرانسوا فوكوياما» فإنه يصوغ ويفصل هذا الذى سماه «توماس فريدمان» «حربًا

داخل الإسلام»، وذلك عندما يعلن أن أمريكا تريد تغيير طبيعة الإسلام، وتبديل أخص خصوصياته.. تريد إسلامًا أمريكانيا.. إسلامًا ليبراليا، يقبل الصليبية الغربية ويتسامح مع الصهيونية العنصرية.. إسلامًا حداثيا، يقيم قطيعة معرفية كبرى مع ماضيه ومع خصوصية منهاجه الشامل للدنيا والدين.. إسلامًا علمانيا يقبل المبدأ المسيحي دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله، ليقف هذا الإسلام - مثل النصرانية - عند ما لله من شعائر وعبادات، تاركا دنيا المسلمين للعلمانية والتغريب والقيصر الأمريكي!

وبنص عبارات «فوكوياما»: «هناك، في الحقيقة، أسباب للاعتقاد بأن القيم والمؤسسات الغربية تلقى قبولاً كبيراً لدى الكثير من شعوب العالم غير الغربية، إن لم نقل جميعها.. ولكن هناك ثقافات أو مناطق في العالم ستقاوم، أو تثبت أنها منيعة على قبول القيم والمؤسسات الغربية والإسلام هو الحضارة الرئيسية الوحيدة في العالم التي لديها بعض المشاكل مع الحداثة الغربية.. فالعالم الإسلامي، دون غيره من الحضارات، هو وحده الذي ولّد تكراراً خلال الأعوام الأخيرة حركات أصولية مهمة، ترفض لا السياسات الغربية فحسب، وإنما المبدأ الأكثر أساسية للحداثة الغربية.. ترفض العلمانية نفسها.. إن المسألة ليست ببساطة «حربا» على الإرهاب، كما تظهر الحكومة الأمريكية بشكل مفهوم - [؟!] - وليست المسألة الحقيقية هي السياسة الخارجية الأمريكية في فلسطين، أو نحو العراق، إن الصراع الأساسي الذي نواجهه، لسوء الحظ أوسع بكثير.. إنه صراع ضد العقيدة الإسلامية الأصولية التي تقف ضد الحداثة الغربية.. إنه صراع أكثر أساسية من الخطر الذي شكلته الشيوعية»!

والحل الذي يراه «فوكوياما» لمشكلة تفرد الإسلام بالممانعة والمنعة والاستعصاء على قبول القيم الغربية والحداثة الغربية، وفي الجوهر منها العلمانية الغربية.. هو استسلام «الأصولية الإسلامية» - التي يسميها الفاشية الإسلامية - وقبولها لمنظومة قيم الحداثة الغربية، وذلك بخوض «حرب داخل الإسلام»، تجعل هذا الإسلام حداثيًا، يقيم قطيعة مع أخص خصوصياته: منهاجه الشامل للدين والدنيا جميعًا، وتجعله «علمانيًا» يدع ما لقيصر للقيصر الأمريكي، ويكتفي بما لله من شعائر وعبادات!.. يوجه «فوكوياما» إلى الإسلام «إنذار الاستسلام» هذا عندما يقول:

«إن التطور الأهم ينبغى أن يأتى من داخل الإسلام نفسه، فعلى المجتمع الإسلامى أن يقرر فيما إذا كان يريد أن يصل إلى وضع سلمى مع الحداثة الغربية، خاصة فيما يتعلق بالمبدأ الأساسى حول الدولة العلمانية»؟! (نيوزويك ـ العدد السنوى ـ ديسمبر سنة ٢٠٠١م ـ فبراير سنة ٢٠٠٢م).

فجوهر المشكلة الأمريكية مع الإسلام، ليس الرفض الإسلامى للسياسة الأمريكية، ولا العنف ـ المسمى إرهابا ـ ضد هذه السياسة الأمريكية.. وإنما المشكلة هى ذات الإسلام الممتنع والمستعصى على تغيير طبيعته وخصوصيته، التى نزل بها من السماء.. طبيعة وخصوصية الوسطية الجامعة بين الدين والدنيا والسياسة والدولة والقانون وتنظيم الاجتماع والعمران.

وهذا الفكر الاستراتيجى ـ الواضح.. والصريح ـ يذكرنا بكلمات الجنرال الإنجليزى، الخبير بالشرق والإسلام، «جلوب باشا» (١٨٩٧ ـ ١٩٨٦م) التى قال فيها: «**إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط ـ مع الغرب ـ إنما يعود إلى القرن السابع للميلاد**»!!.. وهى كلمات ـ مع هذا الذى قاله «فوكوياما» ـ كفيلة بإيقاظ السكارى والنيام!.. وشاهدة على أن ما تريده أمريكا من وراء «الحرب داخل الإسلام»، هو عكس الذى نريده نحن عندما نتحدث عن مشكلتنا مع الجمود والتقليد فى مناهج التعليم الدينى وأساليب الخطاب الدينى.. بل إن ما يريدونه هو «الداء» الذى نعانى منه، والذى نبحث له عن دواء!

● وفى ضوء هذه المقاصد الأمريكية ـ المعلنة والصريحة ـ والتى قدمنا عليها مجرد مثال ـ من سيل الكتابات التى طفحت بها وسائل الإعلام الغربية، ولا تزال، منذ ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م وحتى الآن ـ فى ضوئها يجب أن نقرأ «طلبات» أمريكا من بعض البلاد الإسلامية:

ـ اختصار ساعات التعليم الدينى بالمدارس إلى السدس!

ـ وقصر منهاج التعليم الدينى على الشعائر والعبادات!

ـ والاعتمادات المالية الأمريكية «لتحديث» المدارس الدينية فى بعض البلاد الإسلامية!

ـ والاعتمادات المالية الأمريكية لبرامج «تكوين الأئمة المستنيرين» للمساجد الإسلامية!

ـ وثناء أمريكا المستطاب على البلاد الإسلامية التى استجابت لهذه «المطالب ـ الأوامر»!.. وكيف أصبح قادة هذه البلاد ـ بالقدرة الأمريكية ـ نماذج للاستنارة، وأهلا للمعونات، بعد أن كانوا «ديكتاتوريين» مغتصبين للسلطة، تُفرض بسببهم العقوبات على مجتمعاتهم ودولهم!.. لقد أصبحوا بعد تلبية هذه «المطالب» نماذج يحتذى بهم، يسيرون على درب العظماء من العلمانيين، أمثال مصطفى كمال أتاتورك (١٢٩٨ ـ ١٣٥٧هـ ١٨٨١ ـ ١٩٣٨م) «**الذى أجبر تركيا بإصرار شديد على أن تهجر ماضيها الإسلامى**»!. كما يقول «ستانلى أ. فايس» فى «الهيرالد تريبيون ـ يناير سنة ٢٠٠٢م».

فالمطلوب ـ أمريكيا ـ هو «حرب داخل الإسلام»، تغير طبيعة الإسلام، وتكسر شوكة مقاومته ومنعته ورفضه قبول منظومة القيم الغربية، وفى مقدمتها والقلب منها الحداثة التى تجعله يقيم قطيعة مع ماضيه والعلمانية التى تجعله صورة من النصرانية التى تقف عند ما لله من شعائر وعبادات، مع ترك الدنيا لإمبريالية القيصر الأمريكى!.. كما يريدون هذا الإسلام ليبراليا، ليقبل «تسامحه» الصليبية الغربية، الصهيونية العنصرية ـ التى يسمونها السامية! ـ **إسلامًا «يهجر ماضيه»** كما يقول «ستانلى أ. فايس» وبعبارة «فوكوياما»: «**إسلاما علمانيا، يقبل بالمبدأ المسيحى: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله**»!

* * *

هذا هو ما يريده الغرب من حملته تحت عنوان «تغيير مناهج التعليم الدينى.. وتطوير الخطاب الدينى» فى العالم الإسلامى.

وهذا هو عين «الداء» وجوهر «المشكلة» التى أصابت ثقافتنا منذ عصر التراجع الحضارى ـ بشكل جزئى ـ عندما حدث لون من الفصام النكد بين فقه الأحكام وفقه الواقع المعيش.. والتى جاء التغريب فحرسها وكرّسها، وزاد من حدتها، عندما فصل التعليم المدنى عن التعليم الدينى، فأصبح لدينا «أخصائيون» فى علوم الواقع، يجهلون دينهم، وطلاب لعلوم الدين، يجهلون دنياهم.. وفى أحيان كثيرة: «أخصائيون» لا قلوب لهم.. و«متدينون» لا عقول لهم!!

وحل هذه المشكلة: ليس فى الحداثة الغربية، ولا فى العلمانية الغربية، ففيهما

الداء لا الدواء.. وذلك بتكريس القطيعة بين ديننا ودنيانا.

ولكن الحل هو فى «التجديد الإسلامى» الذى تمثّل فى معالم المشروع النهضوى الإسلامى، الذى أبدعه علماء تيار الإحياء والتجديد، وسطية إسلامية جامعة، ومتميزة عن تيارى الجمود والتقليد.. والعلمانية والتغريب كليهما.

وفى تحديد لب هذا التميز للخصوصية الإسلامية، قال رائد الاستنارة الإسلامية الحديثة «رفاعة رافع الطهطاوى»: «إن بحر الشريعة الغراء، على تفرع مشارعه، لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقى والرى.

وإن تحسين النواميس الطبيعية لا يُعتد به إلا إذا قرره الشارع.. والتكاليف الشرعية والسياسية، التى عليها مدار نظام العالم، مؤسسة على التكاليف العقلية الصحيحة الخالية عن الموانع والشبهات؛ لأن الشريعة والسياسة مبنيتان على الحكمة المعقولة لنا أو التعبدية التى يعلم حكمتها المولى سبحانه، وليس لنا أن نعتمد على ما يحسّنه العقل أو يقبّحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه. ولا عبرة بالنفوس القاصرة، الذين حكّموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التى ركنوا إليها تحسينا وتقبيحًا، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود، بتعدى الحدود.

فينبغى تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع، لا بطرق العقول المجردة؛ لأن أحكام السياسة لم تخرج عن المذاهب الشرعية.. لأنها الأصل، وجميع مذاهب السياسة عنها بمنزلة الفرع». - [الأعمال الكاملة: جـ٢ ص٧٩، ٣٢، ٤٧٧، ٣٨٦، ٣٨٧ وجـ١ ص٣٦٩، ٣٧٠] طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.

فهذا أول إعلان - فى العصر الحديث - عن تميز الإسلام عن الوضعية الغربية - الفلسفية والسياسية وأول رفض للعلمانية الغربية، من أول عين للشرق على الغرب فى العصر الحديث!.

أما جمال الدين الأفغانى، فلقد أعلن أن طريق الإصلاح إنما هو الإسلام.. «لأن الدين هو قوام الأمم، وبه فلاحها، وفيه سر سعادتها، وعليه مدارها.. ومن طلب إصلاح الأمة بوسيلة سوى هذه، فقد ركب بها شططا.. ولن يزيدها إلا نحسًا، ولن يكسبها إلا تعسا» - [الأعمال الكاملة ص١٣١، ١٩٩] - طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧م.

وبعبارة الإمام محمد عبده: «فإن أنفس المسلمين قد أشربت الانقياد إلى الدين حتى صار طبعًا فيها، فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذراً غير صالح للتربة التي أودعه فيها، فلا ينبت، ويضيع تعبه، ويخفق سعيه.. وما لم تكن معارف المصلحين العامة وآدابهم مبنية على أصول دينهم فلا أثر لها في النفوس.. والإسلام: دين وشرع، جاء كمالاً للشخص، وأُلفة في البيت، ونظامًا للملك. لم يدع ما لقيصر لقيصر، بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ماله، ويأخذ على يده في عمله.. فهو دين الفطرة، والمدرسة الأولى التي يرقى فيها البرابرة على سلّم المدنية.. امتازت به الأمم التي دخلت فيه عن سواها ممن لم يدخل فيه» [الأعمال الكاملة جـ٣ ص١٠٩، ٢٨٧، ٢٢٥، ٢٢٦] طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

أما الذين يستجيبون لهذا الذي تريده أمريكا لإسلامنا وتعليمنا الديني وخطابنا الإسلامي - تقليدًا لما عند الغرب، أو إذعانا لمطالبه - فلقد قال فيهم وعنهم وفي سلفهم جمال الدين الأفغاني - قبل ما يقرب من قرن ونصف القرن: «إن المقلدين لتمدن الأمم الأخرى ليسوا أرباب تلك العلوم التي ينقلونها. والتمدن الغربي هو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنساني ولقد علمتنا التجارب، أن المقلدين من كل أمة، المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها.. وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون لهم الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم»! (الأعمال الكاملة ص١٩٥ - ١٩٧).

* * *

هكذا نحسب أن التمييز قد تم بين «الطيب» و«الخبيث» في الدعوات إلى تغيير مناهج التعليم الديني.. وتطوير الخطاب الإسلامي.. وذلك بتمييز «التجديد الإسلامي» عن «التبديد التغريبي». لخصوصية الفكر الإسلامي.

إننا لا نزال مع الشعار الذي رفعه الشيخ حسن العطار قبل قرنين من الزمان: «إن بلادنا لابد أن تتغير، ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها».

لكنه «التغيير بالإسلام».. وليس «التغيير للإسلام»!..

والله، سبحانه وتعالى، أعلم.

قرن أمريكا؟.. أم قرن الإسلام؟

مع مطلع القرن الميلادى الواحد والعشرين، حدثت لأمريكا «قارعة سبتمبر سنة ٢٠٠١م».

وبصرف النظر عن الفاعل الحقيقى لهذه «القارعة» فلقد كانت الفرصة التى انتهزتها أمريكا لتعلن عن مشروع الهيمنة الذى كانت تمارسه منذ سقوط الشيوعية ـ فى مطلع العقد الأخير من القرن العشرين ـ مشروع الانفراد بالهيمنة على العالم، وإحلال «الشرعية الأمريكية» محل «الشرعية الدولية» والقانون الأمريكى محل القوانين والمواثيق والاتفاقات الدولية.. والمؤسسات الأمريكية محل المؤسسات الدولية، تحقيقًا للسيطرة المنفردة على مفاتيح الثروات الاستراتيجية فى العالم، للتحكم بمقدرات التكتلات الدولية والأمم والحضارات، وذلك حتى لا تظهر قوة دولية أخرى تنافس الإمبراطورية الأمريكية فى قيادة العالم، بالمدى المنظور على أقل تقدير.

وإذا كان تاريخ أمريكا فى محاولات «استغلال» الإسلام فى الحرب الباردة هو تاريخ قديم.. فإن سعيها لتكريس انفرادها بقيادة العالم قد جعلها تعلن ـ عقب «قارعة» سبتمبر ـ الحرب على الإسلام، صريحة حينًا، وتحت مسمى «الإرهاب» حينًا آخر، باعتبار أن الإسلام ـ وفق نظرية صدام الحضارات ـ هو أول القوى الدولية المستعصية على العلمنة وعلى القبول بعولمة منظومة القيم «الأمريكية ـ الغربية»..

لقد كشفت أمريكا ـ عقب «قارعة» سبتمبر ـ عن مشروع هيمنتها المنفردة هذا، وكتب كتاب الاستراتيجية فيها، وصرح صقور إدارتها أن القرن الواحد والعشرين هو «قرن الإمبراطورية الأمريكية»، بل و«الإمبريالية الأمريكية»!..

وقبل مطلع القرن الواحد والعشرين بثلاثة عقود. . ومع تصاعد مد اليقظة الإسلامية، وسقوط مشاريع التحديث على النمط الغربى، فى مختلف بلاد العالم ـ وخاصة العالم الإسلامى ـ وانعطاف المسلمين إلى «الحل الإسلامى» وأسلمة النهضة. . أعلن الكثيرون من رواد اليقظة الإسلامية أن القرن القادم ـ الخامس عشر الهجرى. . الحادى والعشرين الميلادى ـ هو «قرن الإسلام». .

فأى الشعارين هو الأصدق فى التعبير عن القراءة العلمية للمستقبل المنظور؟. . وعما نريده لهذا المستقبل المنظور؟. .

ـ هل هذا القرن هو قرن «إمبريالية» الإمبراطورية الأمريكية، بقيمها الغربية، ورأسماليتها المتوحشة؟. .

ـ أم هو قرن الصعود والسيادة والظهور والتمكين للإسلام، والنموذج الإسلامى فى الحضارة والتقدم والتجديد؟

* * *

فى الإجابة على هذا التساؤل، الذى كاد أن يقسم ساحة الفكر إلى «فُسطاطين». . تود هذه الدراسة أن تطرح هذه القضية من منظور جديد. . وذلك من خلال إشارات إلى عدد من الحقائق والأفكار:

أولها: أن «جنون القوة» الذى تفرض به أمريكا مشروع هيمنتها، سيجعل عمر هذه الهيمنة قصيراً. خصوصاً وأن هذه «الإمبراطورية الأمريكية» تغلب على قيادتها عقلية «رعاة البقر»، الذين تقودهم أساطير اليمين الدينى البروتستانتى. . والذين يفتقرون إلى تاريخ حضارى يسلحهم بدبلوماسية الهيمنة التى تمتعت بها الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية السابقة.

كما أن «شعب» هذه الإمبراطورية الأمريكية ليس «أمة» ـ بالمعنى العلمى لمصطلح الأمة ـ وإنما هو خليط من الأمم والثقافات، جمعته قيم «حلم النجاح» الاقتصادى، والليبرالية السياسية. . وحتى هذه القيم «الحُلم النجاح الأمريكى»، فإنها تتعرض للتآكل بعد «قارعة» سبتمبر سنة ٢٠٠١م. .

يضاف إلى هذا أن «رحم» العالم تتخلق فيه الآن أجنة مشاريع لمراكز قوى

وأقطاب، لن يطول عليها الحين حتى تفسد على الحلم الأمريكى تحقيق مقاصده فى التفرد والانفراد.

وثانى هذه الحقائق: أن حالة المسلمين اليوم ليست كحالتهم مع مطلع القرن العشرين، عندما أُخضعوا لمشاريع هيمنة الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية ـ الإنجليزية.. والفرنسية.. والهولندية ـ فلقد بدأ القرن العشرون و«الدولة الإسلامية الجامعة» ـ الخلافة العثمانية ـ فى سنوات احتضارها السياسى والإدارى والحضارى.. وبدأ والنموذج الحضارى الغربى فى ذروة تألقه وإبهاره لقطاعات واسعة من عقول النخب المفكرة فى بلادنا، وذلك عند مقارنة هذا النموذج «بالحالة العثمانية».. حتى لقد كانت هذه المقارنة من أفعل مغريات التغريب، ومن أخطر أسباب التمكين لهيمنة تلك الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية فى بلاد الإسلام..

أما الآن، ومع مطلع القرن الواحد والعشرين، فإن الوضع مختلف اختلافًا «نوعيًا» و«جذريًا».. فالقرن العشرون، وإن كان قرن اكتمال وعموم بلوى استعمار أوروبا للعالم الإسلامى.. فلقد كان ـ أيضًا ـ قرن اليقظة الإسلامية.. يقظة العقل بالاجتهاد والتجديد.. ويقظة السواعد بالحركات السياسية الإسلامية.. وقرن التحرر الوطنى، الذى نهض فيه الإسلام بالدور الريادى فى الربط بين «تحرير الأرض» وبين «الاستقلال الحضارى».. الأمر الذى أدى إلى أن يشهد ذلك القرن تصفية الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية جميعها.

كما كان القرن العشرون قرن إعلان الإفلاس للمشروع التحديثى الغربى، فسقطت فيه «حداثته»، التى أرادت إقامة قطيعة معرفية كبرى مع الموروث الدينى، وجعل الإنسان سيدًا للكون، لا خليفة لسيد الكون.. ومع نهاية هذا القرن العشرين، ماتت ـ أيضًا ـ فى مهدها عبثية وعدمية وتفكيكية «ما بعد الحداثة» الغربية!..

وهكذا نجد أنفسنا ـ فى العالم أجمع.. وخاصة فى العالم الإسلامى ـ مع مطلع القرن الواحد والعشرين.. أمام «متغير نوعى»، بالمقارنة إلى الحال فى مطلع القرن العشرين..

لقد سقط النموذج الغربى فى التقدم والنهوض والتحديث، وارتفعت فوقه علامات الاستفهام حتى فى بلاده.. ولم يبق من مقومات الهيمنة الغربية، لدى المشروع الأمريكى، إلا «جنون القوة الفرعونية» و«توحش الوفرة القارونية».. وتلك مقومات «مأساة درامية» من فصل واحد!.. ولا يمكن أن تكون مقومات مشروع حضارى مقبول، أو قابل للحياة..

ومع سقوط المشروع الغربى للتحديث، وانكشاف وتهميش عملائه فى بلادنا، أخذت معالم المشروع الإسلامى فى التبلور، وانحازت إليه جماهير الأمة، على النحو الذى أسفرت وتسفر عنه انتماءات الجماهير.. وحالات التنظيمات السياسية.. ونتائج «صناديق الاقتراع» حيثما تكون هناك حرية فى الاقتراع!..

* * *

وإذا كان هناك من يشك فى صدق هذه الحقيقة فيستطرق إليه اليأس أو القنوط أمام شدة ضربات «جنون القوة الأمريكية» على امتداد أقطار العالم الإسلامى، فإن الحقائق الصلبة والعنيدة تطارد هذا اليأس والقنوط.

● فشدة الضربات الاستعمارية دليل على أن أمتنا فى حالة تململ ورفض وتمرد ويقظة، وليست فى حالة نوم أو سبات أو موات.. وإلا فلو كانت ميتة لما التفت إليها أحد، ولا ضربها ضارب، إذ «الضرب فى الميت حرام»!، ولا يستأهل جهد الضاربين ولا نفقات الضربات!..

● ثمّ إن المعيار الفارق بين «اليقظة.. والحيوية.. والصعود» وبين «السبات.. والموات» هو «الإرادة»، وليست «الخسائر المادية» فى المعارك والصراعات.. فاليابان، قد انكسرت إرادتها منذ أن ضربتها أمريكا فى سنة ١٩٤٥م.. ومنذ ذلك التاريخ لم تعد اليابان تمثل أكثر من «مصنع» ناشط فى الإنتاج المادى. بينما أمتنا الإسلامية تتزايد صلابة إرادتها، وتتعاظم كراهيتها للبغى الأمريكى، ويتصاعد رفضها للظلم والجور، حتى ليخشى تيارها الوسطى العريض من نمو فصيل العنف والغضب والاحتجاج والأنياب والأظافر فى مواجهة التحديات التى فرضتها علينا قوى الهيمنة الأمريكية!..

● ثم إن خلود الخيرية فى هذه الأمة الإسلامية الخاتمة، مرتبط بخلود نبأ السماء

العظيم ـ القرآن الكريم ـ وبكونها أمة الرسالة الخاتمة، والشريعة الخالدة.. وبارتباط تجددها الحضارى بالدين المطلق والخالد.. وبجعل الله، سبحانه وتعالى، هذه الأمة شاهدة وشهيدة على العالمين.. وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧].

* * *

أما الحقيقة الثالثة: من حقائق الإجابة على هذا السؤال:

- هل نحن أمام قرن أمريكا؟.. أم أمام قرن الإسلام؟؟..

فإنها تقول: إن هذا السؤال خاطىء من الأساس!..

ذلك أن الإسلام ـ وهو يرفض الهيمنة الأمريكية.. وكل هيمنة استعمارية أو حضارية ـ لا يقدم نفسه بديلاً للآخرين، ولا يسعى كى يحل محل الآخرين.. فالرؤية الكونية للإسلام ترى العالم «منتدى حضارات»، تتفاعل فيما هو مشترك إنسانى عام، وتتمايز فى خصوصياتها العقدية والقيمية والثقافية.. ولا تريد ـ هذه الرؤية الإسلامية ـ العالم حضارة واحدة، حتى ولو كانت هذه الحضارة هى حضارة الإسلام. ففلسفة الرؤية الإسلامية للكون: أن الواحدية والأحدية هى فقط للذات الإلهية، ومن عدا الذات الإلهية، وكل ما عداها ـ فى كل عوالم المخلوقات ـ يقوم على التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف.. فى الأمم والشعوب.. وفى الشرائع والملل.. وفى المناهج والثقافات والحضارات.. وفى الألوان والأجناس.. وفى الألسنة واللغات والقوميات.. وكما رفض الإسلام أن تكون الشيوعية الغربية هى البديل للرأسمالية الغربية، فهو يرفض أن تكون الهيمنة الأمريكية هى الوارثة للثنائية القطبية.. ويريد العالم «منتدى حضارات»، تعيش فيه وتزدهر كل الحضارات..

إن الإجماع الإسلامى منعقد على رفض الهيمنة الأمريكية على العالم.. وعلى رفض إحلال «الأمركة» محل النماذج الحضارية غير الأمريكية والغربية..

ومع هذا الرفض، وعلى ذات مستواه، فإن الرؤية الإسلامية، التى تجعل التعددية سنة كونية لا تبديل لها ولا تحويل، ترفض كذلك أن يكون النموذج الحضارى الإسلامى بديلاً لحضارات الآخرين..

يريد الإسلام العالم «منتدى حضارات»، تزكى التعددية الحضارية فيه التدافع والتنافس والتسابق بين الحضارات.. إذ لا تنافس ولا تسابق ولا تدافع بدون تعدد وتمايز واختلاف.. ولا إصلاح ولا صلاح بدون هذا التدافع والتسابق بين الثقافات والحضارات ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وفى ظل عالم متعدد الحضارات والثقافات، يريد الإسلام أن تقوم العلاقات بين هذه الحضارات وأممها على توازن قطبى «الاشتراك» و«التمايز» معًا.. وفى إطار يعتمد «توازن المصالح» لا «توازن القوى»..

وبهذه الرؤية الإسلامية المتميزة ـ تميُّز الإسلام ـ فإن الإسلام يريد القرن الواحد والعشرين: قرن النموذج الأمريكى لأمريكا.. وقرن النموذج الصينى للصين.. وقرن النموذج الهندى للهند.. وقرن النموذج اليابانى لليابان.. كما يريده قرن النموذج الإسلامى فى داخل عالم الإسلام.. وذلك حتى تتسابق الحضارات العالمية فى ميادين التفاعل لا التقاتل.. والتعايش لا التناحر.. والتعارف لا التخاصم.. والتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

إننا عندما نقول: إن هذا القرن هو قرن الإسلام فى العالم الإسلامى، لا نطلب أكثر من أن يفتح التفاعل الحضارى أبواب استفادة الآخرين مما نراه امتيازًا للنموذج الإسلامى.. كما نريد ـ فى ذات الوقت ـ أن يفتح هذا التفاعل الحضارى الأبواب أمامنا نحن المسلمين للاستفادة من مميزات النماذج الحضارية الأخرى.. فالحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق الناس بها.. والحكمة ـ فى المصطلح الإسلامى ـ هى «الإصابة فى غير نبوة».. وهى «لطف» إلهى، لم يحرم الله فردًا ولا أمة ولا حضارة من نعمتها، على امتداد التاريخ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.. فلدى كل حضارة ما تعطيه للآخرين، وما يفيد الآخرين..

تلك هى حقيقة الإجابة على السؤال المطروح بإلحاح على الساحة العالمية، مع مطلع هذا القرن الواحد والعشرين:

■ هذا القرن، هو قرن أمريكا؟.. أم قرن الإسلام؟؟..

ولذلك، فإن الاجتهادات الإسلامية التى تعمل على بلورة معالم المشروع الحضارى الإسلامى، والتى تحاول تقديم إجابات إسلامية لأسئلة هذا القرن الواحد والعشرين، إنما تعمل على تقديم إجابات إسلامية للنهضة الإسلامية فى العالم الإسلامى، ولا تقدم بديلاً إسلاميًا للحضارات غير الإسلامية.. فنحن نريد إقامة النموذج الإسلامى فى عالم الإسلام، وبعد ذلك فلينظر فيه من يريد، وليستفد منه من يريد..

إننا نجتهد لنقدم معالم مشروع ثقافى وحضارى للعقل المسلم أولا، ولإنهاض العالم الإسلامى بالدرجة الأولى.. ثم نقول ـ بعد ذلك ـ للآخرين: هذا هو إسلامنا، الذى به نؤمن، وإليه ننتمى، وفى سبيل سيادته ببلادنا نجاهد.. والذى لا نكره عليه أحدًا.. فقرآننا الكريم يعلمنا أنه ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة:٢٥٦].. كما يعلمنا أنه لا إكراه ـ بل ولا واحدية ـ فى المناهج والشرائع والثقافات والحضارات؛ لأن التعددية فيها سنة إلهية كونية، لا تبديل لها ولا تحويل.. وليست مجرد حق من حقوق الإنسان.. ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة:٤٤].

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة:٤٧].

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة:٤٨].

أما ظهور الإسلام على الدين كله.. وهو ما نؤمن به انطلاقًا من قرآننا الكريم، وانطلاقًا من الواقع الذى جعل لهذا الدين جاذبيته المشهودة، حتى مع استضعاف أهله.. ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٣].. ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح:٢٨].. فهو ظهور الحلول الإسلامية والنماذج

الإسلامية، فى عالم الإسلام أولا، ثم تأثيراتها وإشعاعاتها التلقائية.. بامتياز النموذج والقدوة، فى إطار التفاعل الحضارى لدى الآخرين..

فمعركة الإسلام الكبرى، فى هذا القرن الواحد والعشرين، هى:

١ ـ إزالة طاغوت الهيمنة الأمريكية.. وأية طواغيت لأية هيمنة استعمارية أخرى.

٢ ـ وبعث الحضارة الإسلامية، كمنهاج شامل فى التقدم والنهوض، وذلك ببلورة معالمها وسماتها وقسماتها..

٣ ـ ثم إقامة هذه المعالم الحضارية فى أرض الواقع والممارسة والتطبيق بعالم الإسلام.. وتلك مهمة كل فصائل اليقظة الإسلامية ـ فى هذا القرن الواحد والعشرين ـ..

وذلك حتى نقول للعالم أجمع: هذا هو إسلامنا.. وهذه هى حضارتنا الإسلامية.. وذلك هو إسهامنا المتميز فى ميدان التسابق على طريق الخير والتقدم والتحضر والنهوض نحو عصر أكثر إشراقًا وأخف قيودًا من عصور الهيمنة والقهر والاستعمار والاستغلال..

فمهمة الإسلام هى الإحياء والتحرير والتكريم لكل بنى آدم، من مختلف الأمم والقوميات والحضارات والديانات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].. ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

تلك هى رسالة الإسلام للعالم.. وللعالمين.. وهذه هى مهمة اليقظة الإسلامية فى هذا القرن الواحد والعشرين..

***

صورة الإسلام فى التراث الغربى

بعض الناس يختـزل - ومن ثم يسطّح ويزيّف - موقف الغرب من الإسـلام، وذلك عندما يرده إلى خوف الغرب من ظاهرة «التشدد والعنف»، اللذين تمارسهما بعض الجمـاعات باسم الإسلام.. أو إلى وجود بعض الـنظم المستبدة التى تسـتر الاستبداد بشعارات ورموز الإسلام..

لكن أصـحاب هـذه النظرة يتجـاهلون - ولا أقـول يجـهلون - أن هذا الموقف العدائى لدى كـثير من مـؤسسات الفكر والدين والسـياسة فى العـالم الغربى، هو موقف قديم.. وسابق بقرون كثـيرة على ظاهرة العنف ونظم الاستبداد التى ترفع شعارات الإسلام.

● فالقائد والكاتب الإنجليزى «جلـوب باشا» - الذى ظل قائداً للجيش الأردنى حتى سنة ١٩٥٦م - والذى كتب عن الفتوحات العربية، قد كشف عن كبد الحقيقة عندمـا أرجع تاريخ مشكلة الغـرب مع الإسـلام إلى ذات اللحظة التى ظهر فـيهـا الإسلام، فـقال: «إن تاريخ مـشكلة الشرق الأوسط إنما يـعود إلى القرن الـسـابع للميلاد»!

وهى عبارة جديرة بإيقاظ الجاهلين وردع المتجاهلين.

● وأكـبر وأخطر مـؤتمرات الكنائس الغـربيـة، الذى انعـقد فى «كـولورادو» - بأمريكا - سـنة ١٩٧٨م، لتنصير المسلـمين، قد أرجع هذا العـداء الغربى المحـموم للإسلام، إلى ما رآه «الطبيعة الإسلامية المناقضـة للنصرانية» - كما فهمتها الكنائس الغربية - فقالت مـقررات هذا المؤتمر: «إن الإسلام هو الدين الوحيد الذى تناقض مصـادره الأصلية أسس النصرانيـة.. وإن النظام الإسلامى هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتمـاعيًا وسياسيًا.. إنه حركة دينية معـادية للنصرانية، مخططة تخطيطًا يفوق قدرة البـشر.. ولابد من مئات المراكز، التى تؤسـس حول العالم، بواسطة

النصارى، للتركيز على الإسلام، لفهمه، والتعامل معه، واختراقه فى صدق ودهاء»!

● ونفس الموقف الذى يتخذه قساوسة التنصير من الإسلام، نجده لدى دوائر الفكر الاستراتيجى الغربى من العلمانيين؛ هذه الدوائر التى قدمت حيثيات إعلانها أن الإسلام هو العدو، الذى حل محل «إمبراطورية الشر الشيوعية»، والذى تتوجه إليه وإلى عالمه وأمته قوة حلف شمالى الأطلنطى وآلته الحربية، عندما يتجاوز هذا الحلف نطاق «الأرض المشتركة» لأعضائه، إلى ما يسمى «المصالح المشتركة» لهؤلاء الأعضاء!.. فإذا بهذه الحيثيات ـ حيثيات العداء الغربى للإسلام ـ نابعة ـ برأيهم ـ من طبيعة الإسلام، التى استعصت وتستعصى على «العلمنة»، أى على الذوبان فى النموذج الحضارى الغربى، والتبعية للمركزية الحضارية الغربية.. ولقد عبرت مجلة «شئون دولية» ـ البريطانية ـ يناير سنة ١٩٩١م ـ عن هذه الحيثيات عندما قالت: «لقد شعر الكثيرون فى الغرب بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل التهديد السوفييتى.. ولقد كان الإسلام جاهزًا فى المتناول!.. فالإسلام مقاوم للعلمنة، وسيطرته على المؤمنين به قوية، وهى أقوى الآن مما كانت قبل مائة سنة مضت، ولذلك فهو ـ من بين ثقافات الجنوب ـ الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة، ليس لسبب سوى أنه الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحدٍّ فعلى وحقيقى للمجتمعات الغربية».

● والمفكر الاستراتيجى الأمريكى ـ الرئيس الأسبق ريتشارد نيكسون ـ يذكر ـ فى كتابه «الفرصة السانحة» أن العداء للمسلمين هو الأمر الأكثر شيوعًا، والأسوأ صورة لدى جمهور الأمريكيين «فكثير من الأمريكيين يتصورون أن المسلمين هم شعوب غير متحضرة، ودمويون، وغير منطقيين، ويعتقدون أن سيوف محمد وأتباعه هى السبب فى انتشار الدين الإسلامى فى آسيا وأفريقيا؛ وحتى أوروبا.. ولذلك، فإن الكثيرين من الأمريكيين قد أصبحوا ينظرون إلى كل المسلمين كأعداء.. وليس هناك صورة أسوأ، فى ذهن وضمير المواطن الأمريكى، من صورة العالم الإسلامى»[1]!

وهكذا.. فعداء المشروع الغربى للإسلام ـ وهو موقف معلن من كثيرين فى

دوائر ومؤسسات صنع القرار، وليس وهما صنعته «ذهنية المؤامرة» ـ إنما يمثل مشكلة أسبق وأعمق من الوقائع الطارئة والآنية، التى أثمرتها حركات العنف والتشدد باسم الإسلام.. أو نظم الاستبداد العربية والإسلامية المعادية لحقوق الإنسان.. أو حتى الاحتكاك العنيف ـ فى العصر الحديث ـ بين الاستعمار الغربى وعالم الإسلام.

إننا أمام موقف غربى قديم.. متجذر فى الذهنية الغربية.. ومتجسد وشائع فى الثقافة الغربية ـ الدينية، والأدبية، والتاريخية، والسياسية.. وحتى فى «الفلكلور» ـ ولهذا الموقف أبعاده الاقتصادية والعسكرية أيضًا.

إنهم يعودون به أولاً إلى ظهور الإسلام، وانتشاره الذى دخلت به شعوب نصرانية فى دين الإسلام. وإلى الفتوحات الإسلامية، التى حررت الشرق من الاستعمار الغربى «الإغريقى ـ الرومانى» الذى دام عشرة قرون ـ من الإسكندر الأكبر (٣٥٦ ـ ٣٢٤ق.م) وحتى هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١م) ـ وإلى الفروسية الإسلامية التى اقتلعت الاستعمار الاستيطانى الصليبى، الذى دام قرنين من الزمان (٤٨٩ ـ ٦٩٠هـ ١٠٩٦ ـ ١٢٩١م).. وإلى حركة التحرر الوطنى العربية التى جعلت الشمس تغرب عن الإمبراطوريات الاستعمارية الغربية.. وأخيرًا إلى خوف الغرب من اليقظة الإسلامية المعاصرة، التى تسعى لتحرير ثروات العالم الإسلامى من قبضة الاستغلال الغربى.. وإلى الاستقلال الحضارى، والتكامل السياسى لعالم الإسلام.. تلك هى أبعاد وأعماق الموقف الغربى من الإسلام.

* * *

وإذا كان من العبث ـ بل والغباء ـ أن نتوهم أن الغرب، فى موقفه من الإسلام، إنما يمثل كتلة واحدة صماء، وأن نغفل عن أن فى الغرب علماء ومفكرين وتيارات فكرية وسياسية، بل ومؤسسات، تحاول أن تتفهم الإسلام، وأن تتخذ مواقف منصفة من قضايا المسلمين.. فإن البحث فى كتابات هؤلاء العلماء والمفكرين، عن الخلفيات الفكرية لموقف الغرب من الإسلام هو واحد من مهام جهود الاستنارة الفكرية، التى لابد أن ينهض بها العقل العربى والمسلم فى واقعنا الفكرى الراهن.

فحتى نفهم أبعاد الموقف الغربى من الإسلام والمسلمين.. وخلفيات «الصورة» التى «صنعها» الغرب لعالم الإسلام.. وحتى نفكر فى العلاج المكافئ والمناسب لهذه «العلة المتجذرة» فى الثقافة الغربية والضمير الغربى.. وحتى نبرأ من داء السطحية والاختزال والتزييف.. فإننا نحتاج إلى «شهادات غربية» تضع يدنا على «جذور» هذه «العلة»، التى نجد أعراضها الآن شائعة على مختلف الصعد والميادين والمستويات ـ من قرارات المؤسسات «الدولية»، الواقعة فى قبضة الهيمنة الغربية.. إلى دعاوى التهديد الإسلامى لحضارة الغرب.. وحتى الدراسات الاستراتيجية الرصينة عن «صدام الحضارات» و«نهاية التاريخ».. وذلك فضلاً عن صورة الإسلام وأمته وعالمه فى مختلف وسائل الإعلام الغربى.

وإذا كان المقام لا يسمح بالإطالة فى إيراد نماذج من هذه «الشهادات الغربية» على جذور وشيوع هذا العداء الغربى للإسلام والمسلمين.. فإننا نقف أمام دراستين ألمانيتين، كتبهما «هوبرت هيركومر» و«جيرنوت روتز» وهما من خيرة المفكرين الألمان المعاصرين.

● فبدلاً من أن ينظر الغرب إلى الإسلام كدين سماوى.. وإلى القرآن كوحى إلهى.. وإلى محمد ﷺ، كخاتم للأنبياء والمرسلين، مصدق لما بين يديه من النبوات والرسالات السابقة، وبدلاً من النظر إلى الفتوحات الإسلامية باعتبارها تحريراً للشرق وشعوبه من الاستعمار «الإغريقى ـ الرومانى» والغزو الفكرى الهلينى ـ اللذين استمرا فى سحق الشرق وشعوبه عشرة قرون ـ من القرن الرابع قبل الميلاد وحتى القرن السابع الميلادى ـ بدلاً من ذلك رأى الأوروبيون ـ وعامة الغربيين ـ فى هذه الفتوحات الإسلامية عدواناً اقتطع الشرق من عالم المسيحية وكنيستها، قامت به طائفة ملحدة مهرطقة تزعمها رسول الإسلام!!.. وبعبارة هذه الدراسات الألمانية: «فلقد ادعى الأوروبيون أن محمداً ﷺ كان فى الأصل كاردينالاً كاثوليكيًا، تجاهلته الكنيسة فى انتخابات البابا، فقام بتأسيس طائفة ملحدة فى الشرق انتقامًا من الكنيسة. واعتبرت أوروبا المسيحية، فى القرون الوسطى، محمداً ﷺ المرتد الأكبر عن المسيحية، الذى يتحمل وزر انقسام نصف البشرية عن الديانة المسيحية!».

فهذه الشهـادة الألمانية، هى التى تفسر لنا «الشهـادة الإنجليزية» ـ لجلوب باشا ـ عن أن مشكلة الغرب مع الإسلام إنما تعود إلى القرن السابع للميلاد.. وليس إلى ظهور جماعـات العنف والغلو الإسلامـية أو الاستعمـار الغربى الحديـث لعالم الإسـلام.. بل ولا حتى الحـروب الصليبيـة.. فالجـذور أكثر إيغـالا فى بطون التاريخ!

● وإذا كان ريتشارد نيكسون قد أعلن «أنـه ليست هناك صورة فى ذهن وضمير المواطن الأمريكى أسوأ من صورة العالم الإسلامى». فإن «صناعة هذه الصورة» ـ فى الثقافة الغربية والضمير الغـربى ـ سابقة على قيام إسرائيل.. وحقبة النفط.. وتيارات العنف الإسلامى.. فـ «الشهـادات الألمانية» تحدثنا عن أن «الإفرنج ـ منذ الحروب الصليبية ـ أى قبل نحو ألف عام ـ كانوا يطلقـون على العرب والمسلمين صفات «الجنس الحيوانى الحـقير.. والكلاب الخنازير»!!.. وهى الصفات التى لا تزال شائعة فى صحافة الغرب المعاصر، وفى أفلام هوليوود!.

● وهذه «الصـورة الزائفـة والبشـعـة» ـ للإسلام والمسلمـين ـ لم تقف عند تصـورات العـامـة والدهمـاء وإنما شملت الخاصـة والنخبـة ـ من رجـال الدين والفلاسفة والشعراء ـ بل إنهم هم الذين صنعوا هذه الصورة، لتتـحول بعد ذلك إلى ثقافة شعبية مسيطرة على تصورات الجماهير.

● فـمارتن لوثر (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦م) زعـيم الإصـلاح الدينى، ورأس الكنيسـة البروتستانتية.. هو الذى تحدث عن القرآن الكريم فقال: «أى كتاب بغيض وفظيع وملعون هذا القرآن، الملىء بالأكاذيب والخـرافات والفظائع»!!.. قال ذلك، بعد أن قرأ ترجمة معانى القرآن، الذى تحدث عـن التوراة والإنجيل فأقر بأن فيها هدًى ونورًا!..

كذلك تحدث مـارتن لوثر عن نبى الإسلام ﷺ فوصفـه بأنه «خادم العاهرات، وصائد المومسات»!!.. رغم ما عرفه ـ من القـرآن ـ عن صفات التعظيم والعصمة التى جاءت بآيـاته عن عيسى وأمـه وموسى وأخيه، وكل الأنبياء والرسـل، عليهم السلام!

فلقد كان مارتن لوثر «صانع صورة» من الأكاذيب الغريبة؛ يهدف من ورائها شحن العامة بالأحقاد ليتحولوا إلى وحوش فى حربهم ضد الأتراك المسلمين.. ومن أجل ذلك قال فى إحدى «مواعظه»: «أرى أن القساوسة عليهم أن يخطبوا الآن أمام الشعب عن فظائع محمد، حتى يزداد المسيحيون عداوة له، وأيضًا ليقوى إيمانهم بالمسيحية، ولتتضاعف جسارتهم وبسالتهم فى الحرب، ويضحوا بأموالهم وأنفسهم!!».

● ولم يكن حال الكاثوليكية بأفضل من حال البروتستانتية فى صناعة هذه الصورة العجيبة فى أكاذيبها عن الإسلام والمسلمين.. فالقديس «توما الأكوينى» (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤م) أعظم فلاسفة المسيحية ـ الذى استفاد من الفلسفة الإسلامية ـ لم تهذب هذه الفلسفة من بغضه للإسلام ولنبى الإسلام ـ عليه الصلاة والسلام ـ فزعم ـ فى كتابه (الشامل فى الرد على الكفرة) أن «محمدًا قد أغوى الشعوب من خلال وعوده لها بالمتع الشهوانية.. وأنه قد حرّف جميع الأدلة الواردة فى التوراة والإنجيل من خلال الأساطير والخرفات التى كان يتلوها على أصحابه.. ولم يؤمن برسالته إلا المتوحشون من البشر الذين كانوا يعيشون فى البادية»!!

● أما الشاعر الألمانى «جوته» (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢م) ـ الذى هام بالشرق والشرقيين هيامًا رومانسيا ـ فإن نبى الإسلام ﷺ لم يسلم من أكاذيبه وأحقاده، فزعم أنه «قد نصب حول العرب غلافًا دنيئًا كئيبًا، وعرف كيف يحجب عنهم الأمل فى أى تقدم حقيقى»!!

● وكذلك صنع «دانتى» (١٢٦٥ ـ١٣٢١م) ـ الشاعر الإيطالى ـ عندما وضع رسول الإسلام ﷺ وعلى بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ بالحفرة التاسعة فى ثامن حلقة من حلقات جهنم؛ لأنهم فى نظره «أهل شجار وشقاق، ولذلك قطعت أجسامهم وشوهت أجسادهم هنا فى دار السعير»!!

كل ذلك.. وأكثر من ذلك، صنعته أجيال من النخب الأوروبية بصورة الإسلام والمسلمين.. حتى لقد تحولت هذه الصورة البالغة قمة الشذوذ الكاذب والكذب الشاذ إلى ثقافة شعبية أوروبية تحكيها وترددها وترسخها «الملاحم» و«الأساطير» فى وجدان العامة والجماهير.

● فغير «الكوميديا الإلهية» لدانتي ذهبت «ملحمة رولاند» حوالى سنة ١١٠٠م إلى إسقاط شرك التثليث النصرانى على عقيدة التوحيد الإسلامية، فزعمت أن المسلمين يعبدون ثالوث أصنام: أبوللين APOLLIN وتير فاجانت TERVAGANT ومحمد MAHAMET وأن المسلمين يعظمون يوم الجمعة؛ لأنه يوم إلهة الحب فينوس!.. بينما يعظم النصارى يوم الأحد؛ لأنه يوم الله!.. وذلك لتصل إلى المقاصد من «صنع هذه الصورة الزائفة» وهى شحن وجدان العامة بالحقد الذى يدفعها إلى إقامة المجازر والمذابح للمسلمين.. ففى هذه «الملحمة» ينادى الإمبراطور «كارل الأكبر» ـ «شارل مارتل» جنوده، كى يذبحوا المسلمين، فيقول: «انظروا إلى هذا الشعب الملعون! إنه شعب ملحد، لا علاقة له بالله، سوف يمحى اسمهم من فوق الأرض الزاخرة بالحياة؛ لأنهم يعبدون الأصنام. لا يمكن أن يكون لهم خلاص، لقد حُكم عليهم. فلنبدأ إذن تنفيذ الحكم: باسم الله» ثم تبدأ المذبحة[٣]!!

تلك هى صورة الإسلام فى التراث الغربى ـ كما عرضتها هذه الدراسات الألمانية ـ والتى تمثل الجذور لصورة الإسلام المعاصرة فى الإعلام الغربى.. وهى التى يتجاهلها ـ ولا نقول يجهلها ـ مثقفونا الذين يتصورون أن حل هذه المشكلة لا يتطلب أكثر من «تجميل الإسلام» ليكون مقبولاً من العقل الغربى، وإدارة معركة «علاقات عامة» ناجحة تسوّق هذا الإسلام الملائم لتفكير الغربيين!!

ولهؤلاء نقول: إن الغرب لن يغير من تصوره لنا وصورته عنا إلا إذا غيرنا نحن من وضعنا وثقلنا فى موازنات القوى والمصالح والإرادات الدولية.. وعندما نكون فى «الوضع المحترم»، سيضطر الغرب ـ نخبا وجماهير ـ إلى تغيير تصوراته عنا.. وتلك هى تجربة الغرب مع اليابان والصين.. وكذلك تجربته مع صلاح الدين الأيوبى (٥٣٢ ـ ٥٨٩هـ ١١٣٧ ـ ١١٩٣م) فلقد أصبح ـ فى الثقافة الغربية ـ نموذج «البطل ـ الإنسانى ـ النبيل»؛ لأنه قد أصبح ـ قبل ذلك ـ البطل الإنسانى النبيل فى ميادين التدافع والصراع.. وصدق الله العظيم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

* * *

- **الهوامش**

(١) انظر كتابنا (الغارة الجديدة على الإسلام) ص٨٥، ٢٩، ٣٤، ٣٥ طبعة القاهرة ـ دار الرشاد سنة ١٩٥٨م

(٢) انظر في هذه الوقائع والنصوص: هوبرت هيركومبر، وجيرنوت روتر (صورة الإسلام في التراث الغربي) ترجمة ثابت عيد، وتقديم: د. محمد عمارة ص١٨، ٢١، ٢٣، ٢٤، ٤٣ طبعة القاهرة دار نهضة مصر سنة ١٩٩٩م.

* * *

منهجية التنوير الغربى
وتجديد العلوم الإسلامية

لقد كانت ثورة التنوير الغربى ـ بسبب من فلسفتها الوضعية والمادية ـ وبالاً على اللاهوت الكنسى النصرانى، وعلى الثقافة الغربية عموماً. فالفلسفة الوضعية لهذا التنوير الغربى قد «أنسنت» الدين وأصوله، ففرغته من محتواه الجوهرى والحقيقى ـ أى من «الدينية» ـ ووقفت بنطاق «العلم» عند حقائق «الكون» لا «الغيب وما وراء الطبيعة».. ورأت الدين طوراً مرحلياً ناسب طفولة العقل البشرى، تلته ونسخته مرحلة «الميتافيزيقا»، التى تلتها ونسختها المرحلة «الوضعية».

كذلك، جعلت ثورة التنوير الوضعى هذه الإنسان «طبيعيّا»، إن لم يكن حيوانيًا؛ لا «ربانيًا» نفخ الله فيه من روحه.. ثم نزعت القداسة عن الدنيا والحياة والدولة والثقافة والاجتماع، عندما جعلت الإنسان «سيد الكون» بدلاً من أن يكون «خليفة لسيد الكون»، وبذلك عزلت هذه الفلسفة التنويرية السماء عن الأرض، وانفلتت بالإنسان من رعاية الله.

ولذلك، كانت تأثيرات هذا التنوير الوضعى الغربى ـ التى جاءت إلى عالم الإسلام فى ركاب الغزوة الاستعمارية الحديثة ـ تأثيرات سلبية، أرادت أن تصنع مع العلوم الإسلامية وأصول الدين الإسلامى ما صنعه التنوير الغربى مع اللاهوت الكنسى النصرانى، وأن تصنع مع ثقافتنا الإسلامية ودولتنا وعلومنا الاجتماعية والإنسانية ما سبق وصنعه هذا التنوير الغربى مع الحياة والعلوم والثقافة فى أوروبا منذ عصر نهضتها.. فتخلّقت لدينا مشكلات «مستوردة ومفتعلة» بين «العقل» وبين «النقل»، بين «الدين» وبين «العلم»، بين «الدولة» وبين «الدين»، بين «الوطنية» وبين «القومية» و«الجامعة الإسلامية».. إلخ.. إلخ.

لذلك، فإن تبنى فلسفة التنوير الغربى - الوضعى العلمانى - وخاصة فى دراسات العلوم الإسلامية وأصول الدين الإسلامى، هو كارثة محققة، تتجاهل التميز الحضارى الإسلامى، الذى قام فيه علم التوحيد الإسلامى ليستدل على عالم الغيب بالعلم الكونى فى عالم الشهادة، بينما النموذج الغربى يحل العلم الكونى فى عالم الشهادة محل العلم الإلهى بعالم الغيب، ملغيًا إياه.

كما أن تبنى هذه الفلسفة التنويرية الوضعية الغربية يتجاهل قيام علم أصول الدين الإسلامى على ساقى «العقل» و«النقل»؛ لأن «عقلانيتنا الإسلامية» فريضة إلهية وتكليف شرعى جاء بها «النقل الإسلامى».. فنحن نقرأ النقل بالعقل، ثم نعود فنحكم العقل بالنقل.. أى نحكم «النسبى» «بالمطلق والكلى والمحيط».. والمقابل للعقل عندنا ليس النقل، وإنما هو «الجنون».. والمعجز عندنا - القرآن الكريم - ليس خارقًا للعقل، وإنما هو خارق «للعادة».. والعقل هو الحاكم والقاضى فى فهم هذا النقل، وفى تمييز محكمه عن متشابهه.. كما أنه هو مناط التكليف بإقامة الدين.. وهو الطريق إلى معرفة لب الدين والتدين، أى الله سبحانه وتعالى. لأن صدق «النقل» مترتب على صدق «الرسول» الذى جاء بهذا «النقل»، وصدق «الرسول» مترتب على وجود الله الذى أرسل هذا الرسول، فلابد من الإيمان أولاً، وبالعقل، بوجود الله، سبحانه وتعالى، ليأتى - بعد ذلك - التصديق بالرسول وبما جاء به من كتاب.

فالحذر الشديد من تأثيرات فلسفة التنوير الغربى على تجديدنا الفكرى - ومنه التجديد لعلم الكلام وأصول الدين - هو شرط بقاء هذا العلم، وبقاء أصول الدين، وبقاء هويتنا الحضارية والثقافية بعيدة عن المسخ والنسخ والتشويه..

* * *

ولذلك فأنا مع أغلب الاعتراضات التى يسجلها المناهضون لاستخدام فلسفة العلم الغربى.. وللتأويل بمعناه الغربى - السيمياء والهرمنيوطيقا الغربية - ولتاريخية النصوص الدينية - كما صاغتها المناهج المعرفية الغربية.

أنا مع الاعتراض الشديد على استخدام هذه الآليات والمنهجيات الغربية فى تجديد العلوم الإسلامية، وخاصة علم أصول الدين، وذلك انطلاقًا من أن هذا

الاستخدام وهذه الاستعارة يتجاهلان حقيقة الخصوصيات الحضارية والثقافية فى المعارف الإنسانية والمنهجيات البحثية. الأمر الذى يتجاوز نطاق «التفاعل الحضارى»، وهو مطلوب؛ ليدخل فى نطاق «التبعية والتقليد».. وذلك فضلا عن تجاهل الفروق - فى الفكر - بين ما هو «مشترك إنسانى عام» وبين ما هو «خصوصية حضارية وثقافية».. ولقد سبق وكرّستُ لهذه القضية العديد من الدراسات والكتب - منها، على سبيل المثال (الغزو الفكرى وهم أم حقيقة؟) و(الاستقلال الحضارى).

ولإيضاح هذا الموقف أقول:

● إن فلسفة العلم الغربى - وخاصة تلك التى سادت فى القرن التاسع عشر - هى فلسفة وضعية مادية، ترى أن الواقع المادى هو المصدر الوحيد للعلم والمعرفة.. وترى العقل والحواس هى السبل الوحيدة لتحصيل العلم والمعرفة.. بينما الفلسفة الإسلامية فى نظرية المعرفة ترى فى عالم الغيب ونبأ السماء مصدرًا للمعرفة، يزامل عالم الشهادة والآيات الكونية المبثوثة فى الأنفس والآفاق.. فلله، سبحانه وتعالى، كتابان للهداية والعلم والمعرفة، أحدهما مسطور والثانى منظور.. وهذه الفلسفة الإسلامية، بعد تميزها فى «مصادر المعرفة» تتميز أيضًا فى «سبل المعرفة»، فلا تقف بها عند العقل والحواس، وإنما تراها - بتعبير الإمام محمد عبده (١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) - «هدايات أربع»، هى: العقل.. والنقل.. والتجربة.. والوجدان.. تتكامل وتتعاون على إنتاج معرفة متكاملة ومتوازنة للإنسان.

وإذا كان الغرب - منذ نسبية «أينشتين» (١٨٧٩ - ١٩٥٥م) - قد أخذ يراجع نظريته المادية فى المعرفة، ويتراجع عن الفلسفة المادية للعلم[1].. إذا كان هذا هو حال الغرب مع الفلسفة المادية للعلم والمعرفة، فغير متصور ولا معقول أن يكون لهذه الفلسفة المادية للعلم مكان عندنا فى عالم الفكر الإسلامى، وخاصة فى تجديد علوم الدين!

● ونفس الموقف مع «التأويل الغربى» للنصوص الدينية.. فلقد تعامل هذا التأويل مع النص الدينى اليهودى والنصرانى انطلاقًا من الفلسفة المادية والوضعية -

وهى مرفوضة إسلاميًا ـ كما تعامل هذا التأويل مع نصوص محرفة ولا عقلانية فى كثير من مقولاتها، ومن ثم فهو غير صالح ليكون أداة التعامل مع النص الإسلامى، القطعى الثبوت، والذى إن جاء بما يعلو على العقل ـ نسبى الإدراك ـ فهو لا يأتى بما يناقض العقل أبدًا..

ولهذه الحقيقة من حقائق التميز للمنهجية الإسلامية، كان للتأويل الإسلامى ـ الذى هو «إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية من غير أن يخل ذلك بعادة لسان العرب فى التجوز»[2] ـ ضوابط تميزه عن التأويل الغربى.. صاغها على نحو دقيق وعبقرى حجة الإسلام أبو حامد الغزالى (٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ ١٠٥٨ ـ ١١١١م) فى كتابه المنهجى [فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة] عندما تحدث عن «مراتب الوجود الخمسة: الوجود الذاتى.. والوجود الحسى.. والوجود الخيالى.. والوجود العقلى.. والوجود الشبهى»[3].. ولقد تبعه فى ذلك ابن رشد (٥٢٠ ـ ٥٩٥هـ ١١٢٦ ـ ١١٩٨م) فى كتابه [فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال].

وإذا كان التأويل الغربى ـ الوضعى والمادى ـ قد أوّل النص الدينى بإطلاق، فإن التأويل العربى الإسلامى قد وضع نطاقًا محددًا لما يمكن ويجوز فيه التأويل.. فللسان العرب شروط فيما يجوز فيه التأويل، ولهذا التأويل شروط تقصره على المجاز والمتشابه دون الحقائق والمحكمات.. فهو وارد فى مواطن «تسمية الشىء بشبيهه؛ أو بسببه، أو لاحقه، أو مقارنه، أو غير ذلك من الأشياء التى عُددت فى تعريف أصناف الكلام المجازى»[4].. وهو وارد عندما يقع التعارض القطعى بين ظاهر اللفظ وبين حقائق البرهان.. وكل ذلك مشروط ببقاء النصوص المحكمة، التى أحاطت بثوابت الإسلام وأصوله وبمقاصد الشريعة بعيدة عن أى تأويل.. وبعبارة ابن رشد «فلقد أجمع المسلمون على أنه ليس يجب أن تُحمل ألفاظ الشرع كلها على ظاهرها، ولا أن تُخرج كلها عن ظاهرها بالتأويل..»، بل لقد نبه ابن رشد على أن الشرع قد جعل مواطن التأويل متضمنة لإمكانية هذا التأويل «فما من منطوق به فى الشرع، مخالف بظاهره لما أدى إليه البرهان إلا إذا اعتُبر وتُصفّحت سائر أجزائه، وُجد فى ألفاظ الشرع ما يشهد بظاهره لذلك التأويل، أو يُقارب أن يشهد»[5].

أما التأويل الغربي، الذى أخرج كل النصوص الدينية من الحقيقة إلى المجاز، فإنه شبيه بتأويل غلاة الباطنية في تراثنا، أولئك الذين جعلوا لكل ظاهر باطنا، ولكل تنزيل تأويلاً.. بتعميم وإطلاق!

● ولأن معارف شرائع الرسالات السماوية التى سبقت الرسالة المحمدية وشريعتها الإسلامية كانت موقوتة - وليست خالدة وخاتمة - فإن «التاريخية والتاريخانية» واردة في هذه المعارف.. أما فى الشريعة الإسلامية الخاتمة - والخالدة - فإن «التاريخية» غير واردة بالنسبة للنص الإسلامى المقدس، خصوصًا وأن هذا النص قد وقف - فى التشريع - عند فلسفة التشريع وقواعده وكلياته، ولم ترد فيه تفاصيل التشريع ومتغيراته.. أى أنه جاء بالثوابت وترك المتغيرات للفقه - علم الفروع - المتجدد والمتطور دائمًا وأبدًا.. وذلك على عكس شرائع الرسالات الموقوتة السابقة، التى كانت تأتى بالتفاصيل، حتى إذا تجاوزها الواقع المتطور، غدت «تاريخية» وحلت محلها شريعة جديدة».

فاستعارة «تاريخية المعرفة» - كما صاغتها فلسفة التنوير الغربى - إنما تغفل عن هذه الفروق بين الشريعة الخاتمة - الخالدة - وبين الشرائع الموقوتة والمرحلية.. وتسوى بين الشريعة التى وقفت عند الأحكام الثوابت، وعند فلسفات التشريع وكلياته وقواعده ونظرياته - فكانت، لذلك «وضعا إلهيًا ثابتًا» - وتركت فقه الواقع المتطور للاجتهاد الفقهى الدائم أبدًا عبر الزمان والمكان.. تسوى - هذه الاستعارة «لتاريخية المعرفة» - بين الشريعة الإسلامية وبين الشرائع التى أتت بالأحكام التفصيلية للواقع المتغير، فلما تطور هذا الواقع قامت بينه وبينها فجوة أعجزتها عن ضبط حركة هذا الواقع وتحقيق مصالح الذين يعيشون فيه.

ولو أننا طبقنا «التاريخية» على الشريعة الخاتمة، وعلى أصول الدين: لأدى ذلك - كما حدث فى الفلسفة الوضعية والمادية واللا أدرية - إلى تجاوز الدين - عقيدة وشريعة وقيما - بتحويله إلى رموز، وفكر إنسانى، أو فى أفضل الحالات إلى «ميتافيزيقا».. وفى ذلك إزالة لكمال وختام حجة الله على عباده: دين الإسلام!

* * *

ويكفى أن نضرب مثلين على تطبيق التأويل ـ بمفاهيمه وآفاقه الغربية ـ على العقائد والشرائع والقيم التى جاء بها القرآن الكريم ـ فى المشروع الفكرى للدكتور نصر حامد أبو زيد.. والمشروع الفكرى للدكتور حسن حنفى ـ لنرى كيف انتهت بهما هذه الاستعارة إلى تفريغ الإسلام من محتواه، وتجريد الدين من الدين!

● فالدكتور نصر أبو زيد.. يقول عن القرآن ـ الذى يؤمن المسلمون بأنه نبأ السماء العظيم، والتنزيل من لدن الحكيم العليم: إنه نص بشرى.. ومُنْتَج ثقافى.. لا قداسة له! وها هى نصوص عباراته تقول عن القرآن الكريم:

«من الواقع تكوّن النص (القرآن) ومن لغته وثقافته صيغت مفاهيمه، فالواقع هو الذى أنتج النص.. الواقع أولاً، والواقع ثانيًا، والواقع أخيرًا».

لقد تشكل القرآن من خلال ثقافة شفاهية.. وهذه الثقافة هى الفاعل، والنص منفعل ومفعول.. فالنص القرآنى فى حقيقته وجوهره مُنْتَج ثقافى.. والمقصود بذلك أنه تشكل فى الواقع والثقافة خلال فترة تزيد على العشرين عامًا.. فهو ديالكتيك صاعد وليس ديالكتيكا هابطًا. والإيمان بوجود ميتافيزيقى سابق للنص يطمس هذه الحقيقة.. والفكر الرجعى فى تيار الثقافة العربية هو الذى يحوّل النص من نص لغوى إلى شىء له قداسته..

والنص القرآنى منظومة من مجموعة من النصوص، وهو يتشابه فى تركيبته تلك مع النص الشعرى، كما هو واضح من المعلقات الجاهلية مثلا، والفارق بين القرآن وبين المعلقة من هذه الزاوية المحددة يتمثل فى المدى الزمنى الذى استغرقه تكوّن النص القرآنى.. فهناك عناصر تشابه بين النص القرآنى ونص الثقافة عامة، وبينه وبين النص الشعرى بصفة خاصة.. وسياق مخاطبة النساء فى القرآن، المغاير لسياق مخاطبة الرجال، هو انحياز منه لنصوص الصعاليك..»[6]!

ويقول الدكتور نصر أبو زيد عن النبوة والوحى: إنهما ظواهر إنسانية، وثمرة «القوة المخيلة» الإنسانية، وليس فيهما إعجاز ولا مفارقة للواقع.. فالأنبياء مثل الشعراء والمتصوفة، مع فارق فى درجة قوة المخيلة، فقط لا غير.. يقول:

«إن الأنبياء والشعراء والعارفين قادرون دون غيرهم على استخدام فاعلية

«المخيلة» فى اليقظة والنوم على السواء.. ومن حيث قدرة «المخيلة» وفاعليتها، فالنبى يأتى على رأس قمة الترتيب، يليه الصوفى العارف، ثم يأتى الشاعر فى نهاية الترتيب.

وتفسير النبوة اعتماداً على مفهوم «الخيال» معناه أن ذلك الانتقال من عالم البشر إلى عالم الملائكة انتقال يتم من خلال فاعلية «المخيلة» الإنسانية، التى تكون فى «الأنبياء» أقوى منها عند من سواهم من البشر.. إنها حالة من حالات الفاعلية الخلاقة، فالنبوة، فى ظل هذا التصور، لا تكون ظاهرة فوقية مفارقة.. وهذا كله يؤكد أن ظاهرة الوحى ـ القرآن ـ لم تكن ظاهرة مفارقة للواقع، أو تمثل وثبا عليه وتجاوزاً لقوانينه، بل كانت جزءاً من مفاهيم الثقافة ونابعة من مواضعاتها..»(٧).

أما عقائد الإسلام، فلقد تأولها الدكتور نصر أبو زيد، فأصبحت «تصورات أسطورية».. وعنها قال:

«وما العقائد إلا تصورات مرتهنة بمستوى الوعى وبتطور مستوى المعرفة فى كل عصر.. وإن النصوص الدينية قد اعتمدت فى صياغة عقائدها على كثير من التصورات الأسطورية فى وعى الجماعة التى توجهت إليها النصوص الدينية بالخطاب..»(٨).

أما استعارة «تاريخية المعرفة» كما صاغها التنوير الغربى، وتطبيقها على معارف القرآن وحقائقه وأحكامه.

فإنها قد جعلت الدكتور نصر أبو زيد يحكم بالتاريخية على كل ما فى القرآن من عقائد وشرائع وقصص، ويجرد القرآن من أى معنى ثابت وجوهرى.. فالتاريخية قد تجاوزت ونسخت كل ما فيه.. وعن هذه «الكارثة» يقول:

«والقرآن خطاب تاريخى، لا يتضمن معنًى مفارقًا جوهريًا ثابتًا.. وليس ثمة عناصر جوهرية ثابتة فى النصوص.. فالقرآن قد تحول منذ لحظة نزوله من كونه (نصا إلهيا) وصار فهمًا (نصا إنسانيا)؛ لأنه تحول من التنزيل إلى التأويل.

وهذه التاريخية تنطبق على النصوص التشريعية، وعلى نصوص العقائد والقصص.. وهى تحرك دلالة النصوص وتنقلها فى الغالب من الحقيقة إلى المجاز..

وليس من المقبول أن يقف الاجتهاد عند حدود المدى الذى وقف عنده الوحى[9]..

وإذا قرأنا نصوص الأحكام ـ فى القرآن ـ من خلال التحليل العميق لبنية النصوص، فلربما قادتنا القراءة إلى إسقاط كثير من تلك الأحكام، بوصفها أحكامًا تاريخية، كانت تصف واقعًا أكثر مما تصنع تشريعًا..»[10].

هذه هى نماذج للثمرات «المرة.. والكارثية» التى نجمت عن «استعارة» مناهج التنوير الغربى فى التعامل مع النص الدينى، وتطبيق هذه المناهج على القرآن.. والنبوة والوحى.. وعقائد الإسلام وشرائعه وقيمه.. كما رأيناها فى المشروع الفكرى للدكتور نصر حامد أبو زيد.

● أما الدكتور حسن حنفى، فلقد أثمرت استعارته لفكرية التنوير الغربى ـ الوضعى والمادى ـ تجريد الإسلام من «الدين.. والدينية».. أى تفريغه من محتواه!.. لقد دعا إلى الاحتفاظ بمصطلحات علم أصول الدين ـ علم الكلام ـ كمجرد أوعية، مع وضع المضامين والمفاهيم الإنسانية فى هذه الأوعية ـ بدلاً من المضامين والمفاهيم الدينية ـ لتتم «أنسنة الدين» بتحويله أولا إلى «أيديولوچيا» ثم تحويل «الأيديولوچيا» إلى «فكر إنسانى بحت».

ولذلك، أصبح الله ـ فى المشروع الفكرى لحسن حنفى ـ هو «الأرض.. والخبز.. والحرية.. والعدل.. والعتاد.. والعدة.. وصرخات الألم.. وصيحات الفرح.. والكفاح المسلح».. فالله «تعبير أدبى أكثر منه وصفا لواقع، وتعبير إنشائى أكثر منه وصفا خبريا».. ولذلك، وجب ـ فى رأيه ـ التخلى عن ألفاظ ومصطلحات كثيرة فى علم أصول الدين ـ من مثل «الله» و«الرسول» و«الدين» و«الجنة» و«النار» و«الثواب» و«العقاب» لأنها قطعية، ولأنها تجاوز الحس والمشاهدة... ولأنها تشير إلى مقولات غير إنسانية».. «فما الله إلا وعى الإنسان بذاته.. وما صفاته وأسماؤه إلا آمال الإنسان وغايته التى يصبو إليها.. وكل صفات الله ـ العلم، والقدرة، والحياة، والسمع والبصر، والكلام، والإرادة ـ كلها صفات الإنسان الكامل.. وكل أسماء الله الحسنى تعنى آمال الإنسان وغاياته التى يصبو إليها.. فالحقيقة هى الإنسان، والواقع الذى يعيش فيه.. ولذلك، فتعبير الإنسان الكامل أكثر تعبيراً من لفظ الله..»[11]!!

«والتوحيد ليس توحيد الذات الإلهية، كما هو الحال فى علم الكلام الموروث، وإنما هو وحدة البشرية، ووحدة التاريخ، ووحدة الحقيقة، ووحدة الإنسان، ووحدة الجماعة، ووحدة الأسرة.. فالمهم هو إيجاد الدلالة المعاصرة للموضوع القديم، وتخليصه من شوائبه اللاهوتية.

فليس للعقائد صدق داخلى.. ولا يوجد دين فى ذاته.. والوحى هو البناء المثالى للعالم.. والمطلوب هو تحويل الوحى إلى أيديولوجية، وإلى علم إنسانى.. والعلمانية هى أساس الوحى، فالوحى علمانى فى جوهره، والدينية طارئة عليه من صنع التاريخ، تظهر فى لحظات تخلف المجتمعات وتوقفها عن التطور.. والتراث قضية وطنية لا دينية ومادة التراث نسقطها كلها من الحساب، ونستبدل بها مادة أخرى جديدة من واقعنا المعاصر.. والإلحاد هو التجديد، والتحول من القول إلى العمل، ومن النظر إلى السلوك، ومن الفكر إلى الواقع. إنه وعى بالحاضر..ودرء للأخطار.. بل هو المعنى الأصلى للإيمان.

والمطلوب هو الانتقال من العقل إلى الطبيعة، ومن الروح إلى المادة، ومن الله إلى العالم، ومن النفس إلى البدن، ومن وحدة العقيدة إلى وحدة السلوك.. ومن العقيدة إلى الثورة..»[١٢].

فهل هناك «كارثة فكرية» يمكن أن تبلغ مستوى «المأساة ـ الملهاة»، كتلك التى تمثلت فى «فكر» الدكتور نصر حامد أبو زيد وأستاذه الدكتور حسن حنفى، عندما استعارا وقلدا ـ حذو النعل بالنعل ـ منهجية التنوير الغربى ـ الوضعى المادى ـ فى التعامل مع النص الدينى ـ اللاهوتى النصرانى ـ استعاراه وطبقاه على القرآن الكريم، وعقائد وشرائع وقيم الإسلام؟!

إنه منزلق خطير.. بل إنه هو أخطر المنزلقات.

* * *

وإذا كان هذا هو مستوى «الكارثة» فى استعارة منهجيات التنوير الغربى للتعامل مع «النص الدينى».. فإن استعارة هذه المنهجيات لعلومنا الإنسانية فيه ضرر كبير.. فالعلوم الإنسانية داخلة فى نطاق «الخصوصيات الحضارية والثقافية» أكثر من دخولها فى «المشترك الإنسانى العالم».

وإذا كان واردا وواجبا فقه العلوم الإنسانية الغربية، والاستفادة من الخبرات الغربية فى تطور هذه العلوم، ومن التراكم المعرفى الهائل الذى شهدته، إلا أنه واجب أيضًا الحذر الشديد من النهج الوضعى الذى تعامل مع هذه العلوم الإنسانية تعامله مع العلوم الطبيعية والتجريبية ـ علوم المادة. . الدقيقة. . والمحايدة ـ فسوّى ـ هذا المنهج الوضعى ـ بينهما فى «الموضوعية. . والحيدة»!؛ ذلك أن علوم «عمران النفس الإنسانية» متميزة عن علوم «عمران الواقع المادى». . صحيح أنها كلها علوم، لكن درجة «الموضوعية. . والحياد» ـ ومن ثم درجة الشيوع لها والاشتراك الإنسانى فيها ـ مغايرة لنظائرها فى العلوم الإنسانية. . ومطلوب دائمًا عند استعارة منهج ما التدقيق فى مدى ملاءمته للعلم الذى نستعيره له. . فمناهج التعامل مع النص الأدبى، ليست هى مناهج التعامل مع علوم الفلك والفيزياء. . وكذلك الحال فى مناهج التعامل مع النص الدينى، ومع العلوم الإنسانية والاجتماعية. ثم إن «البعد العلمى الواقعى» الذى رآه الغرب مناسبًا للتعامل مع «اللاهوت الكنسى» اللاعقلانى لا يمكن أن يكون ملائما للتعامل مع علم الكلام الإسلامى ـ مثلاً ـ الذى هو إبداع عقلانى إسلامى، مثّل فلسفة المسلمين فى هذا الميدان. . ولقد كان تعامل المسلمين ـ فى قرون الانفتاح الثقافى والتفاعل الحضارى ـ مع المعارف اليونانية ـ ومع تراث مدرسة الإسكندرية. . ومع حضارات فارس القديمة. . والهند القديمة. . كانت مناهج التعامل هذه تطبيقًا لهذا الموقف الذى أشرنا إلى أصول معاييره [والذى فصلناه فى كتابنا «الغزو الفكرى وهم أم حقيقة؟»].

فالمسلمون الأوائل قد أخذوا عن الإغريق واليونان العلوم الطبيعية والدقيقة والتجريبية والمحايدة. . ولم يأخذوا الإلهيات، ولا الآداب ـ التى دارت حول الإلهيات وصراعات الآلهة الإغريقية وأساطيرها ـ وهم قد ترجموا الفلسفة اليونانية العقلانية، وذلك بعد أن تبلورت فلسفة المسلمين فى علم التوحيد ـ علم الكلام ـ فى النصف الثانى من القرن الهجرى الأول ـ أى قبل ترجمة اليونانيات ـ وهم قد ترجموا هذه الفلسفة العقلانية اليونانية لا لتكون فلسفة للإسلام أو المسلمين، وإنما لاستخدامها سلاحًا يونانيًا ضد «الباطنية ـ الغنوصية»، التى مثلت الخطر الأكبر

على الإسلام ـ كما سبق ومثلت الخطر الذى نازل النصرانية فحوّل توحيدها إلى غنوصية الاتحاد والحلول(١٣).

وكذلك أخذ المسلمون عن فارس القديمة «التراتيب الإدارية» لا المذاهب الفلسفية ولا العقائد الدينية، وأخذوا عن الهند الفلك والحساب، وليس المذاهب الدينية أو الفلسفية.. وأخذوا عن مدرسة الإسكندرية «علوم الصنعة»، التى بدأ ترجمتها الأمير الأموى خالد بن يزيد (٩٠هـ ـ ٧٠٨م)، كما أخذوا عن الرومان «تدوين الدواوين» أى المؤسسات والآليات والخبرات الإدارية، لا «القانون الرومانى».

وهكذا.. فلابد من الحذر الشديد من استعارة فلسفات المعرفة الغربية فى العلوم الإنسانية.. مع فتح الأبواب للتفاعل الحضارى فيما هو «مشترك إنسانى عام».. فحقائق وقوانين علوم المادة لا تتغاير بتغاير المعتقدات عند الباحثين فيها، ونتائج التجارب فيها لا تختلف باختلاف الحضارات والثقافات.. والذى يتمايز فى هذه العلوم هى فلسفات التطبيق لحقائقها وقوانينها، فهناك التطبيقات التى تُضبط بضوابط القيم والأخلاق، وهناك التطبيقات التى لا تعرف ضوابط القيم والأخلاق.

أما ثقافة «عمران النفس الإنسانية» ـ وفيها العلوم الإنسانية والاجتماعية والشرعية ـ فإنها ـ مع مناهج البحث فيها ـ واقعة فى صلب «الخصوصيات الحضارية»، لا «المشترك الإنسانى العام».

وإذا كان «الانغلاق الحضارى»، برفض كل ما لدى «الآخر»، يؤدى إلى ذبول «الذات الحضارية» وتآكلها.. فإن «التبعية الحضارية»، بتقليد كل ما لدى «الآخر»، تعطل ملكات الخلق والإبداع، فتنتهى بعقل الأمة ـ كالانغلاق الحضارى ـ إلى الذبول والموات!

* * *

• **الهوامش**

(١) انظر كتاب (العلم في منظوره الجديد) تأليف: روبرت م أغروس، جورج ستانو. ترجمة: كمال خلايلي. طبعة الكويت ـ سلسلة عالم المعرفة ـ سنة ١٩٨٩م.

(٢) ابن رشد (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) ص٣٢ دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٩٩م.

(٣) أبو حامد الغزالي (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) ص٤ ـ ٩ طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧م.

(٤) (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) ص٣٢.

(٥) المصدر السابق ص٣٣.

(٦) (نقد الخطاب الديني) ص٢٩، ٢٢٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م و(مفهوم النص) ص٩، ١٠٩ ـ ٢٠٠، ٢٧، ٢٨، ١٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠م و(إهدار السياق في تأويلات الخطاب الديني) مجلة «القاهرة» يناير سنة ١٩٩٣م.

(٧) (مفهوم النص) ص٥٦، ٣٨.

(٨) (إهدار السياق في تأويلات الخطاب الديني) مجلة «القاهرة» يناير سنة ١٩٩٣م.

(٩) (نقد الخطاب الديني) ص٨٣، ٩٤، ٨٢ ـ ٨٤، ١٩٨.

(١٠) (إهدار السياق في تأويلات الخطاب الديني) مجلة «القاهرة» يناير سنة ١٩٩٣م.

(١١) د. حسن حنفي (التراث والتجديد) ص١٢٨، ١٣٠، ١٢٤، ١٣٧، ١٣٩، ١٤١، ١٤٢، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٥٣، ١٥٤، ١٨٥ طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠م.

(١٢) المرجع السابق ص ١٧٦، ١٧٧، ٦٦، ٢٢، ١١٤، ٢٠٣، ٢٠٨، ٦٩، ٢١، ١٧٣، ٦٧، ٦١.

(١٣) انظر: بيكر (كارل هينرش) (١٨٧٦ ـ ١٩٣٩م) «وارث ووارث» ترجمة د. عبد الرحمن بدوي ـ ضمن كتاب (التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية) ص٧، ٩، ١١ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥م. وكذلك نلينو (١٨٧٢ ـ ١٩٣٨م) (محاولة المسلمين إيجاد فلسفة شرقية). المصدر السابق ـ ص٢٧٧ ـ هامش (١)، (٢).

* * *

حوار الأديان.. هل هو حوار طرشان؟!

فى الإسلام، الحوار ليس مجرد فضيلة، وإنما هو فريضة..

ذلك أن الإسلام يجعل التعددية، فى كل ماعدا ومن عدا الذات الإلهية، قانونًا وسُنّة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل.

فالناس، الذين خلقهم الله، سبحانه وتعالى، من نفس واحدة، قد جعلهم شعوبًا وقبائل ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات:١٣]، وجعل اختلافهم فى الألسنة واللغات آية من آياته ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم:٢٢]، فغدوا متعددين فى القوميات.. ثم هو، سبحانه قد شاء لهم التعددية فى المناهج، أى الحضارات والثقافات والعادات والتقاليد والأعراف.. وفى الشرائع، أى الملل والديانات ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة:٤٨] وقضت سنته، سبحانه وتعالى، أن يكون سعيهم شتى.. ولا يزالون مختلفين.

وحتى يتأبد عمل هذه السُّنة الإلهية، سنة التعددية فى كل عوالم الخلق ـ فى الإنسان.. والحيوان.. والنبات.. والجماد.. والأفكار.. والأجرام ـ دعا الإسلام إلى منهاج «التدافع» بدلاً من «الصراع»، فى معالجة التناقضات التى تفرزها الحياة بين الفرقاء المتعددين.. ذلك أن الصراع يعنى أن يصرع طرف الطرف الآخر، فيخرجه من الساحة، وبذلك تنتفى التعددية، وينفرد المنتصر بالميدان ﴿صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧، ٨] بينما التدافع هو عبارة عن «حراك.. واستباق» يُعدّل الخلل الفاحش بين الفرقاء المختلفين ليعيد العلاقة بينهم إلى مستوى التوازن الوسطى العادل.. وبذلك ينتفى سكون الموات بين الفرقاء المتعددين.. وتنجو التعددية من مسوات الصراع الذى

يصرع به طرف غيره من الأطراف ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

ولأن التعارف هو غاية التعددية.. ولأن الحوار هو سبيل هذا التعارف بين بنى الإنسان.. كان الحوار فريضة من فرائض الإسلام.. والذين يقرأون القرآن الكريم يدركون دوره، ودور الحوارات المتعددة والمتنوعة المبثوثة فى سوره وآياته، فى صياغة «الروح الحوارية» عند الإنسان المسلم، تلك التى تجسدت فى علاقات الإسلام وأمته وحضارته مع الآخرين.

تلك هى حقيقة الموقف الإسلامى ـ كما أومن به ـ فى رؤية «الآخرين».. وفى فريضة الحوار مع «الآخرين».

* * *

ومع كل ذلك، فتجربتى مع الحوارات الدينية ـ وخاصة مع ممثلى النصرانية الغربية ـ تجربة سلبية، لا تبعث على رجاء آمال تذكر من وراء هذه الحوارات، التى تقام لها الكثير من اللجان والمؤسسات، وتعقد لها الكثير من المؤتمرات والندوات واللقاءات.. وينفق عليها الكثير من الأموال.

ذلك أن كل هذه الحوارات، التى دارت وتدور بين علماء الإسلام ومفكريه وبين ممثلى كنائس النصرانية الغربية، قد افتقدت ولا تزال مفتقدة لأول وأبسط وأهم شرط من شروط أى حوار من الحوارات، وهو شرط الاعتراف المتبادل والقبول المشترك بين أطراف الحوار.. فالحوار إنما يدور بين «الذات» وبين «الآخر» ومن ثم بين «الآخر» وبين «الذات» ففيه «إرسال» وفيه «استقبال» على أمل التفاعل بين الطرفين.. فإذا دار الحوار ـ كما هو حاله الآن ـ بين طرف يعترف بالآخر، وآخر لا يعترف بمن «يحاوره»، كان حوارًا مع «الذات»، وليس مع «الآخر»، ووقف عند «الإرسال» دون «الاستقبال»، ومن ثم يكون شبيهًا ـ فى النتائج ـ بحوار الطرشان!

إن الإسلام، والمؤمنين به يعترفون باليهودية والنصرانية كديانات سماوية، أو

رسالات وشرائع فى الدين الإلهى الواحد، ويؤمنون بصدق جميع أنبيائها ورسلها، عليهم الصلاة والسلام، ويرون فى أصول كتبها وحيا إلهيا أنزله الله على هؤلاء الرسل والأنبياء، ويتعبدون ربهم بالصلاة والسلام على موسى وأمه، وعيسى وأمه، وسائر الأنبياء والمرسلين فى بنى إسرائيل.. ويرون فى شرائع تلك الرسالات، التى لم ينسخها التطور، جزءاً من الشريعة الإسلامية الخاتمة.

فهم - المسلمون - يعترفون بالآخرين، اعترافًا تقضى به العقيدة الدينية، وسنة التعددية.. ويضعون اختلافاتهم معهم فى إطار هذه السنة، سنة التعددية فى الشرائع الدينية السماوية.

بل لقد أدخل المسلمون - بعد الفتوحات الإسلامية - العديد من الديانات «الوضعية» - فى فارس والهند والصين - ضمن الديانات الكتابية، وقال بعض الفقهاء: لقد كانت لهذه الديانات كتب أتى عليها الضياع!.. فاعترفوا «دينيًا» وليس فقط «واقعيًا» بهذا الآخر الدينى.. وطبقوا على أممها وشعوبها قاعدة: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» التى سنها رسول الإسلام ﷺ، منطلقين من سنته الأخرى التى دعا فيها أمته إلى أن يسنوا فى التعامل مع أهل هذه «الديانات» سنة التعامل مع أهل التوراة وأهل الإنجيل.

هذا هو الموقف الإسلامى، الذى يعترف بالآخر الدينى، ويؤمن بكل النبوات والرسالات السابقة ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة:٢٨٥] و«الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد» رواه البخارى ومسلم والإمام أحمد. والمسلم يرى إسلامه الامتداد المكمل لدين الله الواحد، والميراث الجامع لكل الشرائع والرسالات.. ومع أنه هو «الكافى به الله فَقْدَ ما سواه»، فلقد أقر كل صاحب دين على دينه، معتبراً التعددية فى الشرائع والاختلاف فى الملل سنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل.. وحساب المخالفين إنما هو لله، سبحانه وتعالى، يوم الدين.. ولا يُنقص هذا الاختلاف أحداً من أطرافه حظا من حظوظه فى هذه الحياة الدنيا..

لكن موقف الآخرين من الإسلام والمسلمين هو موقف الإنكار، وعدم الاعترف أو القبول.. فلا الإسلام فى عرفهم دين سماوى، ولا رسوله صادق فى

رسالته، ولا كتابه وحى من السماء.. حتى لتصل المفارقة، فى عالم الإسلام، إلى حيث تعترف الأكثرية المسلمة بالأقليات غير المسلمة، على حين لا تعترف الأقليات بالأغلبية!

فكيف يكون.. وكيف يثمر حوار دينى بين طرفين، أحدهما يعترف بالآخر، ويقبل به طرفًا فى إطار الدين السماوى، بينما الطرف الآخر يصنفنا كمجرد «واقع»، وليس كدين، بالمعنى السماوى لمصطلح الدين؟!

ذلك هو الشرط الأول والضرورى المفقود، وذلك هو السر فى عقم كل الحوارات الدينية التى تمت وتتم، رغم ما بذل ويبذل فيها من جهود، وأنفق وينفق عليها من أموال، ورصد ويرصد لها من إمكانات!

* * *

أما السبب الثانى لعزوفى عن المشاركة فى الحوارات الدينية ـ التى أُدعى إليها ـ فهو معرفتى بالمقاصد الحقيقية للآخرين من وراء الحوار الدينى مع المسلمين.. فهم يريدون التعرف على الإسلام، وهذا حقهم، إن لم يكن واجبهم.. لكن، لا ليتعايشوا معه ـ وفقا لسنة التعددية فى الملل والشرائع ـ وإنما ليحذفوه ويطووا صفحته بتنصير المسلمين!.. وهم لا يريدون الحوار مع المسلمين بحثًا عن القواسم المشتركة حول القضايا الحياتية التى يمكن الاتفاق على حلول إيمانية لمشكلاتها. وإنما ليكرسوا ـ أو على الأقل يصمتوا ـ عن المظالم التى يكتوى المسلمون بنارها، والتى صنعتها وتصنعها الدوائر الاستعمارية، التى كثيراً ما استخدمت هذا الآخر الدينى فى فرض هذه المظالم وتكريسها فى عالم الإسلام.

فحرمان كثير من الشعوب الإسلامية من حقها الفطرى والطبيعى فى تقرير المصير.. واغتصاب الأرض والسيادة، فى القدس وفلسطين.. والبوسنة والهرسك.. وكوسوفا.. والسنجق.. وكشمير.. والفلبين.. إلخ.. إلخ.. كلها أمور مسكوت عنها فى مؤتمرات الحوار الدينى.

بل إن وثائق مؤتمرات التدبير لتنصير المسلمين، التى تتسابق فى ميادينها كل الكنائس الغربية، تعترف ـ هذه الوثائق ـ بأن الحوار الدينى ـ بالنسبة لهم ـ لا يعنى

التخلى عن «الجهود القسرية والواعية والمتعمدة والتكتيكية لجذب الناس من مجتمع دينى ما إلى آخر» بل ربما كان الحوار مرحلة من مراحل التنصير!

وإذا كانت النصرانية الغربية تتوزعها كنيستان كبريان، الكاثوليكية.. والبروتستانتية الإنجيلية.. فإن فاتيكان الكاثوليكية ـ الذى أقام مؤسسات للحوار مع المسلمين، ودعا إلى كثير من مؤتمرات هذا الحوار ـ هو الذى رفع شعار: «أفريقيا نصرانية سنة ٢٠٠٠م» فلما أزف الموعد، ولم يتحقق الوعد، مد أجل هذا «الطمع» إلى سنة ٢٠٢٥م؟!

وهو الذى عقد مع الكيان الصهيونى المغتصب للقدس وفلسطين، معاهدة فى ٣٠/١٢/١٩٩٣م ـ تحدثت عن العلاقة الفريدة بين الكاثوليكية وبين الشعب اليهودى، واعترفت بالأمر الواقع للاغتصاب، وأخذت كنائسها فى القدس المحتلة تسجل نفسها وفقًا للقانون الإسرائيلى الذى ضم المدينة إلى إسرائيل سنة ١٩٦٧م!!..

بل لقد ألزمت هذه المعاهدة كل الكنائس الكاثوليكية بما جاء فيها.. أى أنها دعت وتدعو كل الملتزمين بسلطة الفاتيكان الدينية ـ حتى ولو كانوا مواطنين فى وطن العروبة وعالم الإسلام ـ إلى خيانة قضاياهم الوطنية والقومية!

وباسم هذه الكاثوليكية أعلن بابا الفاتيكان أن القدس هى الوطن الروحى لليهودية، وشعار الدولة اليهودية.. بل وطلب الغفران من اليهود.. وذلك بعد أن ظلت كنيسته قرونًا متطاولة تبيع صكوك الغفران!

أما الكنيسة البروتستانتية الإنجيلية الغربية، فإنها هى التى فكرت ودبرت وقررت فى وثائق مؤتمر كولورادو سنة ١٩٧٨م»:

«أن الإسلام هو الدين الوحيد الذى تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية.. وإن النظام الإسلامى هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعيًا وسياسيًا.. إنه حركة دينية معادية للنصرانية، مخططة تخطيطًا يفوق قدرة البشر. ونحن بحاجة إلى مئات المراكز، تؤسس حول العالم، بواسطة النصارى، للتركيز على الإسلام، ليس فقط لخلق فهم أفضل للإسلام، وللتعامل النصرانى مع الإسلام، وإنما لتوصيل ذلك

الفهم إلى المنصرين من أجل اختراق الإسلام فى صدق ودهاء!!».

ولقد سلك هذا المخطط - فى سبيل تحقيق الاختراق للإسلام، وتنصير المسلمين - كل السبل اللا أخلاقية - التى لا تليق بأهل أى دين من الأديان - فتحدثت مقررات هذا المؤتمر عن العمل على اجتذاب الكنائس الشرقية الوطنية إلى خيانة شعوبها، والضلوع فى مخطط اختراق الإسلام والثقافة الإسلامية للشعوب التى هى جزء وطنى أصيل فيها.. فقالت وثائق هذه المقررات:

«لقد وطّدنا العزم على العمل بالاعتماد المتبادل مع كل النصارى والكنائس الموجودة فى العالم الإسلامى، إن النصارى البروتستانت، فى الشرق الأوسط وأفريقيا وآسيا، منهمكون بصورة عميقة ومؤثرة فى عملية تنصير المسلمين.

ويجب أن تخرج الكنائس القومية من عزلتها، وتقتحم بعزم جديد ثقافات ومجتمعات المسلمين الذين تسعى إلى تنصيرهم.. وعلى المواطنين النصارى فى البلدان الإسلامية وإرساليات التنصير الأجنبية العمل معا، بروح تامة، من أجل الاعتماد المتبادل والتعاون المشترك لتنصير المسلمين»!

فهم يريدون تحويل الأقليات الدينية فى بلادنا إلى شركاء فى هذا النشاط التنصيرى «المعادى لشعوبهم وأمتهم»!

كذلك قررت «بروتوكولات» هذا المؤتمر تدريب وتوظيف العمالة المدنية الأجنبية، التى تعمل فى البلاد الإسلامية، لمحاربة الإسلام وتنصير المسلمين.. وفى ذلك قالوا:

«إنه على الرغم من وجود منصرين بروتستانت، من أمريكا الشمالية، فى الخارج أكثر من أى وقت مضى، فإن عدد الأمريكيين الفنيين الذين يعيشون فيما وراء البحار يفوق عدد المنصرين بأكثر من ١٠٠ إلى ١، وهؤلاء يمكنهم أيضًا أن يعملوا مع المنصرين جنبًا إلى جنب لتنصير العالم الإسلامى.. وخاصة فى البلاد التى تمنع حكوماتها التنصير العلنى»!

كذلك، دعت قرارات مؤتمر كولورادو إلى التركيز على أبناء المسلمين الذين

يدرسون أو يعملون فى البلاد الغربية، مستغلين عزلتهم عن المناخ الإسلامى، لتحويلهم إلى «مزارع ومشاتل للنصرانية»؛ وذلك لإعادة غرسهم وغرس النصرانية فى بلادهم عندما يعودون إليها.. وعن ذلك قالوا:

«يتزايد باطراد عدد المسلمين الذين يسافرون إلى الغرب. ولأنهم يفتقرون إلى الدعم التقليدى الذى توفره المجتمعات الإسلامية،ويعيشون نمطا من الحياة مختلفًا ـ فى ظل الثقافة العلمانية والمادية ـ فإن عقيدة الغالبية العظمى منهم تتعرض للتأثر.

وإذا كانت «تربة» المسلمين فى بلادهم هى بالنسبة للتنصير «أرض صلبة.. ووعرة».. فإن بالإمكان إيجاد «مزارع» خصبة بين المسلمين المشتتين خارج بلادهم، حيث يتم الزرع والسقى والتهيئة لعمل فعال عندما يعاد زرعهم ثانية فى تربة أوطانهم كمنصرين»!

بل إن بروتوكولات هذا المؤتمر التنصيرى لتبلغ قمة اللا أخلاقية، عندما تقرر أن صناعة الكوارث فى العالم الإسلامى هى السبيل لإفقاد المسلمين توازنهم، الذى يسهل عملية تحولهم عن الإسلام إلى النصرانية!.. فتقول هذه البروتوكولات:

«لكى يكون هناك تحول إلى النصرانية، فلابد من وجود أزمات ومشاكل وعوامل تدفع الناس، أفراداً وجماعات، خارج حالة التوازن التى اعتادوها.

وقد تأتى هذه الأمور على شكل عوامل طبيعية، كالفقر والمرض والكوارث والحروب، وقد تكون معنوية، كالتفرقة العنصرية، أو الوضع الاجتماعى المتدنى.

وفى غياب مثل هذه الأوضاع المهيئة، فلن تكون هناك تحولات كبيرة إلى النصرانية.. إن تقديم العون لذوى الحاجة قد أصبح عملا مهما فى عملية التنصير!

وإن إحدى معجزات عصرنا، أن احتياجات كثير من المجتمعات الإسلامية قد بدلت موقف حكوماتها التى كانت تناهض العمل التنصيرى، فأصبحت أكثر تقبلاً للنصارى»!!

فهم ـ رغم مسوح رجال الدين ـ يسعون إلى صنع الكوارث فى بلادنا، ليختل توازن المسلمين؛ وذلك حتى يبيعوا إسلامهم لقاء مأوى أو كسرة خبز أو جرعة دواء!.. وفيما حدث ويحدث لضحايا المجاعات والحروب الأهلية والتطهير العرقى ـ

فى البلاد الإسلامية ـ التطبيق العملى لهذا الذى قررته البروتوكولات. . فهل يمكن أن يكون هناك حوار حقيقى ومثمر مع هؤلاء؟!

* * *

تلك بعض من الأسباب التى جعلتنى متحفظًا على دعوات ومؤتمرات وندوات الحوار بين الإسلام والنصرانية الغربية. . وهى أسباب دعمتها وأكدتها «تجارب حوارية» مارستها فى لقاء تم فى «قبرص» أواخر سبعينيات القرن العشرين. . ووجدت، يومها، أن الكنيسة الأمريكية ـ التى ترعى هذا الحوار وتنفق عليه ـ قد اتخذت من إحدى القلاع التى بناها الصليبيون إبان حروبهم ضد المسلمين «قاعدة» ومقرًا لإدارة هذا الحوار؟!

ومؤتمر آخر للحوار، حضرته فى عمّان ـ بإطار المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية ـ مع الكنيسة الكاثوليكية ـ فى الثمانينيات ـ وفيه حاولنا ـ عبثا ـ انتزاع كلمة منهم تناصر قضايانا العادلة فى القدس وفلسطين. . فذهبت جهودنا أدراج الرياح!. . على حين كانوا يدعوننا إلى «علمنة» العالم الإسلامى؛ لطى صفحة الإسلام كمنهاج للحياة الدنيا؛ تمهيدًا لطى صفحته ـ بالتنصير ـ كمنهاج للحياة الآخرة!

ومنذ ذلك التاريخ عزمت على الإعراض عن حضور «مسارح» هذا «الحوار»!

لكننى عندما دعيت من «المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية» والذى أشرفُ بعضويته ـ إلى لقاء «إسلامى ـ مسيحى» مع اتحاد الكنائس الإنجيلية فى ألمانيا ـ ٢٩ ذى القعدة ـ ٢ ذى الحجة سنة ١٤١٧هـ ٧ ـ ٩ أبريل سنة ١٩٩٧م ـ بعمّان ـ لم أتردد فى تلبية الدعوة، لا لأنى قد غيرت رأيى فى مثل هذه اللقاءات، وإنما لطبيعة الموضوع الذى كان محور هذا اللقاء. .

فلقد كان الموضوع عن «الدين والعلمانية». . فأحببت أن أسمع رأى الكنيسة الغربية فى تجربتها مع العلمانية التى صارعت المسيحية الغربية حتى صرعتها ـ وهى العلمانية التى صدّرتها لنا أوروبا لتصنع مع إسلامنا ما صنعته مع النصرانية الغربية.

وزاد من حماسى لحضور هذا اللقاء، تكليفى بالتعقيب على بحث من بحوث

● ولقد نبعت العلمانية من التنوير الغربى.. وجاءت ثمرة لصراع العقل مع الدين، وانتصاره عليه، باعتباره مجرد أثر لحقبة من حقب التاريخ البشرى، يتلاشى باطراد فى مسار التطور الإنسانى.

● ومن نتائج العلمانية: فقدان المسيحية لأهميتها فقدانا كاملاً. وزوال أهمية الدين كسلطة عامة لإضفاء الشرعية على القانون والنظام والسياسة والتربية والتعليم.. بل وزوال أهميته أيضًا كقوة موجهة فيما يتعلق بأسلوب الحياة الخاص للسواد الأعظم من الناس، وللحياة بشكل عام.. فسلطة الدولة، وليست الحقيقة، هى التى تصنع القانون.. وهى التى تمنح الحرية الدينية.

● ولقد قدّمت العلمانية الحداثة باعتبارها دينا حل محل الدين المسيحى، يفهم الوجود بقوى دنيوية، هى العقل والعلم.

● لكن.. وبعد تلاشى المسيحية.. سرعان ما عجزت العلمانية عن الإجابة على أسئلة الإنسان، التى كان الدين يقدم لها الإجابات.. فالقناعات العقلية أصبحت مفتقرة إلى اليقين.. وغدت الحداثة العلمانية غير واثقة من نفسها، بل وتُفكك أنساقها ـ العقلية والعلمية ـ عدميةُ ما بعد الحداثة.. فدخلت الثقافة العلمانية فى أزمة، بعد أن أدخلت الدين المسيحى فى أزمة.. فالإنهاك الذى أصاب المسيحية أعقبه إعياء أصاب كل العصر العلمانى الحديث.. وتحققت نبوءة نيتشة (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠م) عن «إفراز التطور الثقافى الغربى لأناس يفقدون «نجمهم» الذى فوقهم، ويحيون حياة تافهة، ذات بُعد واحد، لا يعرف الواحد منهم شيئًا خارج نطاقه».. وبعبارة «ماكس فيبر» (١٨٦٤ ـ ١٩٢٠م): «لقد أصبح هناك أخصائيون لا روح لهم، وعلماء لا قلوب لهم»!

● «ولأن الاهتمام الإنسانى بالدين لم يتلاشَ، بل تزايد.. وفى ظل انحسار المسيحية، انفتح باب أوروبا لضروب من الروحانيات وخليط من العقائد الدينية لا علاقة لها بالمسيحية ولا بالكنيسة ـ من التنجيم.. إلى عبادة القوى الخفية.. والخارقة.. والاعتقاد بالأشباح.. وطقوس الهنود الحمر.. وروحانيات الديانات الآسيوية.. والإسلام، الذى أخذ يحقق نجاحًا متزايدًا فى المجتمعات الغربية.

لقد أزالت العلمانية السيادة الثقافية للمسيحية عن أوروبا.. ثم عجزت عن تحقيق سيادة دينها العلمانى على الإنسان الأوروبى، عندما أصبح معبدها العلمى عتيقًا!. ففقد الناس «النجم» الذى كانوا به يهتدون: وعد الخلاص المسيحى.. ثم وعد الخلاص العلمانى!..».

* * *

تلك بعض من عبارات الدكتور «كونزلن»، التى قدمها فى بحثه عن «عملية العلمنة والمسيحية الغربية».. ولو أن الكنائس الغربية لم تخن نصرانيتها، لركزت جهودها ضد العلمانية فى بلادها، وعملت على إعادة تنصير أوروبا، بدلاً من هذه الحرب التى تشنها لتنصير المسلمين.

ولو أن هذه الكنائس أخلصت لمنظومة التدين ـ مطلق التدين ـ وللقيم الإيمانية ـ مطلق القيم الإيمانية ـ لسعدت بصمود الإسلام فى وجه العلمانية، ونجاة المسلمين من هذا الذى أحدثته العلمانية بالإنسان الغربى والمجتمعات الغربية.. لكن الغريب والعجيب، أن هذه الكنائس لم تصنع شيئًا من ذلك، وإنما صنعت العكس، فزاد سعار حقدها على الإسلام؛ لأنه قاوم ولا يزال يقاوم العلمانية، محافظًا على سلطان الدين والتدين فى قلوب المسلمين.. فكأن هذه الكنائس تريد أن تزرع فى الجسم الإسلامى ذات الجراثيم القاتلة التى قتلت تدين المجتمعات الغربية!

بل إن هذا الصمود الإسلامى ـ وفى ذلك مدعاة للغرابة والاستغراب ـ هو الذى جعل دوائر القرار الاستراتيجى فى الغرب، تعلن ـ بعد انهيار المنظومة الشيوعية ـ أن الإسلام هو العدو الذى حل محل إمبراطورية الشر الشيوعية.. لأنه ـ من بين كل الثقافات غير الغربية ـ المستعصى على العلمنة، والذى يستيقظ ليقدم لأمته مشروعا للنهضة ملتزمًا بمعايير الدين وقيم الإيمان.

وعن هذه الحقيقة تحدثت مجلة «شئون دولية» INTERNATIONAL AFFAIRS فقالت:

«لقد شعر الكثيرون بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل التهديد السوفيتى.. وبالنسبة لهذا الغرض كان الإسلام جاهزًا فى المتناول.. فالإسلام رافض لأى تمييز

بين ما لله وما لقيصر.. وهو لا يسمح لمعتنقيه أن يصبحوا مواطنين فى دولة علمانية.. إنه استثناء مدهش وتام جداً من النظرية التي يعتنقها علماء الاجتماع، والتى تقول إن المجتمع الصناعي والعلمى الحديث يحل العلمنة محل الإيمان الدينى.. فلم تتم أى علمنة فى عالم الإسلام، وسيطرة هذا الدين على المؤمنين به هى سيطرة قوية، بل إنها أقوى الآن مما كانت عليه من مائة سنة مضت.. إنه مقاوم للعلمنة، فى ظل مختلف النظم السياسية ـ راديكالية.. وتقليدية.. وبين بين ـ وعمليات الإصلاح الذاتى تتم، فى العالم الإسلامى، باسم الإيمان الدينى، وليس على أنقاض هذا الإيمان.. ولأن الإسلام هو الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحد فعلى وحقيقى للثقافة العلمانية الغربية، كان ـ من بين الثقافات الموجودة فى الجنوب ـ الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة..»!

فرفض الإسلام والمسلمين للعلمنة ـ ومن ثم التبعية للنموذج الغربى ـ هو السبب الجوهرى لإعلان الغرب أن العدو الجديد ـ الذى حل محل الشيوعية ـ هو الإسلام.

وهو السبب الذى جعل الحوارات الدينية ـ مع الكنائس الغربية ـ حوارات طرشان!؛ لأن هذه الكنائس بدلاً من أن تتعلم من الإسلام كيفية الصمود ضد العلمانية، نراها تستهدف ـ حتى من وراء حواراتها الدينية ـ ليس فقط علمنة المسلمين ـ كما تريد الدوائر العلمانية الغربية ـ وإنما طى صفحة الإسلام من الوجود![1]..

* * *

• الهوامش

(١) انظر فى حقائق هذه الدراسة: وثائق مؤتمر كولورادو ـ الترجمة العربية ـ طبعة مركز دراسات العالم الإسلامى مالطا سنة ١٩٩١م وكتابنا (الغارة الجديدة على الإسلام) طبعة دار الرشاد ـ القاهرة سنة ١٩٩٨م. و(مأزق المسيحية والعلمانية فى أوربا) للقس الألمانى جوتفرايد كونزلن ـ طبعة نهضة مصر ـ سلسلة فى التنوير الإسلامى ـ القاهرة سنة ١٩٩٩م.

* * *

الإنسان والمجتمع
بين الرؤية الإسلامية.. والعولمة الغربية

الإسلام دين الجماعة. .

ولأن الوسطية الإسلامية هي «زاوية الرؤية» التي بدونها تفقد المبادئ والأفكار والأشياء حقيقة إسلاميتها، فإن «الجماعة» في الرؤية الوسطية الإسلامية، هي توازن وعدل يجمع بين «الفرد» و«الأسرة» و«الأمة»، على النحو الذي تتفتح فيه طاقات «الفرد» وملكاته، لتتحول هذه الطاقات والملكات إلى دعم وتنمية لطاقات وملكات «المجموع»، فلا تطغى «الفردية» والأثرة والاستئثار على روابط الاجتماع؛ ولا تطغى «الجماعية» على ملكات وطاقات وحريات الأفراد والجماعات الفرعية في الأمة والمجتمع.

تلك هي رؤية الإسلام للاجتماع الإنساني، ولعلاقة الإنسان بالمجتمع والاجتماع والجماعة. . . تميزت وتتميز عن نظائرها خارج حضارة الإسلام.

● فالإنسان ـ في الرؤية الإسلامية ـ خليفة لله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] وهو مكلف. . ومسئول. . وحر. . وحامل لأمانة عمران هذه الأرض. . وصاحب استطاعة وقدرات. . وله سخر الله ما في السموات والأرض؛ ليتمكن من أداء أمانة الاستخلاف ورسالة العمران.

لكن فلسفة الخلافة والاستخلاف تجعل مكانة الإنسان وسطا، فلا يصح لقدراته وملكاته أن تذهب به إلى حيث يظن نفسه سيد هذا الكون، المكتفي بذاته، والمؤله لعقله وملكاته، والمستغني عن رعاية ومعونة من خلقه واستخلفه واستنابه، سواء أكان هذا الاستغناء من «الفرد» أو من «الطبقة الاجتماعية» أو حتى من «جماعة وأمة وحضارة» ضد غيرها من الجماعات والأمم والحضارات. . فطريق الاستفراد

والاستغناء هذا هو مقدمة الطغيان.. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦، ٧].

كما لا يصح لهذا الإنسان أن يهمل ما له من طاقات وملكات وقدرات، فيعطلها ـ بالجبرية أو التواكل أو الاستسلام والخضوع لظلم الظالمين وقهر المستبدين ـ فيتخلى عن مكانة الخليفة المفوض، وعن رسالة وأمانة العمران التي خلقه لها الله، سبحانه وتعالى، ففي هذا الخيار البائس ظلم للنفس، وتفريط في علة الخلق الإلهي للإنسان ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

فالخلافة والاستخلاف: وسط بين «فردية الاستغناء والطغيان» وبين «جبرية التهميش والمذلة والاستضعاف».

● وحتى تتحقق هذه الفلسفة الإسلامية من وراء خلق الإنسان.. فلسفة الاستخلاف، جاءت الرسالات السماوية برعاية الله وتدبيره لدنيا هذا الإنسان؛ وذلك حتى تستقيم مسيرته على صراط الوسطية المستقيم، صراط الخليفة، الذي لا يطغى فيغتصب السيادة المطلقة في الكون.. ولا ينحط إلى درك الجبرية والتفريط فيما خلق الله له وسخر من طاقات وملكات وإمكانات.

وحتى تتحقق هذه الوسطية الإسلامية ـ سواء في المجتمع الواحد أو في العلاقات الدولية بين الدول والمجتمعات ـ نزلت الشريعة الإسلامية الخاتمة بالعديد من القواعد والضوابط والفلسفات والأحكام التي مثلت وتمثل «الروابط الجامعة» للأفراد في أمة.. وللأمم في نظام إنساني ودولي.. مع إتاحة الفرص لنمو الخصوصيات الفردية في إطار جامع الأمة والمجتمع والاجتماع، ولنمو الخصوصيات الحضارية والثقافية للأمم في إطار القانون الدولي والمنظمات الدولية. فعلى مستوى المجتمع الإسلامي هناك ثوابت الهوية، التي هي بمثابة الروابط الجامعة، التي تجعل من الأفراد أمة وجماعة ومجتمعًا واجتماعًا، حتى لكأنها «المواد اللاصقة» التي توحد أفراد الأمة «بالانتماء» إلى «ثوابت الهوية»، عبر تمايزات وخصوصيات ومتغيرات القرون والأقاليم والعادات والتقاليد.. فهي

جوامع تسلك «الأفراد» فى «الأمة» والمجتمع والاجتماع.. وفى ذات الوقت تتيح مساحات من الحرية للفرادة والخصوصيات للمتغيرات والتمايزات التى يقتضيها التطور وتقتضيها متغيرات العصور والأقاليم والتقاليد والعادات.

فثوابت الهوية هذه هى «الجواهر الثابتة.. والعامة والشاملة» لكل الأمة، والتى هى بمثابة «البصمة» التى تميّز هذه الأمة عن غيرها من الأمم، كما تميز «بصمة البَنان» الفرد عن غيره من الأفراد.. وكما ينمو الفرد، فتتغير فيه أشياء وأشياء، عبر مراحل عمره وتطورات فكره، دون أن يفقد ثبات واستمرار بصمته، كذلك الأمة والجماعة، تتغير فيها، عبر قرون مسيرتها الحضارية، وباختلاف أقاليم شعوبها، وتعدد ألسنة - ومن ثم قوميات - هذه الشعوب، وتمايز عاداتها وتقاليدها.. تتغير فيها أشياء وأشياء، وذلك دون أن تفقد هويتها، أى الجوهر الثابت والعام والمستمر الذى يحفظ عليها شخصيتها الحضارية، وبصمتها الثقافية التى تميزها عن غيرها من الأمم والجماعات.

وكما يقر الإسلام ويتيح هذا التنوع فى إطار وحدة الهوية داخل الأمة الإسلامية.. يقره ويتيحه أيضًا على المستوى الأممى والإنسانى.. فهو لا يريد صب المجتمع فى قالب مفرد، ولا فى طبقة واحدة.. ولا بقسر أقاليم وأوطان عالم الإسلام على سلطة مركزية واحدة متفردة، وإنما يتيح المساحات الواسعة لتنوع الشعوب والقبائل، والألسنة واللغات والقوميات، والأقاليم والأوطان، والسلطات والولايات، سالكًا جميع ذلك وجامعًا إياه فى إطار الجوامع الإسلامية الخمسة: جامع العقيدة الواحدة.. والشريعة الواحدة.. والأمة الواحدة.. والحضارة الواحدة.. واتحاد دار الإسلام.

* * *

● وحتى يسلك الإسلام «الفرد» فى سلك «الأمة والجماعة»، جعل «الأسرة» حلقة وسيطة، ودرجة متوسطة بين «الفرد» وبين «الأمة».. فالأمة تتكون من الأسر والعائلات، والقبائل والعشائر، وكل وحدة من هذه الوحدات الوسيطة تتكون من أفراد.. وذلك ليتدرب «الفرد» على «الاجتماع» - أولاً - فى إطار «الأسرة» تمهيدًا لممارسة «الاجتماع العام» على مستوى «الأمة»، التى قد تضم

«شعوبًا» و«قوميات» تمثل ـ هي أيضًا ـ حلقات وسيطة بين «الأسرة» وبين «الأمة» بمعناها الواسع والعام.

● ولقد أولى الإسلام عناية متميزة «لمنظومة القيم الأسرية» عندما أقامها على رباط «مقدس ـ وفطرى» سماه القرآن الكريم ﴿ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾، ﴿ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء: ٢١]؛ وعندما جعل رباطها الفطرى هذا سكنا وسكينة ومودة ورحمة تتحقق بين الزوجين وأولى الأرحام: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١]، وعندما جعل من أولويات الإنفاق فى إطارها، والقوامة والرعاية لشئونها، وحصر التوارث بين أعضائها ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ [الأنفال ٧٥]، جعل من كل ذلك «روافع مادية» تنمى روابط ومواثيق ومشاعر السكينة والمودة والرحمة فيها.. وأيضًا، عندما جعل «الأسرة»: المدرسة الأولية للتدرب على فريضة وخلق الشورى والتشاور فى تدبير سياساتها.. كل ذلك لتكون هذه الأسرة اللبنة الأولى التى تجمع الأفراد على المستوى الذى يمثل ركيزة من ركائز البناء العام للأمة، كما تجمع «اللبنة» مجموعة من الحصوات أو الرمال، مكونة منها أولى ركائز البناء الشامخ والكبير.

أراد الإسلام ذلك.. ورعاه بالتشريع الإلهى لمنظومة القيم، التى وضعتها الأمة الإسلامية فى الممارسة والتطبيق، منذ عصر البعثة.. والتى لا تزال معتصمة بها، وتنافح عنها حتى الآن.

* * *

● ولتأكيد هذه الحقيقة من حقائق الرؤية الإسلامية لعلاقة الإنسان الفرد بالمجتمع وبالأمة والجماعة.. جاءت فرائض الإسلام وتكاليفه، لا «فردية ـ عينية» فقط، ولا «جماعية ـ كفائية» فقط، وإنما جاءت فيها الفرائض والتكاليف «الفردية ـ العينية» مع الفرائض والتكاليف «الكفائية ـ الاجتماعية» التى يتوجه الخطاب فيها إلى الأمة، ولا تقوم وتتحقق وتكتمل إلا فى جماعة ونظام ومجتمع واجتماع.. فتميز الإسلام بذلك عن النصرانية ـ مثلا ـ تلك التى توجهت وصاياها إلى الفرد، والتى يستطيع هذا الفرد أن يحقق أعلى مستويات التدين بها وهو فرد منعزل،

وراهب فى صومعة دير أو شعب من شعاب الجبال أو مغارة من المغارات، لا علاقة له بالمجتمع أو الأمة أو النظام والاجتماع.. تميز الإسلام عن ذلك، عندما أصبحت إقامته، وأصبح تحقيق كامل تكاليفه الاجتماعية والكفائية مرهونا بإقامة الدولة والنظام والأمة والاجتماع.. فكان دين الجماعة.. وكانت رهبانيته فريضة اجتماعية ومجتمعية هى «الجهاد فى سبيل الله»، وكان صلاح «دنيا» أمته مرهونًا بصلاح «الدين»، وصلاح «الدين» فيه مرهون بصلاح «النظام الدنيوى» الذى يعين على معرفة الدين وإقامة شعائره فى أمن وأمان.

* * *

● وعلى المستوى الدولى والأممى، يريد الإسلام تحقيق ذات الرؤية، وذات المقاصد.

▪ فهو يريد العالم «منتدى حضارات» وثقافات ولغات وأجناس وألوان ومناهج وشرائع وملل.. تتعارف وتتعاون - وفق توازن «المصالح» لا «القوى» - فيما هو مشترك إنسانى عام - وخاصة فيما يؤدى إلى عمران الواقع المادى لهذا الكوكب الذى يعيش عليه الإنسان.. مع تمايز هذه الأمم والحضارات فى الشرائع والملل ومنظومات القيم واللغات والقوميات والمناهج والثقافات.. أى فيما هو من «عمران النفس الإنسانية».

▪ وهو يسمح - فى النظام الاجتماعى - بالتمايز الطبقى، شريطة أن تلتقى وتنضبط علاقات الطبقات الاجتماعية ومصالحها عند درجة العدل وتوازن التكافل الاجتماعى بين أعضاء الجسد الواحد - الأمة الواحدة - فى وسطية لا تنكر تمايزات احتياجات وقدرات الأعضاء، وأيضًا لا تفرط فى وحدة وتكافل وتضامن سائر الأعضاء.

يتغيا النظام الاجتماعى الإسلامى تحقيق هذه الوسطية، عندما تقرر فلسفته المالية أن مالك الرقبة فى الأموال والثروات هو خالقها، سبحانه وتعالى، والناس - مطلق الناس - مستخلفون فى هذه الأموال والثروات، تتكافأ فرصهم فى الملكية والحيازة والاستثمار، وتتفاوت قدراتهم أيضًا فى هذه المجالات، مع ضرورة ضبط هذا التفاوت عند وسطية العدل وتوازن التكافل الاجتماعى لأعضاء الجسد الواحد

فالله، سبحانه وتعالى، هو الذى وضع الأرض - كل الأرض - للأنام - كل الأنام - ﴿والأرض وضعها للأنام﴾ [الرحمن: ١٠]، وفى القرآن الكريم، يضيف الله «المال» إلى ذاته: ﴿وآتوهم من مال الله الذى آتاكم﴾ [النور: ٣٣] لأنه هو الخالق له، والواهب إياه.. كما يضيفه إلى ضمير «المفرد» فى سبع آيات، لإقامة الدليل على مشروعية اختصاص الإنسان الفرد بالحيازة والملكية الاجتماعية - ملكية المنفعة - والاستثمار والاستمتاع بهذا المال.. ثم يضيف القرآن الكريم «المال» إلى ضمير «الجمع» فى سبع وأربعين آية؛ لينبه على أن مال الأفراد هو - فى الحقيقة والنهاية - مال الأمة والجماعة، وليوحى بأن التكافل بين أعضاء الجسد الواحد - الأمة - هو طوق النجاة من تحول المال وسلطانه وجبروته إلى دُولة بين قلة من الأغنياء المستغنين، فيقودهم ذلك - مع نظامهم الاجتماعى - إلى الطغيان والاستبداد.

▪ كذلك يفسح الإسلام المجال للتمايز فى الملل والشرائع الدينية، فيترك أهل كل دين وما يدينون به، وفق عقائدهم، مع انتماء الأمة كلها - على اختلاف مللها وشرائعها الدينية - إلى المرجعية «الإسلامية - المدنية» التى تسلك الملل فى أمة والطوائف فى مجتمع ودولة ونظام، أى تسلك التنوع الدينى فى مرجعية «إسلامية - مدنية» واحدة، تحافظ على بقاء التنوع فى إطار الوحدة، فلا تقسره فتلغيه.. ولا تهمل ضبطه وتنظيمه فتتركه للتشرذم والتناقضات التى تلغى وحدة الأمة والدولة والقانون والاجتماع.

▪ وهو يشرّع للتمايز فى الألسنة واللغات - ومن ثم فى القوميات - وكذلك التمايز فى الألوان والأجناس ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين﴾ [الروم: ٢٢]، وذلك فى إطار ثوابت الهوية، ومنظومة القيم الإيمانية، وجوامع الإسلام فى الحضارة.. والثقافة.. ووحدة الأمة.. واتحاد دار الإسلام..

* * *

● وكما يبيح ويتيح الإسلام - فى داخل أمته وحضارته وعالمه - هذا التنوع فى إطار الوحدة.. يريده كذلك على المستوى الأممى والدولى..

فالعالم إذا أصبح «منتدى حضارات» متميزة، تعارفت فيه وتجاورت وتحاورت

وتعايشت الخصوصيات الثقافية والعقدية والقيمية لتلك الحضارات.. وكان «التدافع» الذى هو حراك اجتماعى وفكرى، يُعَدِّل المواقف والمواقع، ويحقق التنافس والتسابق، دون أن يتدنى إلى سكون الموات، وأيضًا دون أن يتصاعد إلى درجة الصراع، الذى يصرع فيه طرف بقية الأطراف، منهيًا التعدد والتنوع، ومكرسًا الواحدية والانفراد.

فبتوازن «المصالح» يحافظ الجميع - جميع الفرقاء - على مصالحهم المشروعة - وليس بتوازن «القوى»، الذى يجعل العالم غابة يفترس فيها القوى الضعفاء، وفق «النزعة الصراعية» الحيوانية، التى ترى القسوة معيارًا للصلاح، ومن ثم معيارًا للبقاء!

فبدلا من صدام وصراع فرقاء التنوع العالمى، على طريقة: ﴿فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ۝ فهل ترى لهم من باقية﴾ [الحاقة: ٧، ٨].. يريد الإسلام - لحل مشكلات التنوع فى إطار الوحدة - منهاج التدافع ﴿ادفع بالتي هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم﴾ [فصلت: ٣٤].. فيكون التدافع تعديلاً للمواقف والمواقع، يضبطها عند توازن العدل.. وحافزًا للتسابق على طريق الخيرات أمام كل الفرقاء.

تلك هى معالم الرؤية الإسلامية للإنسان والمجتمع، آثرنا - للإيجاز - أن نشير إلى أبرز معالمها، مجرد إشارات.. وألا نثقلها - للإيجاز أيضًا - بالنصوص والشواهد والمأثورات، التى يعلمها ويحفظها العامة، فضلا عن أهل الاختصاص.

* * *

وإذا كانت هذه هى أبرز معالم الرؤية الإسلامية للإنسان والمجتمع.. فماذا تحمل رياح «العولمة الغربية» لمعالم هذه الرؤية الإسلامية؟

فى البداية، نود أن ننبه إلى أن مفهوم «العولمة الغربية» مغاير، بل ومناقض لمفهوم «العالمية الإسلامية».. فالعالمية الإسلامية هى تنوع وتمايز واختلاف فى إطار الوحدة، على مستوى «الأسرة» و«الأمة» و«الإنسانية»، تتحقق فيها وبها سنة الله التى أراد ألا يكون لها تبديل ولا تحويل.. سنة التنوع فى الشعوب والقبائل

والأمم والحضارات والمناهج والثقافات واللغات والقوميات والألوان والأجناس والشرائع والملل والديانات والمذاهب والفلسفات، وذلك فى إطار جوامع الإنسانية والفطرة التى فطر الله الناس عليها.

أما «العولمة»، فإنها، بدءاً من الصيغة الصرفية لمصطلحها، وانتهاءً بأطروحاتها ومؤسساتها وممارساتها، هى قسر غربى، يريد صب العالم فى قالب غربى واحد - يغلب عليه الآن الطابع الأمريكى - فهى، مثل «الفَرْنَسة».. و«الجَلْتَرَة» و«الأَمْرَكَة» تريد صب النماذج الحضارية والقيمية والثقافية والاجتماعية المتنوعة فى قالب واحد، هو الآن القالب الغربى الغلاّب، منتهزة فرصة تعاظم قوة القبضة الغربية، بعد زوال التناقض الاجتماعي الذي مزقها - على امتداد سبعة عقود فى القرن العشرين - تناقض الليبرالية الرأسمالية مع الشمولية الشيوعية. ومستفيدة من الثورة العظمى فى تقنيات وسائل الاتصال - فى مختلف ميادين هذا الاتصال - تلك التى تضغط بقوة على الحدود القومية، والحمايات الاقتصادية، وخطوط التمايز القيمى والثقافى، محاولة اجتياحها وإزالتها.

فالعولمة هى تصاعد قوى ضغط وهيمنة النظام الغربى - وخاصة الأمريكى - على النظم والمنظومات غير الغربية وخصائصها ومكوناتها وهوياتها وفضاءاتها.. تصاعد قوى هذا الضغط الغربى، وتجاوزه للمرحلة التى عشناها فى ظل الاستعمار التقليدى - مرحلة «غواية الترغيب والترهيب» - إلى مرحلة «الاجتياح»!

إنها اجتياح فى ميادين الاقتصاد - صناعة وتجارة وزراعة - واجتياح فى ميدان العسكرية، ينتقل بآلة الحرب الأطلسية من نطاق الدفاع عن «أراضى» الدول المشتركة فى هذا الحلف - كما كان الحال عند تأسيسه فى أبريل سنة ١٩٤٩م - إلى آفاق الدفاع عن «مصالح» الدول المشتركة فيه - أى إلى كل العالم - كما تقرر فى مؤتمره بالذكرى الخمسينية لتأسيسه - فى أبريل سنة ١٩٩٩م!

* * *

ولما كان المطلوب - من هذه الصفحات - هو الوقوف عند أبرز مخاطر هذه العولمة الغربية على التمايز الثقافى والقيمى للحضارة الإسلامية والأمة الإسلامية، فإننا نبدأ بالتنبيه على أن عولمة العالم - بدلاً من عالميته - أى السعى إلى صبه فى

قالب واحد، والعمل على إلغاء تنوعه الحضارى والثقافى والقيمى، بصرف النظر عن الساعين إلى هذه العولمة، وعن النموذج الذى يريدون إحلاله محل التنوع، هو معاندة لسنن الله الكونية والتكوينية فى تنوع وتعدد وتميز واختلاف كل عوالم المخلوقات: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة:٤٨]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود:١١٨، ١١٩].

فالواحدية والأحدية هى فقط للذات الإلهية، وماعدا و من عدا الذات الإلهية يقوم على سنة وقانون التنوع والتمايز والتعدد والاختلاف.. فكل سعى عولمى، يريد صب العالم فى قالب واحد، هو محادة ومعاندة لسنن الله فى تنوع عوالم الثقافات والقيم والملل والفلسفات والمعتقدات.

● ويزيد هذا الأمر خطورة وسوءًا، أن التوازن المختل لعلاقات القوى فى واقعنا العالمى الراهن، يجعل من اتجاه قسر العولمة آتيا من الغرب إلى الشرق، ومن الشمال إلى الجنوب، كما يجعل نموذجها فى الأساس أمريكيًا غربيًا.. أى أن هذا الاجتياح إنما يسعى لصب العالم فى قالب الثقافة الحداثية الغربية، التى بدأت ـ بالنهضة الأوروبية ـ فأقامت قطيعة معرفية مع موروثها الدينى، وأحلت محل مقدساته الموروثة ـ الله.. واللاهوت.. والكنيسة ـ الآلهة الوضعية للثقافة الحداثية ـ العقل ـ والعلم ـ والفلسفة ـ ونزعت القداسة عن العالم.. وعزلت السماء عن الأرض، بالعلمانية، التى جعلت العالم مكتفيًا بذاته عن الرعاية الإلهية، وجعلت الإنسان مكتفيًا بذاته، عن التدبير الإلهى.. وألّهت العقل عندما رفعت شعار: «لا سلطان على العقل إلا للعقل» ـ جاعلة «النسبى» «مطلقًا»، ومستبدلة إياه بالعلم الإلهى الكلى والمطلق والمحيط.. ومقررة أن الإنسان هو سيد الكون، وليس الخليفة لسيد الكون وخالقه، سبحانه وتعالى!.. تلك هى الثقافة الحداثية التى تريد العولمة الغربية تعميمها، وصب العالم فى قالبها.

بل إن هناك قطاعًا فى هذه الثقافة الغربية، قد ملّ «يقينيات منظومات» هذه الحداثة ـ فى العلم.. والعقل والفلسفة ـ فتجاوزها إلى تفكيك وفوضوية وعدمية

وعبثيـة ولاأدرية «ما بعد الحداثة». . ووضع هذه «البضاعـة» ضمن القوالب التى تجتاح بها العولمة ثقافات أمم وحضارات الجنوب.

فنحن أمام اجتياح ثقافة حداثيـة، استبدلت الإنسان بالله، وتمحورت حول المادة المجـردة من الروح، والدنيا المقطوعـة الصلة بالآخـرة، وآيات الكون المنظور دون آيات الوحى المسطور. . حـتى لقد أُشرب أهلهـا فى قلوبهم عبـادة القوة والمال. . وأمام ثقافة «ما بعد الحداثة»، تلك التى انعدمت فـيها كل مصادر اليقين. . وماتت فيـها كل شىء»، من النص والمعنى وحـتى الإنسان!، وأصبح التـفكيك والعدمـية واللاأدرية والعبثية هى «الأكفان» «لما بعد حداثية» لهذا الإنسان!

ذلك هو التهـديد العولمى لثقافـتنا الإسلامية. . ثقافـة الوسطية الجامعـة للعقل والنقل. . والغـيب والشـهـادة. . وآيات الله المسطـورة وآياته المنظورة. . والفـرد والأسـرة والأمـة والإنسـانيـة. . والذات والآخـر. والدنيـا والآخـرة. . والتنوع والوحدة. . والشك المنهجى الموصل إلى اليقين.

● وفى الفلسـفة الاجتـماعـية، يريد الاجتـياح العـولمى أن يجعل من انتـصار الليبرالية الرأسمالية على الشمولية الشيوعية نهاية التاريخ للعالم كله وليس للغرب وحده، والنمـوذج الذى يجب أن يُصب العالم فى قـالبه الوحيـد. . وهو القالب الذى جعلت منه احتكارات الشـركات المتعددة الجنسيات، والعـابرة القارات وحشا كاسـرًا، تجتاح رءوس أمواله الماليـة «تياراتها السـاخنة»، أسواق العالم ومصـارفه وبورصـاته، موظفـة ٩٧٪ من رأس المال المالى العـالمى فى السمسـرة والمضـاربات والمراهنات، وراصـدة أغلب رأس المال الخـدمى والتجـارى فى تجارات السـلاح والمخدرات ودعـارة الرقيق الأبـيض. . ومحكمـة قيود فـوائد الاقتـراض الربوى الفاحش على رقاب الدول النامية - التى يـسكنها ٨٠٪ من سكان العالم - ومهددة كل تجارب ونماذج التنمـية فى عالم الجنوب بالبوار والإفـلاس!. . ومحتكرة ٨٦٪ من ثروات العالم وإنتاجه لـ٢٠٪ من سكانه أهل الشمال!. . ورافعة شعار «صدام الحضارات. . وصراعهـا»؛ لتأديب النماذج الحضارية المستعـصية على دخول «بيت الطاعـة» الغربى - والأمـريكى فى الأسـاس - حتى لقـد أعلنت اتخاذ الإسـلام - المقاوم للعلمـنة والعولمة - عدوًا، حلّ - فى إعـلانها وإعلامـها وممارساتهـا - محل إمبراطورية الشر الشيوعية!».

● وفي الموقف من «مؤسسة الأسرة» وقيمها، شنت العولمة وتشن حربا شاملة ضد المفهوم الإسلامي - والنموذج الديني - للأسرة، وضد منظومة القيم الشرعية والإيمانية التي تحكمها.. وهي تشن هذه الحرب على الأسرة مستغلة «علَم» الأمم المتحدة، و«خاتم» المنظمات الدولية الذي تمهر به الوثائق والمقررات التي تفرضها على العالم - من «مؤتمر القاهرة للسكان والتنمية» سنة ١٩٩٤م إلى «مؤتمر بكين» سنة ١٩٩٥م.. إلى مؤتمر «بكين + ٥» في مقر الأمم المتحدة - بنيويورك - سنة ٢٠٠٠م.

فتحت أعلام الأمم المتحدة، وباسمها يعولم الغرب منظومة القيم التي تدمر الأسرة، عندما ترى فيها قيدًا على حرية المرأة، فتدعو إلى تغيير هياكل الأسرة، على النحو المعاند للفطرة الإنسانية والقيم الإيمانية، وإلى دمج المرأة في المجتمع دمجًا كاملاً ودمج الرجل في المنزل!.. وتحويل الإنسان إلى «حيوان جنسي» تفوق حريته الجنسية نظيرتها لدى الحيوانات غير الناطقة، معتبرة النشاط الجنسي حقا من حقوق الجسد، كالغذاء والماء، بصرف النظر عن الضوابط الفطرية والشرعية لهذا النشاط!!.. وذلك بعد أن حول الغرب هذا الإنسان، بالرأسمالية المتوحشة، إلى حيوان مستهلك، لا تتناهى احتياجاته الاستهلاكية!

وإذا كانت وثيقة المؤتمر الدولي للسكان والتنمية - القاهرة سنة ١٩٩٤م - قد مثلت أولى وأخطر وثائق عولمة منظومة القيم الغربية - ثم بنت عليها وأكدتها المؤتمرات التي جاءت بعد ذلك - فإن معالم هذه المنظومة التي تستهدف المفاهيم والرؤى الإسلامية - بل ومطلق المفاهيم والرؤى الإيمانية - لهذه الأسرة، يمكن إدراك مخاطرها إذا نحن نظرنا في نصوصها ومفاهيمها ومقاصدها نظرة تدبر وإمعان.

● فبدلا من الحفاظ على الأسرة - بمفهومها «الإسلامي - والفطري»، وبالضوابط الشرعية التي تحكم نظامها ومنظومة قيمها: - اقتران شرعي بين ذكر وأنثى، قائم على ميثاق الفطرة الغليظ، تتوافر فيه الشروط الشرعية للاقتران؛ وذلك لتحقيق السكن والسكينة والمودة والرحمة، والتنمية البشرية الصالحة للأمة المتضامنة - بدلاً من ذلك تسعى هذه الوثيقة إلى عولمة منظومة القيم الغربية المدمرة

للأسرة، فتدعو ـ صراحة ـ و«بإلحاح الحكومات والمنظمات الحكومية الدولية، والمنظمات غير الحكومية المعنية، ووكالات التمويل، والمؤسسات البحثية إلى إعطاء أولوية للبحوث الحيوية المتعلقة بتغيير الهياكل الأسرية»[1].

ولا تدع هذه الوثيقة أمر «تغيير الهياكل الأسرية» للظنون والاجتهادات.. وإنما تتحدث عن «اقتران» لا يقوم على «الزواج» ـ وهو ما يشيع في العلاقات المحرمة دينيًا بين رجلين أو امرأتين، عند الشواذ ـ بل وتتجاوز «إباحة» ذلك إلى ترتيب «الحقوق» لهذه الأنواع من «الأسرة»، فتقول: «وينبغي القضاء على أشكال التمييز في السياسات المتعلقة.. بالزواج وأشكال الاقتران الأخرى»!.. وتدخل في عداد الأسرة، ذات الحقوق: «الأعداد الكبيرة من الأفراد غير المتزوجين والناشطين جنسيًا»[2]!

فنحن أمام عولمة مفهوم «للأسرة» لا يقف بها عند حدود «الزواج» و«الأزواج»، بل يدخل فيها كل «الأفراد» الناشطين جنسيًا، ومن كل الأعمار، وهو مفهوم غربي، أصبح متعارفًا عليه في كثير من البلاد الغربية، تبنته برلمانات، بل وتبنته كنائس، واقتربنا من أن نقرأ له «لاهوتا.. لا دينيا»!!

● وإذا كان الإسلام قد سن سنة «المساواة» بين الإناث والذكور، في الخلق والتكريم والتكليف والحساب والجزاء، مع الحرص على توزيع للعمل يحافظ على فطرة التمايز بين الذكورة والأنوثة، فجعل هذه المساواة هي «مساواة الشقين المتكاملين، وليس الندين المتماثلين»؛ حفاظًا على دواعي الاقتران والشوق والسعادة للنوع الإنساني.. فإن وثيقة مؤتمر السكان تسعى إلى انقلاب في علاقات المرأة بالرجل.. فبدلا من تبني مصطلح «المساواة» تتحدث عن «تمكين المرأة»!.. وبدلا من توزيع العمل بين الرجال والنساء وفق فطرة وطبيعة الذكورة والأنوثة ـ وهي التي أشار إليها حديث رسول الله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته.. فالرجل راع على أهل بيته، وهو مسئول عنهم. والمرأة راعية في بيت بعلها وولده، وهي مسئولة عنهم.. ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد ـ.. بدلاً من هذا التوزيع الفطري للعمل بين النساء والرجال، تدعو الوثيقة إلى دمج الرجل في المنزل، ودمج المرأة في المجتمع

دمجًا كاملاً، فتقول: «ويتعين على الحكومات والزعماء الوطنيين والمجتمعيين أن يشجعوا مشاركة الرجل الكاملة فى تنظيم الأسرة وتربية الأطفال والعمل المنزلى.. وتمكين المرأة واستقلالها وإدماجها بشكل تام فى الحياة المجتمعية»[3]!

● وإذا كانت العفة قيمة من القيم الإسلامية ـ بل والإنسانية ـ وإذا كان الإحصان بالزواج الشرعى هو السبيل لتحويل الغرائز الجنسية والأشواق العاطفية إلى حياة بناءة وراقية فى المجتمع السوى.. فإن وثيقة مؤتمر السكان تتحدث عن «المتعة الجنسية المأمونة والمسئولة»، وليس عن «المتعة الجنسية الشرعية والمشروعة والحلال». فمصطلح «الصحة الجنسية» الذى هو أكثر المصطلحات تكرارا فى هذه الوثيقة!.. يعنى: «تكامل الجوانب الجسدية والعاطفية والعقلية والاجتماعية للوجود الجنسى، بأساليب إثرائية تبرز الشخصية وتقوى التفاهم والحب، وفق نهج إيجابى تجاه النشاط الجنسى البشرى»[4].

مع اعتبار هذا النشاط الجنسى البشرى حقًا طبيعيًا وإنسانيًا عامًا من حقوق الجسد، كالغذاء، وغير مقصور على المتزوجين زواجًا شرعيًا.. فهو ـ بنص الوثيقة ـ: «حق لجميع الأزواج والأفراد [لاحظ «الأفراد»] سواء كان امرأة أو رجلاً أو مراهقًا أو مراهقة.. وينبغى أن تسعى جميع البلدان إلى توفير هذه الحقوق لجميع الأفراد، من جميع الأعمار، فى أسرع وقت ممكن، وفى موعد لا يتجاوز عام ٢٠١٥..»[5]!

أى والله! هذا هو نص الوثيقة، يستنفر العالم لتوفير حقوق الإباحية الجنسية لكل الناشطين جنسيًا، من كل الأعمار، فى أسرع وقت ممكن، وفى موعد لا يتجاوز سنة ٢٠١٥م حتى ليظن المرء، وهو يقرأ هذا الاستنفار، أن العفة قد غدت التهديد الأخطر للسلام العالمى!.

ولهذه «القيم» الغربية، تحدثت الوثيقة عن «السلوك الجنسى المسئول»، وليس عن «السلوك الجنسى الشرعى، أو الحلال» «وذلك من أجل الوقاية من الإصابة بفيروس نقص المناعة البشرية.. فالهدف هو تشجيع [لاحظ «تشجيع»] التطوير المناسب للنشاط الجنسى المسئول بما يسمح بوجود علاقات المساواة والاحترام المتبادل بين الجنسين ويسهم فى تحسين نوعية حياة الأفراد..»[6].

فالمتعـة الجنسية عالية المسـتوى والمشروعة، هى حق للجـميع، بشرط أن تكون الممارسة الجنسـية مسئـولة، وقائمة على التراضى والاحتـرام، تحسينا لنوعيـة حياة الأفراد!

● وإذا كان الإحصان، بالزواج المبكر، هو مما يحافظ على قيـمة العفة، وييسر الاستمتاع الشرعى والحلال بالعلاقات العاطفية والجنسية بين الأزواج.. فإن وثيقة مؤتمر السكان تسعى لعولمة منظومة القيم الغربية، التى غـدت تُحرِّم وتُجرِّم الزواج المبكر، وتدعـو إلـى اعـتـمـاد «البـدائل» التى تصـرف عن هـذا الزواج المبكر.: **«فالهدف هو الحيلولة دون حـدوث الزيجـات المبكرة وعلى الحكومـات أن تزيد السن الأدنى عند الزواج حـيثـما اقتضى الأمـر.. ولاسيـما بإتاحـة بدائل تغنى عن الزواج المبكر..»**[٧].

وفى ذات الوقت، تـتيح الزنا كبديل لـهذا الزواج المبكر!.. فلقـد أفردت هذه الوثيقـة حيزًا كـبيرًا ـ وملفـتًا للنظر ـ للحـديث عن حقوق المراهقـين والمراهقات الناشطين جنسـيًا فى المعـاشرات الجنسـية، بل وفى الحـمل، والإجهـاض الآمن، وتنظيم الأسرة.. «فالهدف هـو الوفاء بالاحتياجـات الخاصة بالمراهقيـن والشباب وخاصـة الشابات.. والخدمـات عالية الجودة فى مـجال الرعاية الصـحية والجنسـية والتناسلية.. كـيما يتعاملوا مع نشاطهم الجنسى بطـريقة إيجابية ومسـئولة وحـماية وتعزيز حقـوق المراهقين فى التربية والمعلومـات والرعاية المتصلة بالصحـة الجنسية والتناسلية.. وأن تنخفض عدد حالات حمل المراهقات تخفـيضًا كبيرًا.. فالمراهقون الناشطون جنسـيًا يحتـاجون نوعًـا خاصًا من المعلومـات والمشورة والخـدمات فـيما يتعلق بتنظيم الأسـرة.. كما أن المراهقات اللاتى يحملن يحتجن إلى دعم خاص من أسرهن ومـجتمـعهن المحلى خلال فـترة الحمل ورعاية الطـفولة المبكرة.. ولذلك، يتعـين على البرامج إشراك وتدريب كل من يتسنى لهم توفير التـوجيه للمـراهقين فيما يتعلق بالسلوك الجنسى والتناسلى المسئول، وبخاصـة الأبوين، والأسر، وأيضًا المجتـمعات المحلية، والمؤسسات الـدينية، ووسائل الإعـلام، وجماعـات الأقران.. وينبغى أن تعمل الحكومات على محاربة التمييز ضد الحوامل الشابات..»[٨]!!

أى والله! تدعو وثيقة مؤتمر السكان إلى اسـتنفار الدنيا، بما فى ذلك المؤسسات

الدينية!، لتوفير «حقوق» الزنا للمراهقين والمراهقات، وكذلك حقوق الحمل، والإجهاض الآمن، وتنظيم الأسرة.. بعد حمايتهم من «الزواج المبكر»!

* * *

● وبدلاً من الثقافة الإسلامية، التى جمعت بين «الربانية» وبين «الإنسانية»، عندما رأت الإنسان خليفة لله، خلقه الله ونفخ فيه من روحه.. واستخلفه لعمران الأرض.. فلم تقم هذه الثقافة قطيعة معرفية مع الله والدين والقيم الإيمانية، وأيضًا لم تدر ظهرها للمادة والدنيا وطيباتها وزينتها.. بدلاً من هذه الثقافة التى برئت بالوسطية الجامعة منْ الثنائيات المتناقضة.. تريد العولمة صب العالم فى قالب الثقافة الحداثية اللادينية.. تلك التى بدأت بعصر التنوير الأوروبى الوضعى العلمانى.. والتى تنبه لخطرها، ونبه على مخاطرها رواد يقظتنا الإسلامية منذ فجر نهضتنا الحديثة، وحتى قبل وصولها إلى مرحلة الاجتياح العولمى.

- فرآها «الجبرتى» (١١٦٧ - ١٢٣٧هـ - ١٧٥٤ - ١٨٢٢م) «دهرية» لا علاقة لها بأى إيمان بأى دين من الأديان.. وذلك عندما سخر من دعوى «بونابرت» (١٧٦٩ - ١٨٢١م) وحملته الفرنسية اعتناقهم للإسلام، فقال: «إن إسلامهم نَصب.. فلقد خالفوا النصارى والمسلمين، ولم يتمسكوا من الأديان بدين، وهم دهرية معطلون، وللمعاد والحشر منكرون، وللنبوة والرسالة جاحدون»(٩).

- وكذلك رفاعة رافع الطهطاوى (١٢١٦ - ١٢٩٠هـ ١٨٠١ - ١٨٧٣م) الذى خبر ثقافة الحداثة الأوروبية فى باريس.. فرآها دنيوية طبيعية لا دينية.. يعيشها أهل باريس، الذين «ليس لهم من دين النصرانية إلا الاسم فقط.. فهم إباحيون، يقولون إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب، ولذلك لا يصدقون بشىء مما فى كتب أهل الكتاب؛ لخروجه عن الأمور الطبيعية.. ولهم فى الفلسفة حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية.. وإن كانت بلادهم من أحكم بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية.. علوم التمدن المدنى..»(١٠).

- ورآها جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ - ١٣١٤هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م) مذهبًا

للذة الحسية، يبعث من جديد مذهب «أبيقور» الكلبى (٣٤١ ـ ٢٧٠ ق.م) ـ مذهب اللذة. . والدهرية ـ على أيدى فلاسفة التنوير الوضعى اللاديني، من أمثال «فولتيــر» (١٧٣٤ ـ ١٧٧٨م) و«روسو» (١٧١٢ ـ ١٧٧٨م) اللذين «يزعمان حماية العدل ومغالبة الظلم والقيام بإنارة الأفكار وهداية العقول، فنبشا قبر أبيقور الكلبى، وأحييا ما بلى من عظام الدهريين، ونبذا كل تكليف دينى، وغرسا بذور الإباحية والاشتراك، وزعما أن الآداب الإلهية جعليات خرافية، كما زعما أن الأديان مخترعات أحدثها نقص العقل الإنسانى، وجهر كلاهما بإنكار الألوهية، ورفع كل عقيرته بالتشنيع على الأنبياء (برأهم الله مما قالا) وكثيراً ما ألف «وولتير» من الكتب فى تخطئة الأنبياء والسخرية بهم والقدح فى أنسابهم وعيب ما جاءوا به، فأخذت هذه الأباطيل من نفوس الفرنساويين، ونالت من عقولهم، فنبذوا الديانة العيسوية ونفضوا منها أيديهم.. وبعد أن أغلقوا أبوابها فتحوا على أنفسهم أبواب الشريعة المقدسة (فى زعمهم) شريعة الطبيعة..»(١١).

* * *

● وعندما قامت فى بلادنا ـ بواسطة المثقفين الموارنة ـ الذين صيغت عقولهم وثقافتهم فى مدارس الإرساليات الفرنسية ـ مؤسسات ثقافية وصحف ومجلات احترفت التبشير بثقافة الحداثة الغربية ـ وفى مقدمتها مجلة «المقتطف» (١٢٩٣ ـ ١٣٧١هـ ١٨٨٩ ـ ١٩٥٢م) ـ التى أخذت تسرب هذه الحداثة اللادينية تحت لافتات «العلم» و«النظريات العلمية» كشف «عبد الله النديم» (١٢٦١ ـ ١٣١٣هـ ١٨٤٥ ـ ١٨٩٦م) الطابع الإلحادى لهذه الثقافة الحداثية، وتحدث عن هذا الفريق من كتاب «المقتطف» واصفا إياهم بأنهم «أعداء الله وأنبيائه.. والأجراء الذين أنشئوا لهم جريدة جعلوها خزانة لترجمة كلام من لم يدينوا بدين، ممن ينسبون معجزات الأنبياء إلى الظواهر الطبيعية والتراكيب الكيماوية ويرجعون بالمكونات إلى المادة والطبيعة، منكرين وجود الإله الخالق وقد ستروا هذه الأباطيل تحت اسم فصول علمية، وما هى إلا معاول يهدمون بها عموم الأديان»(١٢).

هكذا تمتع علماء الأمة، ورواد يقظتها الإسلامية بهذا العمق ونفاذ الرؤية، فميزوا بين نهضة الغرب فى العلوم الطبيعية وتطبيقاتها، وبين وضعية ولا دينية

ثقافته الحداثية.. وهو عمق ونفاذ رؤية افتقر إليهما الذين انخدعوا بهذه الحداثة من مثقفينا المتغربين!

ولا يحسبن أحد أن هذا الذى تحدث عنه أئمة يقظتنا، من قيام القطيعة المعرفية بين ثقافة الحداثة الغربية وبين الدين، هو مما يمارى فيه الغربيون ـ كما يمارى فيه بعض المتغربين!.. فهذه القطيعة المعرفية هى من المسلمات التى يعترف بها ويعلنها دعاة هذه الحداثة، عندما يقولون: «إن أيديولوجيا التنوير قد فصلت بين عصرين من الروح البشرية: عصر الخلاصة اللاهوتية، وعصر الموسوعة لفلاسفة التنوير. ومنذ الآن فصاعداً راح الأمل بمملكة الله ينزاح لكى يخلى المكان لتقدم عصر العقل وهيمنته، وهكذا راح نظام النعمة الإلهية ينمحى ويتلاشى أمام نظام الطبيعة.. لقد أصبح الإنسان وحده مقياساً للإنسان»(١٣)!

بل إن الاعتراف الحداثى بهذه القطيعة مع الله والدين ليبلغ حد الاستفزاز لأى لون من ألوان الإيمان بأى دين من الأديان، عندما يعرّف أحد الحداثيين هذه الحداثة عند واحد من أبرز دعاتها المعاصرين ـ د. محمد أركون ـ فيقول عنها: «إنها القول بمرجعية العقل وحاكميته.. وإحلال سيادة الإنسان وسيطرته على الطبيعة مكان إمبريالية الذات الإلهية وهيمنتها على الكون»(١٤)!!

فثقافة الحداثة ـ باعتراف أهلها.. ورؤية علمائنا لحقيقتها ـ هى ثقافة القطيعة مع الله والغيب والدين.. ثقافة الدنيا والدنيوية ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤]، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٦، ٧] ثقافة الإنسان «الطبيعى ـ الحيوانى» لا ثقافة الإنسان الربانى، الخليفة لله.. ثقافة عبادة الطبيعة، بدلاً من عبادة الله!

وهذا العقل الذى ألّهته وعبدته هذه الثقافة الحداثية، عندما انتقلت به من «النسبية» إلى «الإطلاق»، قائلة: «إنه لا سلطان على العقل إلا للعقل»!، هو غير العقل والعقلانية فى الثقافة الإسلامية المؤمنة، ذلك الذى لا غنى عنه كملكة من ملكات الإنسان، ونعمة من نعم الله على هذا الإنسان، والجوهر الذى تميز به الإنسان عن غيره من المخلوقات، ومناط التكليف الإنسانى. لكنه ليس وحده

السبيل إلى المعرفة، وإنما يزامل فى هذه المهمة ويتآزر ويتآخى مع الوحى والتجربة والوجدان، لإفراز الثقافة المتوازنة.

وفى مقابل هذا التأليه الحداثى للعقل، نجد الرؤية الإسلامية التى صورها حجة الإسلام أبو حامد الغزالى (٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ ـ ١٠٥٨ ـ ١١١١م) عندما قال: «فمثال العقل: البصر السليم من الآفات والآذاء، ومثال القرآن: الشمس المنتشرة الضياء. فأخلق أن يكون طالب الاهتداء، المستغنى بأحدهما عن الآخر فى غمار الأغبياء. فالمُعرض عن العقل، مكتفيًا بنور القرآن، مثاله: المتعرض لنور الشمس مغمضا للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان. فالعقل مع الشرع نور على نور..»[١٥].

تلك هى التحديات القيمية والثقافية، التى تريد العولمة الغربية فرضها على قيمنا وثقافتنا، مهددة بذلك رؤيتنا الإسلامية للإنسان والمجتمع.. ومعاندة سنة الله فى الخلق والاجتماع والفكر، سنة التنوع والتمايز والاختلاف، التى هى قانون كونى وتكوينى، لا تبديل له ولا تحويل.

* * *

• والآن.. ما العمل؟؟

فى مواجهة هذه المخاطر والتحديات، التى تمثل «واقعا معيشًا» وليس «مجرد احتمالات»؟!

• إن على قوى اليقظة الإسلامية والعروبية ـ باعتبارها قوى الأصالة فى مجتمعاتنا ـ أن تميز فى الغرب بين «الإنسان الغربى».. و«العلم الغربى».. و«المشروع الغربى».. فنحن لا مشكلة لنا مع «الإنسان الغربى»، بل إنه قد يتحول إلى نصير لقضايانا عندما نحسن عرضها عليه.. بل وإلى متفهم لإسلامنا، ومؤمن به إذا نحن أحسنا تبليغ الدعوة، وإقامة الحجة، وإزالة الشبهة عن الإسلام.

وكذلك الحال مع «العلم الغربى»، وخاصة منه علوم التمدن، علوم عمران الواقع الحياتى.. لا مشكلة لنا مع هذا العلم، بل علينا أن نسعى إلى طلبه

وامتلاك ناصيته بكل الوسائل والطرق.. فهو من «الحكمة» التى هى ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو الأحق بها.

والمشكلة، كل المشكلة، هى فى «**المشروع الغربى**»، الذى يفرض علينا ما لا نريد، وما لا يناسب هويتنا الحضارية، وثقافتنا الإسلامية، وقيمنا الإيمانية، فى ذات الوقت الذى يحجب عنا «العلم الغربى» الذى نحتاج ونريد!.. ويضلل - بإعلامه - الإنسان الغربى؛ كى لا يتفهم حقيقة ثقافتنا وديننا وقضايانا!.. فهذا «المشروع الغربى»، يريد أن يُحل ما لا يناسبنا وما لا نريد محل ما يناسبنا وما نريد، فيحرمنا، بذلك من أبسط حقوق الإنسان.. حقوقه فى التنوع والاختلاف، واختيار النموذج الحضارى والثقافى الذى يريد!

● كذلك، على قوى اليقظة فى أمتنا العربية والإسلامية، أن تميز فى مكونات ظاهرة العولمة بين التقنيات التى تحول العالم إلى قرية واحدة، والتى هى بالنسبة لنا «فرص متاحة» للتطور والتقدم والتعلم، إذا نحن أحسنا استخدامها وتوظيفها، وحملناها بالمضامين المتسقة مع هويتنا وقيمنا الإسلامية.. علينا أن نميز بين هذه التقنيات وبين «**العولمة كأيديولوجية**» تشرع وتبرر وتكرس لهيمنة الغرب على الشرق والشمال على الجنوب، بل والعالم بأسره.. وأيضاً، أن نميز بين هذه التقنيات وبين المصالح الغربية غير المشروعة، التى تسعى إليها شركات الغرب العابرة للقارات من وراء العولمة.

إن تحول العالم، بتقنيات ثورة الاتصال إلى قرية عالمية، هو حقيقة وواقع.. ولكن أيديولوجية هيمنة العولمة الغربية لا تجعل بيوت هذه القرية وسكانها سواء؛ لأن أيديولوجية العولمة تريد السيادة «لتوازن القوى» - وهو مختل خللا فاحشًا - بدلاً من «**توازن المصالح**» والثقافات والحضارات، الذى يحقق «العالمية الإنسانية» بدلاً من «العولمة الغربية» فنحن نريد «القرية العالمية»، التى يسودها هذا التوازن فى المصالح، والتفاعل فى الثقافات.. ونرفض «القرية المعولمة» التى فيها القاتل والمقتول، ومن تُنزع سيادته عن أرض وطنه، ومن ينزع هذه السيادة من أصحابها، ومن يحرم من حقه الفطرى فى تقرير المصير، ومن يقرر مصائر الآخرين، ومن يحمى - بالقوة - طغيان الاحتكارات الرأسمالية العالمية على حساب الحمايات

الوطنية لاقتصادات الدول النامية.. فموقفنا يجب أن يكون ضد «القرية المعولمة»، ومع «القرية العالمية»..

ونحن لسنا ضد التقنيات التى تفتح الحدود وتزيل السدود، ولكننا نريد استخدام هذه التقنيات لفتح الحدود بين دول عالم الإسلام أولاً، لا أن يكون الفتح فقط لحدود كل بلد مسلم مع مركز الهيمنة الغربية.. فالتقنيات التى تفتح الحدود ـ رأسيًا ـ مع الشمال، يمكن ويجب أن تفتح حدودنا ـ أفقيًا ـ مع دول الجوار الإسلامى، لتحصل العافية التى تمكننا من تحمل رياح الشمال!..

وكذلك الحال بين عالم الإسلام ودول وحضارات الجنوب، فتساند دائرتنا الحضارية مع هذه الحضارات هو جزء من ترتيب الإمكانات لتحقيق شروط التوازن فى هذه المواجهات.

● كذلك، على قوى اليقظة والأصالة ـ الوطنية والقومية والإسلامية ـ أن تكشف عن زيف التغريب الفكرى فى بلادنا، ذلك الذى رحبت رموزه بالعولمة، باعتبارها «واقعًا.. وقطارًا.. ركوبه قضاء وقدر»، والامتناع عن اللحاق به سيودى بالرافضين والمترددين إلى مصير الهنود الحمر!

علينا أن نكشف زيف هذا «المنطق» التغريبى، بالتمييز بين «الواقع» وبين «التسليم بهذا الواقع».. فالعولمة ـ كطور جديد فى واقع وعلاقة النظام الغربى، وخاصة الأمريكى، بالعالم ـ هى حقيقة واقعة لا ينكرها إلا واهم، ولكن المطلوب هو «التعامل» مع هذا الواقع، وليس «التسليم والقبول» بهذا الواقع.

لقد جاء على عالمنا الإسلامى حين من الدهر عمته فيه بلوى الاستعمار الأوروبى الحديث.. ومن قبل واقع هذا الاستعمار الحديث، عاش عالمنا الإسلامى واقع الغزوة الصليبية، التى دامت ـ هى الأخرى ـ قرنين من الزمان [٤٨٩ ـ ٦٩٠هـ ١٠٩٦ ـ ١٢٩١م].. وإبان ذلك، واجهت أمتنا «واقع» الاحتلال العسكرى، والنهب الاقتصادى، والاستعمار الاستيطانى.. وفى مفردات ذلك «الواقع»، تحولت القدس إلى مدينة لاتينية صليبية.. والمسجد الأقصى إلى كنيسة.. والأزهر إلى إصطبل لخيل «بونابرت».. والجزائر إلى قطعة من فرنسا.. إلخ.. إلخ.. ولكن الأمة «تعاملت» مع ذلك الواقع حتى غيرته، ولم «تقبل»

به، أو «تلحق» بقطاره، فضلاً عن أن «تندمج فيـه»! . . فالاعتراف بالواقع شيء، والقبول به شيء آخر . . وتلك حقيـقة يجب أن نكشف بها زيف التغريب العولمي في بلادنا!

كما لابد مـن كشف العمالة الحـضارية للذين لم «ينبهروا» بالعـولمة فقط، وإنما رحبوا بها باعتبارها الاجتياح للقيم والثقافة الإسلامية التي يكرهون!

● كذلك، على قوى اليقظة الإسلامية والعربية أن تتخذ سبيلها لمواجهة مخاطر العولمة وتحـدياتها . . وهو سبيل تـرتيب البيت العربي الإسلامـي، لتعظيم إمكاناته الهائلة .

إن عـالم الإسلام، ومـعه حـضارات الجنوب، تمـلك من الإمكانات ما يغـرى المخلصين الواعين بترتيـبها وتعظيمها، لا للعزلة بها والانغـلاق عليها، فذلك وهم غيـر ممكن وغيـر مفـيد، وإنما لتعـديل موازين القـوى الدولية، وتحـقيق العـالمية الإنسانية، بدلاً من العولمة الغربية.

فعالم الجنوب يستورد «المواد المصنعة» من الشمال ـ وأكثرها متخلفة، والحديث منها استهلاكي لا إنتاجي ـ يستوردها الجنوب بأغلى الأسعار، بينما يصدر للشمال ـ بأرخص الأسـعار ـ ٤٠٪ من المعـادن ـ و٣٥٪ من النفط ـ و٩٣٪ من القصـدير ـ و٦٥٪ من الخشب ـ و٤٠٪ من القطن.

والعالم الإسـلامي وحده، يمتلك وطنًـا مساحتـه ٣٥ مليونًا من الكيلومـترات المربعة . . تـعيش فيـه أمة يبلغ تعـدادها نحو ربع البـشرية ١,٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠ نسمة ـ بينما في الصين قرابة هذا التعـداد على مساحة هي ١/٩ من مساحة العالم الإسلامي!

وغير الإمكانات الروحـية والحضارية والثـقافية التي يملكهـا العالم الإسلامي ـ وحدة العـقيدة . . والشريعـة . . والأمة . . والحضارة . . ودار الإسـلام ـ فإن هذا العالم هو:

ـ العالم الأول في البترول والغاز والمنجنيز والكروم والقصدير والبوكسيت.

ـ وهو العالم الثاني في النحاس والفوسفات.

- وهو العالم الثالث فى الحديد.

- وهو العالم الخامس فى الرصاص.

- وهو العالم السابع فى الفحم.

وإذا كانت أغلب ثروات العالم الإسلامى إنما تستخرج من باطن الأرض - وهى مركوزة فيها - فإن بابا واحدًا من أبواب الزكاة، وهو «زكاة الركاز» - ٢٠٪ من قيمة ما يستخرج من باطن الأرض - يمكن أن تقيم «صندوقًا لتنمية» كل العالم الإسلامى، بالحلال - وفقًا لحديث رسول الله ﷺ: «وفى الركاز الخمس» رواه البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود ومالك والإمام أحمد - وبعيدًا عن الربا الذى فاق فى فحشه ربا الجاهلية القديمة.. وخارج أغلال المؤسسات الاقتصادية للعولمة الغربية - صندوق النقد الدولى.. والبنك الدولى -..

وباستطاعة التكامل الاقتصادى أن يجعل عالم الإسلام حرًا فى مصادر غذائه، ففيه أطول أنهار الدنيا، وأقدم فلاح علم الدنيا الزراعة، ومئات الملايين من الأفدنة التى يمكن أن تزرع باستثمار الفوائض النقدية الإسلامية، المودعة فى بنوك العولمة الغربية، والتى تتآكل هناك بالمخاطر والمؤامرات!

وباستطاعة التكامل الاقتصادى أن يفتح حدود عالم الإسلام أمام التجارة البينية - التى تقف الآن عند ٨٪ من حجم هذه التجارة، بينما ٩٢٪ منها قائم بين كل دولة قطرية وبين الشمال!.. فتقنيات العولمة يمكن، وأولى بها أن تعولم عالم الإسلام أولاً، فتفتح حدوده للتجارة الإسلامية المتكاملة، وللتكامل الصناعى، وبعد ذلك يكون التعامل مع الشمال ككتلة اقتصادية.. فذلك هو قانون العصر، الذى تطبقه أوروبا، كقارة، وأمريكا، كقارة، ونحن أولى بتطبيقه؛ لأننا «أمة»، ولسنا مجرد مساحة من الجغرافيا!

ومنظماتنا الإقليمية - العربية، والإسلامية، والأفريقية - لو نُفخت فيها الروح، وتم تفعيلها، يمكن أن تمثل الشكل المعاصر لوحدة أمة الإسلام ودار الإسلام - أى الخلافة الإسلامية الجديدة - التى تزدهر فى إطار جوامعها العامة والمرنة ومصالحها المشتركة الدول القطرية والقومية.. هذا الشكل وهذه الصيغة التى أفرد لها

المرحوم الدكتور عبد الرزاق السنهورى باشا [١٣١٣ ـ ١٣٩١هـ ١٨٩٥ ـ ١٩٧١م] دراسته النفيسة عن [فقه الخلافة وتطورها لتصبح عصبة أمم إسلامية] والتى سبقه فى الإشارة إليها جمال الدين الأفغانى ـ قبل مائة وعشرين عامًا ـ عندما قال: «إن الاتفاق والتضافر على تعزيز الولاية الإسلامية من أشد أركان الديانة المحمدية. والاعتقاد به من أوليات العقائد عند المسلمين.. والدول الإسلامية متصلة الأراضى، متحدة العقيدة، يجمعهم القرآن، فلمَ لا يتفقون على الذَّبّ والإقدام كما اتفق عليهم سائر الأمم؟!.. ولو اتفقوا فليس ذلك ببدع منهم، فهو من أصول دينهم.. لا ألتمس بقول هذا أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصًا واحدًا، فإن هذا ربما كان عسيرًا، ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذى مُلك على مُلكه، يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع، فإن حياته بحياته وبقاءه ببقائه. ألا إن هذا، بعد كونه أساسًا لدينهم، تقضى به الضرورة وتحكم به الحاجة فى هذه الأوقات..»[١٦].

***

أما الخطوة الأولى على هذا الطريق ـ الشاق.. والذى هو الطوق الوحيد لنجاة الأمة ـ فهى الوعى بحقائق الواقع، وما فى هذا الواقع من «فرص» ومن «مخاطر».. واستخدام هذا الوعى فى تجديد الفكر الإسلامى، وفى الإبداع بمختلف ميادين هذا الفكر؛ ليكون لأشواقنا النهضوية «دليل العمل» الذى ينير لطلائع الأمة الطريق.. ولتكون لهذه الأمة الثقافة والآداب والفنون التى تملأ النفس الإسلامية وتغذى الوجدان الإسلامى، وتروِّح عنهما، حتى لا تملأ العولمة فراغنا الثقافى والروحى بقيم الانحلال وثقافة الحداثة اللادينية.. فما لم نملأ فراغنا بثقافة الحلال وفنونها وآدابها، فإن فراغنا هذا سيمتلئ بثقافة الانحلال..

فإذا كانت العولمة تعنى صب العالم فى قالب الحضارة الغربية المهيمنة.. اقتصادًا وسياسة وقيمًا وثقافة.. فإن العالمية الإسلامية والإنسانية تريد العالم «منتدى حضارات» تتفاعل فيما هو مشترك إنسانى عام، وتتمايز فى الهويات الحضارية والخصوصيات الثقافية؛ لتتدافع الأمم وتتسابق وتتعارف بدلاً من الصراع والهيمنة والقهر والاستغلال..

والحذر، كل الحذر.. من «الوهن» و«ثقافة الهزيمة النفسية».. فالغرب المتجبر اليوم، عاش قرونًا من البؤس والتخلف والرجعية والتحجر والجمود والظلام.. وما زقنا الحضارى الراهن، يجب ألا ينسينا أننا عشنا العالم الأول على ظهر هذا الكوكب لأكثر من عشرة قرون، بينما عمر الغرب كعالم أول لم يتجاوز القرنين من الزمان!.

وللتقدم وللتراجع سنن وقوانين.. وهى ليست خطا صاعدًا أبدًا، أو هابطًا باستمرار، ولكنها دورات.. وصدق رسول الله ﷺ، إذ يقول: «لا يلبث الجور بعدى إلا قليلاً حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله، حتى يولد فى الجور من لا يعرف غيره، ثم يأتى الله تبارك وتعالى بالعدل، فكلما جاء من العدل شيء ذهب من الجور مثله، حتى يولد فى العدل من لا يعرف غيره» رواه الإمام أحمد.

وإذا كنا نألم مما أصابنا من القرح.. فإن أهل العولمة أيضًا يألمون.. وآمال النهوض من مأزقنا الحضارى لا ييأس منها إلا القوم الكافرون.. وصدق الله العظيم:

﴿ هذا بيانٌ للناس وهدى وموعظةٌ للمتقين (١٣٨) ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين (١٣٩) إن يمسسكم قرحٌ فقد مس القوم قرحٌ مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين (١٤٠) وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين (١٤١) أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ [آل عمران: ١٣٨ - ١٤٢].

﴿ ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً ﴾ [النساء: ١٠٤].

والله من وراء القصد.. منه نستمد العون والتوفيق.

* * *

● الهوامش

(١) (مشروع برنامج عمل المؤتمر الدولي للسكان والتنمية) القاهرة في ٥ ـ ١٥ سبتمبر سنة ١٩٩٤م ـ الترجمة العربية الرسمية ـ الفصل الثاني عشر ـ الفقرة: ٢٤ طبعة سنة ١٩٩٤م.

(٢) المصدر السابق، الفصل الخامس الفقرة: ٥ والفصل الثاني: المبدأ: ٧، والفصل السابع الفقرات ١٠ ـ ١٢، ١٤، ١٧، ١٨، ٢١.

(٣) المصدر السابق، الفصل الرابع، الفقرات ١١، ٢٦.

(٤) المصدر السابق، الفصل السابع، الفقرة ١٠.

(٥) المصدر السابق، الفصل السابع، الفقرات: ٢، ٣، ٥، ٤.

(٦) المصدر السابق: الفصل الثامن، الفقرات: ٣٥، ٣١ والفصل السابع الفقرات ٣٦، ٣٤، ٣٢.

(٧) المصدر السابق، الفصل السادس، الفقرة: ٧ والفصل الرابع: الفقرة: ٢١.

(٨) المصدر السابق، الفصل السادس، الفقرة: ٧، ١١ والفصل السابع، الفقرات: ٢، ٥، ٩، ٤٣ ـ ٤٦، ٤١ والفصل الحادي عشر الفقرة: ٨.

(٩) (مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس) ص٣٤ تحقيق: حسن محمد جوهر، عمر الدسوقي طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩م.

(١٠) (الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي) جـ٢ ص١٥٩ دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.

(١١) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) ص١٦١، ١٦٢ دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.

(١٢) مجلة (الأستاذ) القاهرة العدد ٣٩ ـ ص٩٢٣، ٩٢٤ في ٧ ذي القعدة سنة ١٣١٠هـ مايو سنة ١٨٩٣م.

(١٣) هاشم صالح مجلة (الوحدة) المغرب عدد فبراير ـ مارس سنة ١٩٩٣م ص٢٠، ٢١ وهو ينقل عن كتاب: إميل بولا (الحرية، العلمنة: حرب شطري فرنسا ومبدأ الحداثة) منشورات سيرف باريس سنة ١٩٨٧م.

(١٤) د. علي حرب «مسيرة التقدم والحداثة بين أنصاف زيتون وأشباه أركون» صحيفة (الحياة) لندن في ١٨ ـ ١١ ـ ١٩٩٦م.

(١٥) (الاقتصاد في الاعتقاد) ص٢، ٣ طبعة مكتبة صبيح ـ القاهرة ـ بدون تاريخ.

(١٦) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) جـ٢ ص٢٧ ـ ٢٩ دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٨١م.

* * *

فلسفة المشروع الحضارى

فى القرآن الكريم يقترن الحديث عن «الإيمان» بالحديث عن «العمل».

وفى النشأة والتبلور والنمو للعلوم الإسلامية، الشرعية منها والاجتماعية والطبيعية، كانت البداية للتطبيقات، ومنها.. وبعد تراكمها.. استخلصت القواعد والمناهج والنظريات.. بل إن حضارتنا الإسلامية قد تميز تراثها الفكرى بالاقتصاد الشديد فى التآليف التى انفردت بالمنهجيات والتجريدات والنظريات، وجاءت هذه الجهود الفكرية، العالية المستوى، فى ثنايا العلوم التى توجهت إلى ميادين الممارسة والتطبيق.. وهذه الميزة والخصوصية يحسبها البعض ـ من الذين تأثروا بالنموذج اليونانى.. الذى انفصل فيه العمل الذهنى عن العمل اليدوى، والفكر النظرى عن الممارسات العملية ـ يحسبها هذا البعض نقيصة تعكس فقرا فى الفكر المنهجى والتجريدى بحضارتنا الإسلامية، بينما هى ميزة وخصوصية جسدت موقفًا حضاريًا إسلاميًا من «العمل» مزج الذهنى منه بالعملى، على النحو الذى ربط فيه الوحى الإلهى بين العمل وبين الإيمان..

* * *

وفى العقود الأخيرة، برزت كثير من الدعوات التى تطلب من الفلسفة أن تنزل من «الأبراج العاجية» لتعالج مشكلات الأمة وبسطاء الناس.. وعقدت مؤتمرات فلسفية عالمية تبحث دور الفلسفة فى حياة «رجل الشارع».. لكن أحداً لم يلتفت إلى أن هذه «المشكلة» التى تداعت هذه المؤتمرات إلى البحث فيها إنما هى «مشكلة يونانية» المنشأ، منذ أن كان كل «الشرف» لقلة من الأحرار الذين يحترفون العمل الذهنى، وكل «الدونية» لجماهير الأرقاء الذين يحترفون ـ بل ويسجنون ـ فى العمل اليدوى!.. وأن الحضارة الإسلامية قد تميزت، انطلاقًا من القرآن الكريم ـ البلاغ الإلهى ـ الذى جسدته السنة ـ بيانًا نبويًا عمليًا ـ بالمزج بين النظريات

والممارسات، حتى لقد اقتصد تراثها فى التآليف التى ميزت التجريدات النظرية عن العلم التطبيقى لهذه النظريات.

* * *

وإذا كان الاحتكاك الحضارى بين عالم الإسلام وبين الغرب ـ العنيف منه والسلمى ـ فى القرنين الأخيرين ـ قد طرح على العقل العربى والمسلم، ضرورة «النهضة» كطوق نجاة من المأزق الحضارى ـ الذى يمثل «الجمود.. والتقليد.. والتخلف الموروث» عن عصور التراجع الحضارى، أحد جناحيه.. بينما تمثل «التبعية.. والتقليد للنموذج الغربى فى التحديث» جناحه الآخر ـ حتى لقد أصبحت قضية «النهضة» المنشودة، ومعالم مشروعها الحضارى، هى محور الاتفاق وبؤرة الاختلاف ومجال التحالف وميدان الصراع بين كل تيارات الفكر فى وطن العروبة وعالم الإسلام.. بل لقد تزايدت مركزيتها فى الحياة العقلية لأمتنا مع هذه المتغيرات الفكرية التى شهدتها وتشهدها الساحة الغربية والعالمية فى العقود الأخيرة ـ والتى سقطت فيها فكريات وفلسفات.. وتراجعت فيها أيديولوجيات ونظريات.. وزادت فيها علامات الاستفهام ومساحات المجهول مع زيادة الإجابات ومساحات ما هو معلوم للإنسان؟!..

إذا كانت هذه إحدى الحقائق الكبرى فى حياتنا الفكرية المعاصرة.. فإن البحث فى «فلسفة مشروع النهضة العربية الإسلامية»، قد غدا ويغدو الصورة المعاصرة لإنزال الفلسفة من أبراجها العاجية لتبحث المشكلة المحورية للأمة ـ مشكلة «النهضة» ـ والسبيل لإنارة طريق الأمة وهى تواجه المأزق الحضارى الذى يأخذ منها بالخناق...

وفى محاولة للإسهام بهذه المهمة.. مهمة بلورة «فلسفة المشروع النهضوى للأمة»، تأتى هذه الصفحات..

* * *

لقد واجهت أمتنا الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة ـ التى كشفت اتساع وعمق الهوة بين تخلفنا الحضارى وبين النهضة الغربية الحديثة ـ واجهتها بالدعوة إلى «التغيير» طلبا «للنهوض».. وكانت كلمات العالم المجدد الشيخ حسن العطار

[١١٨٠ ـ ١٢٥٠هـ ١٧٦٦ ـ ١٨٣٥م]: «إن بلادنا لابد أن تتغير، ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها»!.. إيذانا بطرح مشكلة «التغيير.. والتجديد.. والنهضة» ـ فى إلحاح ـ على العقل العربى والمسلم، قبل قرنين من الزمان.

لكن هذه الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة، قد تميزت عن سابقتها الصليبية الوسيطة [٤٨٩ ـ ٦٩٠ هـ ١٠٩٦ ـ ١٢٩١م] بمقاصد جديدة.. فهى لم تأت فقط، لتحتل الأرض، وتنهب الثروة، وإنما أرادت ـ لتأبيد ذلك ـ احتلال العقل، بتغريب الفكر؛ كى تكون التبعية للمركز الغربى، خيارنا الذاتى، حتى بعد جلاء جيوش الاحتلال؟!.. ولذلك، جاءتنا هذه الغزوة ـ مع المدفع والبارود.. وشركات الاستغلال والنهب الاقتصادى ـ بالبعثات العلمية... والمناهج الفكرية.. ومؤسسات التعليم والثقافة والإعلام التى تعيد صياغة العقل والوجدان فى بلادنا، صياغة تجعل النموذج الغربى هو أداة الربط لعالمنا بالغرب، كالمركز الحضارى النموذجى القائد والوحيد!

ولهذه «النازلة» التى طرأت على الساحة الفكرية فى بلادنا، لم تعد المرجعية الإسلامية ـ كما كانت عبر تاريخنا الطويل ـ هى المنطلق الوحيد لكل دعوات وحركات وأعلام التجديد والنهوض والتغيير.. وإنما ازدوجت المنطلقات، وتعددت المرجعيات.. فأصبح «النموذج الغربى» بتياراته ومدارسه ومذاهبه ـ يزاحم «المرجعية الإسلامية» إن فى المنطلقات والفلسفات.. أو فى المقاصد والغايات ـ لدى التيارات الفكرية والسياسية الساعية إلى النهوض والتغيير.

وزاد من حدة الصراع حول «فلسفة المشروع الحضارى» بين دعاة التغريب وبين أنصار الإحياء الإسلامى، انتصار السلطة الاستعمارية ـ التى ملكت ناصية الحكم وزمام الأمر وصناعة القرار فى طول العالم الإسلامى وعرضه ـ انتصارها لخيار تغريب مشروع النهضة والتحديث.. حتى لقد بلغ الأمر بها حد «إلزام» دولنا ـ المحتلة.. والتابعة ـ بأن تسير سيرة الغرب فى «الحكم.. والإدارة.. والتشريع»؟! وشهد بهذا «الإلزام» شاهد من أهلها.. فكتب الدكتور طه حسين [١٣٠٦ ـ ١٣٩٣هـ ١٨٨٩ ـ ١٩٧٣م] يقول: «لقد التزمنا أمام أوروبا أن نذهب مذهبها فى الحكم، ونسير سيرتها فى الإدارة، ونسلك طريقها فى التشريع. التزمنا هذا كله أمام

أوروبا. وهل كان إمضاء معاهدة الاستقلال[١] ومعاهدة إلغاء الامتيازات[٢] إلا التزامًا صريحًا قاطعًا أمام العالم المتحضر بأن تسير سيرة الأوروبيين فى الحكم والإدارة والتشريع؟ فلو أننا هممنا الآن أن نعود أدراجنا وأن نحيى النظم العتيقة لما وجدنا إلى ذلك سبيلاً، ولوجدنا أمامنا عقبابًا لا تُجاز ولا تذلل، عقابا نقيمها نحن.. وعقابا تقيمها أوروبا؛ لأننا عاهدناها على أن نسايرها ونجاريها فى طريق الحضارة الحديثة»[٣]؟!

لقد انعقد الإلزام والالتزام، على اختيار النموذج الغربى للتحديث، سبيلاً للتقدم فى بلادنا، بين مؤسسات المشروع الاستعمارى الغربى وبين النخب الثقافية العربية والمسلمة، التى صنعها الاستعمار فى بلادنا على عينه، وصاغ عقولها ووجداناتها وتوجهاتها وفق فلسفات مرجعيته الفكرية.. فليبراليتنا.. وشموليتنا.. ورأسماليتنا.. واشتراكيتنا.. ووضعيتنا.. وماديتنا.. ومثاليتنا.. إلخ.. إلخ.. غدت امتدادًا لأصولها ومذاهبها الغربية.. بل لقد صنعوا لنا فكرًا «إسلاميًا» يحاكى النصرانية، التى تقف عند خلاص الروح ومملكة السماء، وذلك حتى تكون «الدولة» و«الدنيا» و«العمران» تحت مظلة «العلمانية» التى تعزل السماء والشريعة والدين عن هذه الميادين؟!

لكن اقتحام النموذج الغربى لميدان «المرجعية» فى بلادنا، لم يستطع إجلاء «النموذج الإسلامى» من هذا الميدان.. بل لقد استنفر هذا الاقتحام دعوات وأعلام الإحياء والتجديد الإسلامى للاجتهاد والإبداع فى بلورة الفلسفة الإسلامية لمشروع النهضة، وصياغة المعالم والسمات المحددة والمميزة للخصوصية الإسلامية فى هذا المشروع.

● فمن رفاعة الطهطاوى [١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ ١٨٠١ - ١٨٧٣م] الذى رفض «الوضعية الغربية» مقررًا «أن تحسين النواميس الطبيعية لا يُعْتَدّ به إلا إذا قرره الشارع.. وينبغى تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع، لا بطرق العقول المجردة».. والذى رفض القوانين الوضعية الغربية، ودعا إلى تحكيم فقه المعاملات الإسلامى «لأن بحر الشريعة الغراء لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقى والرى»[٤].

● إلى جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م) الذى دعا إلى اتخاذ الإسلام مرجعية لمشروع النهضة.. لأن «الدين قوام الأمم، وبه فلاحها، وفيه سعادتها، وعليه مدارها.. وهو النظام المدنى الحقيقى.. والسبب المفرد لسعادة الإنسان.. يرفع أعلام المدنية لطلابها، بل يفيض على المتمدين من ديم الكمال العقلى والنفسى ما يظفرهم بسعادة الدارين».

والذى حذر من تقليد نموذج «التمدن الغربى»؛ لأن فيه «نفيا لثروة الأمة إلى غير بلادها، وإماتة لأرباب الصنائع من قومنا، وجدعًا لأنف الأمة يشوه وجهها ويحط بشأنها. ولقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة، المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها.. وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم..»[5]؟!

● إلى الإمام محمد عبده [١٢٦٥ ـ ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] الذى قطع بعبثية وفشل أى مشروع للنهضة الإسلامية لا يكون الإسلام هو مرجعيته ومنطلقه، وذلك «أن سبيل الدين، لمريد الإصلاح فى المسلمين، سبيل لا مندوحة عنها، فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين، يحوجه إلى إنشاء بناء جديد، ليس عنده من مواده شيء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدًا.. وإذا كان الدين كافلاً بتهذيب الأخلاق، وصلاح الأعمال، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة فيه ما ليس لهم فى غيره، وهو حاضر لديهم، والعناء فى إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به، فلم العدول عنه إلى غيره؟!..»[6].

● إلى الإمام محمد رشيد رضا [١٢٨٢ ـ ١٣٥٤هـ ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م] الذى حدد تميز مشروعنا النهضوى، فى ضوء العلاقة بين «خصوصيته» وبين «التفاعل» مع النموذج الغربى، فقال: «إننا فى أشد الحاجة إلى الصناعات الإفرنجية وما تتوقف عليه من العلوم والفنون العملية، وإلى الاعتبار بتاريخهم وأطوار حكوماتهم وجماعاتهم، ولكن يجب أن يقوم باقتباس ذلك جماعات منا يجمعون بينه وبين حفظ مقوماتنا وشخصياتنا، وأركانها: اللغة، والدين، والشريعة، والآداب.

فمن فقد شيئًا من هذه الأشياء فقد فقدَ جزءًا من نفسه، لا يمكن أن يستغنى عنه بمثله من غيره، كما أنه لا يستغنى بعقل غيره عن عقله ولا بجسم سواه عن جسمه، وإنما نستفيد من العبرة بحالهم، كيف نرقى لغتنا كما رقوا لغاتهم، وكيف ننشر ديننا كما ينشرون دينهم، وكيف نسهل طرق العمل بشريعتنا وآدابنا كما سهلوا طرق شرائعهم وآدابهم..»(٧).

● إلى الإمام حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨هـ ١٩٠٦ - ١٩٤٩م] الذى تحدث عن إفلاس الخيار الحضارى الغربى، حتى فى بلاده، وعن انفتاح الباب وانفساح الأفق أمام إسلامية مشروع النهضة، فقال: «إن مدنية الغرب، التى زهت بجمالها العلمى حينا من الدهر، وأخضعت العالم كله بنتائج هذا العلم لدوله وأممه، تفلس الآن وتندحر، وتندك أصولها وتنهدم نظمها وقواعدها. فهذه أصولها السياسية تقوضها الدكتاتوريات، وأصولها الاقتصادية تجتاحها الأزمات، ويشهد ضدها ملايين البائسين من العاطلين والجائعين، وأصولها الاجتماعية تقضى عليها المذاهب الشاذة والثورات المندلعة فى كل مكان، وقد حار القوم فى علاجها وضلوا السبيل.. والإنسانية المعذبة فى أشد الحاجة إلى عذب من سؤر الإسلام الحنيف يغسل عنها أوضار الشقاء، ويأخذ بيدها إلى السعادة.

لقد كانت قيادة الدنيا، فى وقت ما، شرقية بحتة، ثم صارت بعد ظهور اليونان والرومان غربية، ثم نقلتها النبوات الموسوية والعيسوية والمحمدية إلى الشرق مرة ثانية. ثم غفا الشرق غفوته الكبرى، ونهض الغرب نهضته الحديثة، فكانت سنة الله التى لا تتخلف، وورث الغرب القيادة العالمية. وها هو الغرب يظلم ويجور ويطغى ويحار ويتخبط، فلم يبق إلا أن تمتد يد «شرقية» قوية يظللها لواء الله، وتخفق على رأسها راية القرآن، ويمدها جند الإيمان القوى المتين، فإذا بالدنيا مسلمة هانئة، وإذا بالعوالم هاتفة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾(٨).. ليس ذلك من الخيال فى شىء، بل هو حكم التاريخ..»(٩).

* * *

هكذا، دار واحتدم الصراع بين تيارات الفكر فى وطن العروبة وعالم الإسلام، على امتداد القرنين الماضيين، حول «فلسفة المشروع الحضارى».. والمرجعية

والنموذج للنهضة المنشودة لإخراج الأمة من هذا المأزق الذى يسد عليها طريق التقدم والارتقاء والانعتاق.

* * *

• **الهوامش**

(١) الإشارة إلى معاهدة سنة ١٩٣٦م «الإنجليزية - المصرية».

(٢) أى معاهدة «مونترو» لإلغاء الامتيازات الأجنبية فى مصر - تدريجيًا - سنة ١٩٣٨م

(٣) (مستقبل الثقافة فى مصر) جـ١ ص٣٦، ٣٧ طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨م.

(٤) (الأعمال الكاملة) ج٢ ص١٥٩، ١٦٠، ٧٩، ٣٢، ٤٧٧، ٣٨٦، ٣٨٧، جـ١ ص٥٤٤، ٣٦٩، ٣٧٠ دراسة وتحقيق. دكتور محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.

(٥) (الأعمال الكاملة) ص١٣١، ١٧٢، ١٧٣، ١٩٥ - ١٩٧ دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.

(٦) (الأعمال الكاملة) جـ٣ ص٢٤٨. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.

(٧) مجلة (المنار) المجلد ١٧ جـ١ ص١٠.

(٨) الأعراف: ٤٣.

(٩) (مجموعة رسائل الإمام الشهيد) رسالة «نحو النور» ص٥٩، ٦٠ طبعة دار الشهاب. القاهرة بدون تاريخ.

* * *

الشيخ سعد زغلول باشا: ابن الأزهر الشريف

كثيرون هم الزعماء والقادة الذين أنجبتهم مصر، والذين فتح الشعب لهم أبواب العقول والقلوب، غير أن سعد زغلول قد تميّز وامتاز من بين هؤلاء الزعماء والقادة بأنه لم يكن زعيمًا لنخبة أو صفوة، ولا قائدًا لحزب أو طبقة، ولا فقيهًا لمذهب ومُنَظِّرًا «لأيديولوچية».. وإنما كان القائد المحبوب ـ وليس فقط المقبول ـ من الأمة والكافة والعامة والجمهور، على اختلاف مذاهب وطبقات وديانات الكافة والجمهور. لقد فتحت له الأمة عقولها، وأسكنته في قلوبها، واحتضنته في ضمائرها.. ورأت فيه «غزال البرّ» فتطلعت إلى «عين الشمس»؛ كي تظلله في الغدوات والروحات!

وكما علقت عليه الأمة آمالها، فلقد منحته الحب والاحترام معًا، بل وكانت تخاف عليه من كل سوء، وتغار عليه من المنافسين، فضلاً عن الخصوم.

لقد تنازعت انتسابه إليها وانتسابها إليه كل الطبقات والتوجهات والديانات.. المسلمون والنصارى المثقفون والعامة.. المعممون والمطربشون.. الطبقات «العليا» والفلاحون والعمال «الصنايعية» حتى لقد افتخر هو بانتمائه إلى «الرعاع»! فقال وهو يخطب في العمال: «إنني أفرح كثيرًا، وأُسر كثيرًا، كلما شعرت أن هذه الحركة ـ [الثورة.. والنهضة] ـ ليست فيما يسمونه بالطبقة العالية فقط، بل هي منبثة أيضًا وعلى الأخص في الطبقة التي سماها حسادنا «طبقة الرعاع»!. وأفتخر بأني من الرعاع مثلكم!» فانخرط العمال في هتاف متكرر: «ليحيى سعد زعيم الرعاع»[1]!..

ولعل سعدًا كان الزعيم الوحيد بين زعماء مصر الحديثة، الذي تعلقت به الجماهير التي لا علاقة لها بالسياسة أو الحزبية، فتحالفت العواطف مع الوعي

على جعل الفطرة الشعبية تتعلق به وكأنه أسطورة من الأساطير في حياة هذه الجماهير.

لقد ولدتُ ـ بالريف ـ بعد وفاة سعد زغلول بأربع سنوات، ولقد وعت ذاكرتي مكانة سعد زغلول كبطل أسطوري تُحكي حوله الكرامات وخوارق العادات، في مناخ تطغى عليه الأمية، ولا يوجد فيه تنظيم لحزب الوفد، بل لا توجد فيه سوى فطرة الناس البسطاء. فحتى أصوات الحيوانات تهتف «بحياة سعد»!!.. وحتى أوراق المزروعات تنبت وتتفتح ومكتوب عليها «يحيا سعد»!!.. وذلك فضلاً عن الأغاني الشعبية التي تعبر ـ بالحب لسعد زغلول ـ عن مكانته المتفردة في قلوب الكافة من الناس.

ولعل هذه الحقيقة، من حقائق تميّز وامتياز زعامة سعد زغلول، أن تجد من الدارسين الدراسات التي تكشف عن أسبابها وأسرارها.

فهو لم يكن الفلاح الوحيد الذي يقود الأمة.. ولم يكن الأزهري الوحيد الذي تتعلق به آمال الكافة.. ولم يكن السياسي الوحيد الذي يتصدى للاحتلال والاستعمار.. وإنما كان المتفرد بين هذه الزعامات بالمكانة التي خصته بها الأمة من بين مواكب الزعماء والقادة الذين أنجبتهم مصر الولود.

أما هذه الصفحات المحدودة، فإن مقاصدها المحددة هي الكشف عن الأثر الإسلامي للتعليم الأزهري على هذا الزعيم.. الشيخ سعد زغلول باشا، ابن الأزهر الشريف.

* * *

لقد ولد سعد زغلول [١٢٧٣ ـ ١٣٤٦هـ ١٨٥٧ ـ ١٩٢٧م] في قرية «إبيانة»، مركز «فُوَّة»، محافظة «الغربية» ـ «كفر الشيخ» حاليًا ـ إبان حكم الخديوي سعيد [١٢٣٧ ـ ١٢٧٩هـ ١٨٢٢ ـ ١٨٦٣م] لمصر، وكانت مصر ـ يومئذ ـ ولاية لها استقلالها الذاتي في إطار الإمبراطورية العثمانية.

وكان والده ـ إبراهيم زغلول ـ عمدة القرية، فوهبه للعلم الديني، والدراسة بالأزهر الشريف..

• فدخل سعد كُتّاب القرية، وهو فى السابعة من عمره، وقضى به خمس سنوات، حفظ فيها القرآن الكريم.

• وفى سنة ١٢٨٧هـ سنة ١٨٧٠م عُيِّن أخوه الأكبر «الشناوى أفندى» رئيسًا لمجلس مركز «دسوق» المجاور لمركز «فُوّة» فاصطحب الشناوى أفندى معه أخاه سعدا، وألحقه «بالجامع الدسوقى» ـ التابع للأزهر الشريف ـ فبدأ فيه تجويد القرآن الكريم.

وأذكرُ أننا ونحن طلاب «بمعهد دسوق الدينى الابتدائى»، بين سنة ١٣٦٤هـ سنة ١٩٤٥م وسنة ١٣٦٨هـ سنة ١٩٤٩م، أننا كنا نمر على منزل ظهرت عليه آثار القدم، قالوا لنا: إنه المنزل الذى كان يسكن فيه سعد زغلول، عندما بدأ رحلته الدراسية فى الأزهر الشريف ـ بمدينة «دسوق».

• وفى سنة ١٢٩٠هـ سنة ١٨٧٣م انتقل سعد زغلول من الدراسة «بالجامع الدسوقى» إلى الدراسة بالجامع الأزهر، بالقاهرة وبدأ تلقى دروس الفقه ـ على مذهب الإمام الشافعى ـ فى «زاوية العدوى» بالقرب من الجامع الأزهر ـ ثم انتقل إلى الدراسة فى ذات الجامع الأزهر.

وكان الطالب، فى ذلك التاريخ، هو الذى يختار شيخه والحلقة التى يتلقى فيها دروسه.. ويختار أيضًا العلوم والكتب التى يريد مواصلة دراستها والتخصص فيها.

• وفى ذلك التاريخ، كان جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م] قد استقر به المقام فى مصر، وانتظمت دروس علمه وتجديده وثوريته فى منزله ـ قريبًا من الجامع الأزهر ـ وكان الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] الطالب الأزهرى، الذى يكبر سعد زغلول بعشر سنوات، قد أصبح أنجب تلاميذ جمال الدين الأفغانى، حتى كان ـ قبل تخرّجه من الأزهر ـ يعقد حلقة درس ـ بالجامع الأزهر ـ يعيد فيها على الطلاب ما سمعه من أستاذه الأفغانى، من علوم وفنون كانت غريبة عن المناهج الأزهرية فى ذلك الحين..

فتتلمذ عليه ـ فى هذه الحلقة ـ الطالب سعد زغلول.. وقادته هذه التلمذة إلى دروس موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام جمال الدين الأفغانى.

وكما كان محمد عبده أنجب تلاميذ الأفغاني، وأقربهم إلى قلبه، أصبح سعد زغلول أنجب تلاميذ محمد عبده، بل لقد صار محمد عبده بالنسبة له أبا وشيخا ورائداً ومربياً..

● وعلى يدى جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده أصبح «الشيخ سعد زغلول» طالب الأزهر - واحداً من دعاة الإصلاح، وواحداً من الذين تعلموا فن الكتابة وصناعة الإنشاء وتحرير المقالات.. وبتشجيع من الأفغاني نشرت له صحيفة (التجارة) التى كانت إحدى الصحف التى أصدرها الأفغاني «بالإسكندرية» ورأس تحريرها «أديب إسحاق» (١٢٧٢ - ١٣٠٢هـ ١٨٥٦ - ١٨٨٥م) «وسليم نقاش» (١٣٠١هـ ١٨٨٤م) نشرت للشيخ سعد مقالا عن «الحرية»، علق عليه أستاذه الأفغاني فقال: «**إنه مما يدل على أن الحرية ناشئة فى مصر أن يجيد الكتابة عنها هذا الناشئ» - سعد زغلول -**.. فكانت الحرية هى الباب الذى ولج منه الشيخ سعد إلى عالم الإصلاح والإبداع!

● ولأن هذا الحزب الإصلاحى، كان يعوّل - فى الدعوة الإصلاحية - على تجديد مناهج المؤسسة العلمية الأم - الأزهر الشريف - كطريق لإصلاح وتجديد دنيا المسلمين... كتب الطالب الشيخ سعد زغلول «منشوراً» يدعو فيه إلى إصلاح الأزهر الشريف، ونسخ منه سبع نسخ، وعلّقها - ليلاً - على أعمدة الجامع الأزهر؛ ليقرأها الطلاب فى الصباح!

● ومع التحرير فى الصحف.. والانخراط فى الدعوة إلى الإصلاح: التعليمى.. والفكرى.. والوطنى.. توجه الطالب الشيخ سعد زغلول إلى حقل التأليف، فكانت باكورة تآليفه كتابا فى [فقه الشافعية] ولقد طبع هذا الكتاب، ونفدت طبعته الأولى. «وكان الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى (١٢٩٨ - ١٣٦٤هـ ١٨٨١ - ١٩٤٥م) يحتفظ فى مكتبته بنسخة منه، وذات يوم كان لطفى السيد باشا (١٢٨٨ - ١٣٨٢هـ ١٨٧٠ - ١٩٦٣م) يزور الشيخ المراغى بداره فى «حلوان» وجرى الحديث بينهما فى العلم والفلسفة والزعماء. فقال لطفى السيد:

- إن بين الزعماء السياسيين نوابغ لو تفرغوا بعض الوقت للتأليف والإنتاج لأفادوا فائدة عظيمة.

وهنا ابتسم الشيخ المراغى، وقال له:

ـ هل تعلم أن المرحوم سعد زغلول باشا ألّف كتابًا فى الفقه؟

فشغف لطفى السيد للاطّلاع على هذا الكتاب، فقام الشيخ المراغى إلى مكتبته، وأحضر الكتاب، فتناوله لطفى السيد فى نهم، وقلّب صفحاته، وهو يقول:

ـ عجيبة!..

وأزاح لطفى السيد غلاف الكتاب وقرأ اسمه، وقد كتب ناشر الكتاب تحت عنوانه ما يلى: «**ألّفه الفقير إلى الله تعالى الشيخ سعد زغلول، الشافعى المذهب، من طلاب الأزهر الشريف**»(٢).

● وبينما كان الشيخ سعد زغلول فى عام التخرج من الأزهر الشريف، وقبل أداء امتحان العالمية، تولى شيخه محمد عبده رئاسة تحرير صحيفة «الوقائع المصرية»، فترك الشيخ سعد الأزهر، وأصبح محررًا فى «الوقائع» منذ ٥ أكتوبر سنة ١٨٨٠م وفيها تجلت مواهبه فى الكتابة والتحرير.. ولقد استمر فيها شيخًا معممًا إلى ٣ مايو سنة ١٨٨٢م، حين عيّن ـ أيام وزارة محمود سامى البارودى باشا (١٢٥٥ ـ ١٣٢٢هـ ١٨٣٩ ـ ١٩٠٤م) ـ «معاونًا» بنظارة الداخلية، فأصبح الشيخ سعد «سعد أفندى» منذ ذلك التاريخ.. وإن ظل فى نظر ولغة جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده «الشيخ سعد» دائمًا وأبدًا.

● وفى ٦ سبتمبر سنة ١٨٨٢م ـ إبان المقاومة الوطنية للغزو الإنجليزى لمصر ـ انتقل سعد زغلول إلى وظيفة «باشمعاون»، وتولى نظارة قلم القضايا بمديرية الجيزة.

● وظل الموقع الأول، والوظيفة الأساسية «للشيخ سعد زغلول» هى وظيفة المريد والتلميذ لوالده وشيخه ومربيه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده. فانخرط معه فى الثورة العرابية، والمقاومة للغزو الإنجليزى، ونادى «**بالجهاد الدينى**» ضد **الإنجليز**.. ولعب دورًا فى نقل الرسائل بين محمد عبده وقيادة الثورة ـ بالقاهرة ـ وبين زعيم الثورة وقائد الجهادية أحمد عرابى باشا (١٢٥٧ ـ ١٣٢٩هـ ١٨٤١ ـ ١٩١١م) فى جبهة القتال..

● وبعد هزيمة الثورة العرابية فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢م.. نال سعد زغلول ما نال الثوار.. ففصل من وظيفته فى ٢ أكتوبر سنة ١٨٨٢م.. وصدر بحقه قرار «الحرمان المدنى» فاتجه إلى العمل الحر، واشتغل بالمحاماة، وافتتح «مكتبًا للدعاوى».. ثم قُبض عليه فى ٢٠ يونية سنة ١٨٨٣م بتهمة عضوية جمعية سرية معادية ومقاومة للاحتلال الإنجليزى - اسمها «جمعية الانتقام» - وقضى فى السجن ثلاثة أشهر، حتى برأته المحكمة؛ لعدم ثبوت أدلة الاتهام.. ولقد أحرجت هذه البراءة سلطات الاحتلال، فعدلت عن قرارها نفيه إلى السودان - كما نفت أستاذه وشيخه محمد عبده من البلاد.

● وعندما فك الإنجليز سراح جمال الدين الأفغانى، فى منفاه بالهند - عقب هزيمة الثورة العرابية - فغادر الهند إلى أوروبا.. وكتب أثناء عبوره «قناة السويس» - من ميناء «بورسعيد».. أو «بورت سعيد» - كتب رسالة إلى محمد عبده - فى منفاه ببيروت - بتاريخ ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٨٣م ٢٢ ذى القعدة سنة ١٣٠٠هـ - طالبا منه اللحاق به في باريس.. وفى هذه الرسالة أثنى الأفغانى على سعد زغلول، فقال: «.. وأثنى على الشابين الأديبين: السيد إبراهيم اللقانى والشيخ سعد الزغلول..»[٣].

● وطوال سنوات وجود محمد عبده بالمنفى، كانت الصلات والمراسلات قائمة ودائمة بينه وبين الشيخ سعد زغلول. وتشهد هذه المراسلات على مكانة سعد من الأستاذ الإمام، وهى مكانة الابن والتلميذ والمريد والساعد الأيمن والمؤتمن على الأسرار، الذى يعهد إليه محمد عبده بالخاص والعام من المهام والشئون.

وإذا شئنا نماذج من الرسائل الجوابية التى كتبها الشيخ سعد إلى أستاذه - وهو ببيروت - والتى تكشف عن مستوى هذه العلاقة.. فهذه ثلاث رسائل، يبدأ الشيخ سعد واحدة منها، مخاطبًا شيخه محمد عبده بعبارة: «مولاى الأفضل، ووالدى الأكمل» ويصف نفسه فيهما بأنه: «خرّيج حِكَم الأستاذ الإمام، والناشئ فى نعمه وصنيع آدابه، والمحفوف بعنايته، والمشمول بعين رعايته». ولقد كانت الرسالة الأولى جوابًا على أول رسالة كتبها محمد عبده من منفاه فى بيروت.. ونصها:

«من مصر ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٣٠٠[٤] إلى بيروت.

مولاى الأفضل، ووالدى الأكمل، أحسن الله معاده.

بعد تقبيل الأيدى الكريمة: قد ورد الكتاب الكريم على طول تشوقنا إليه، فتلوناه ووعيناه فى الفؤاد، وحمدنا الله تعالى على أن شرفتم تلك الديار سالمين، مبالغًا فى إكرامكم والاحتفال بكم من كرام أعيانها المسلمين، وأماجد نبهائها المؤمنين، جزاهم الله عن كل مصرى يعرف مقداركم خير الجزاء.

ولهم منا معشر أتباعكم ومريديكم بما تقبلوك به من كريم الاحتفال، وعظيم الإجلال، ألسنة مرطبة بالثناء عليهم، وضمائر مطوية على مزيد احترامهم وفائق تعظيمهم.

صحتى البدنية معتدلة، أما فكرى فقد تولاه الضعف من يوم أن صدع الفؤاد بالبعاد، وتمثلت فيه بعد تلك الحقائق التى كنت تجلو مطالعها معان، نعرفها أوهامًا يضيق بها الصدر ولا ينطلق بردها اللسان، مخافة فوات مرغوب أو لحاق مكروه مما تعلمون.

توجهت إلى البيك صاحب تاريخ العرب[5] وسألته إعارته فأجاب بأن «محمود سامى»[6] أخذه منه وسافر ولم يرده إليه، ثم هو يسلم عليكم أطيب السلام، ويقول إنه مستعد لخدمة جنابكم فى أى شىء تريدون حسيًا كان أو معنويًا، وسأتحرى هذا الكتاب فى كتب سامى عند بيعها فإذا وجدته فيها اشتريته وأرسلته فى الحال إلى حضرتكم أو أحضرته معى إن وافق ذلك استجماعى لوسائل السفر.

الحال العمومية على ما تركتها، غير أن الناس أخذوا فى نسيان ما فات من الحوادث وأهوالها، وقلّت قالتهم فيها، وخفّت شماتة الشامتين منهم، وأصبح المادحون للإنكليز من القادحين فيهم، وبالعكس والكثير يتوقع انقلابًا أصليًا، والله أعلم بما يكون.

رفعت تحيتكم لجميع من ذكرتم فى الكتاب تصريحًا وتلويحًا فتقبلوها بمزيد المسرة والانشراح. يسلّم على جنابكم الصادق فى صداقته ومودته حسين أفندى وهو فى غاية من الصحة والعافية وقد عاد من الريف فرارًا من شروره، آسفًا على

مـا وقع لجنابكم أكثر من أسـفه على نفسـه. الشيخ محمـد خليل والشـيخ عامر إسمـاعيل والشيخ حمـادة الخولى والسيـد عثمان شعيب والشيخ حسن الطويل ووالدى عبـد الله وأخـواى شـناوى وفتح الله[٧] وكثير غـيرهم يقبلون يديكم، ويسلمون عليكم، ويقدمون مزيد تـشكرهم لحضرات أولئك الكرام الأماجد الذين أحسنوا وفادتكم وأكرموا مثواكم، زادهم الله كرما وكمالا.

مولاى: ذكـرت لحضـرتك أن الضعف ألمّ بفكرى فـبالله إلا مـا قويّتـه بتواصل المراسلة، غير تارك فيـها ما عودتنا على سماعه من النصـائح والحكم التى نهتدى بها إلى سواء السبيل، ونتـمكن بها من السير فى العالم المصرى الذى اختـبرت حقائقه وعرفت خـلائقه، وما يناسـبها من ضـروب المـعاملة. وفقنا الله لمتـابعتك، ولا أطال على بلادك مدة غـيبتك، إنك إمامـها وإن اقتدت بغـيرك، ومحبهـا الصادق وإن لم تعرف بقدرك. والسلام.

ولدكم سعد زغلول»

● أما الرسالة الثـانية - وهى جوابية على رسالة من الأستـاذ الإمام إلى الشيخ سعد - فتاريخها ٨ جمادى الأولى سنة ١٣٠٠[٨] - ونصها:

«مولاى الأفضل، ووالدى الأكمل، أحسن الله مآبه.

أكتب إلى السيد الأستاذ بعد تقبيل يده الشريفـة عن شكر مزيد لمكارمه التى لم يمنع من تواترها على صنائعـه تباعد الديار، ولا تنائى البلدان، مـعترفًا بالعـجز عن وفاء واجب الحـمد، مع الاعـتقـاد بأن هذا لا يثنيه عن المكرمـات يوليهـا، والمبرات يسديهـا، فما يفـعل الخير التـماس الثناء، ولا يصدر البـر ابتغاء الجزاء، إنما يحسن محبة فى الإحسان، ويبر شفقة بالإنسان.

تفضّل أدام الله فـضله على خريج حكَمه، الناشئ فى نعمـه، بكتاب هو المحكم آياته، المعجـز دلالته، الشـافى لما فى الصدور، الكاشف لحـقائق الأمـور، الهادى إلى سبيل الرشد وإلى صـراط مستـقيم، فسر لمرآه سـرور العليل بالشفـاء وافاه، وتلاه متدبراً دقيق معناه، مكرراً رقيق مبناه، فـازداد إيمانًا بفضل مولاه، ويقينا بحكمة من أوحاه، وشكر الله على صحة من أهداه، دامت نامية وارفة الظلال.

ونكرم أبقى الله كرمه ببيان بعض أسماء الكملة الكرام الذين دارسوه فصولا من المروءة، وأبوابا من النجدة، وما لهم من كمال الفضل، وما فيهم من تمام العقل، فرسمنا أسماءهم على صفحات القلوب، وحفظنا أمثلة فضائلهم فى الصدور، وتشوقنا لأن تتشرف أبصارنا برؤياهم، كما تحلت بصائرنا بمعرفة أعلامهم ومزاياهم، وما يحتاج فى إقناع النفوس بضعف تلك الحجة وإن كانت تمكنت فى الأذهان، إلى قوة البيان، فمعرفتهم بمقام فضله، ومقدار حكمته ونبله، كافية بذاتها فى الدلالة على نزاهة نفوسهم، وطهارة قلوبهم، وغزارة فضلهم، وسمو عقولهم، ورجاحة هممهم، وسجاحة شيمهم، وفى توجيه ما ثبت من الفساد فى أخلاق غيرهم، إلى أسباب أخرى نود أن يبينها الأستاذ الجليل فى كتاب مخصوص إذا وجد من الوقت مساعداً، إنما نحتاج إلى قوة البيان فى هذا الموضوع لتبين كيف يكون تدارس المروءة بين الأفاضل، وتداول النجدة بين الكرام الأماثل، فما رأيناك[9] من قبل لدينا إلا فاضلا كريماً يدرس الفضائل بين من لا يعرفون للفضل مقداراً، ولا يفقهون للكرامة اعتباراً.

ولقد زادنى ميلا فى السفر، وبغضًا فى الحضر، ما جاء فى وصف أولئك الأماجد ذوى النفوس الزكية، والمحامد العلية، وما تلاه من بيان حقيقة غوازى الأمم، ساقطى الهمم، سافلى القيم، جاهلى مقادير النعم، غير أنى عدلت عن داعية هذا الميل امتثالاً للأمر، وفى النفس حسرات لا يقاومها صبر، وبها إلى السفر أشواق لا يتناولها حصر.

وأحسن خلّد الله إحسانه على صنيع آدابه، اليتيم فى أترابه، بحكم من مثل التى تعوّدها غذاء للعقل، ونوراً للفكر، فتلقاها بقلب شاكر، وتقبلها بفؤاد حامد، وحفظها فى الوجدان، راجيًا من الله التوفيق إلى الأخذ بمعانيها، والهداية إلى اتباع ما فيها، آملا من مكارم موليها، دوام تواليها.

أسفت بل خجلت مما بلغ المقام الشريف عن الشيخ عبد الكريم[10] الفاضل ثابتا صدقه بشهادة من سئلوا من الصادقين، ولولا التحقق من سعة بال الأستاذ الكريم، ومن وثوقه بى فيما أرويه لكان الأسف مضاعفًا.

إنى كما تعلمون كثير الاجتماع بهذا الشيخ، وما سمعت منه ما يقصد به من

مقامكم الكريم، ولم يتكلم أمامي يوم أن بلغه خبر الاعتراف باليمين المعروف إلا بما معناه الأسف والإشفاق من عاقبة هذا الاعتراف، فلعل ما بلغ المسامع الشريفة من هذا القبيل، والسامعون لشدة حرقتهم وبلوغ الأسف من فؤادهم مبلغه، انصرف خاطرهم عن رعاية مقام القول فتوجه ذهنهم إلى مفهوم الكلام الحقيقى، وطبقوا المقام على ما فهموه، ولهم العذر، فهم لم يتعودوا سماع كلام مثل هذا فى جانب حضرتكم ولو مرادا به غير حقيقة معناه، ولم يألفوا تأويل العبارات وصرفها عن ظواهرها، ولم يعرفوا عادة ذلك الشيخ فى كيفية تأدية مراده، والعبارة فى حد ذاتها يصعب تأويلها إلى غير المتبادر للأفهام منها كل الصعوبة على من لم يكن أزهريا متعودًا من الشيخ سماع أفظع منها مفهومًا وأشنع تركيبًا.

وكيف يتأتى له إرادة الظاهر مع علمه بكون ذلك لا يصدر إلا عن لؤم طبيعة وخراب ذمة وسفاهة عقل؟ أنسى ما أوليته من كرائم النعم وجلائل الأمم التى لا يزال متمتعًا بها متفيئًا ظلالها، وأنك المؤرق أسفا، المحترق حزنا، المشفق عليه يوم وجدت اسمه مكتوبًا فى تقارير اللئام، حتى شغلك همه عن همك، وسعيت وأنت مسجون فى تنجيته من التهمة بواسطة المحامين.

ما نسى كل هذا وما قدم العهد عليه حتى ينقض ولاءك، ويبتكر هجاءك، ويمس مقامك، فى بيت آواه، ومنزل طالما رتع فى بحبوحة نعماه.

فهذه العبارة إن صح النقل لا يمكن أن يكون المراد بها شىء وراء إعلان الأسف والإشفاق، أما كونه لم يرسل خطابًا فمولاى يرى أنه من الأدلة الصادقة على كون ذلك الشيخ الفاضل صادقًا فى ولائه، حريصًا على دوام تذكر أوليائه، إذ لم يدعه إلى ذلك إلا تمام رغبته فى المحافظة على النعمة التى غرستم أصولها، وأنميتم فروعها؛ ليكون على الدوام متذكرًا الحقيقة مبدئها، متصورًا صورة منشئها.

أما كتاب الشيخ محمد خليل[11]، فقد علمت ما فى إرسال صورته من حسن التعليل وكمال التلطف فى التأديب، على ما جرت به عادتكم الشريفة. وقد طالعت هذه الصورة فرأيت أنها من أقوى الأدلة على شدة ميل صاحب الأصل إلى الصدق، ورغبته عن التمويه، حيث أوضح حاله صادرًا فى الإيضاح عن الحق برهانًا على شدة إخلاصه بإثبات العبارة التى نفيتها بين يدى حضرتكم فى الدائرة.

فإن إثباتها لا يصدر إلا عن تمام إخلاص لا يشوبه تمويه، ومن هنا يتبين لحضرتكم سلامة نيته، وحسن طويته.

أما عنوان الجواب فما أداه إلى نسجه على ذلك الأسلوب إلا اعتماده على معرفتكم بكونه من الصادقين المعظمين لجنابكم الكريم. وعلى كل حال فنحن لا نستغنى عن كريم عفوك، وجميل صفحك، فإن لم تعف عنا وتصفح كنا من الخاسرين.

إن ظنكم فيما رأيتموه فى جريدة البرهان هو الموافق للصواب، ويحق لحضرتكم السرور بما نال ولدكم(١٢)، فهو المتربى فى نعمتكم، المغترف من بحار حكمتكم، المحفوف بعنايتكم، المشمول بعين رعايتكم، البالغ ما بلغ ويبلغ من مراتب الكمال بحسن توجهاتكم، وكريم تعطفاتكم، أدام الله لكل خير مبدأ.

رفعت تحيتكم إلى حضرات من ذكرتم أسماءهم وأشرتم إليهم فتقبلوها بالاحترام، وهم جميعًا يقبلون يديكم، ويسلمون عليكم، وأخص بالذكر منهم منبع الصفا، ومصدر الوفا، الذاكر لفضائلكم فى كل حين، والدى حسين أفندى. وحضرة ولدكم الصادق فى متابعتكم الشيخ عامر إسماعيل الذى امتن غاية الامتنان بما اختصصتموه به فى كتابكم الشريف، وحضرة الشيخ سليمان العبد، والسيد أمين أفندى. ونحن جميعًا نرفع أحسن التحيات وأزكاها لحضرات الكرام الذين تشرفنا بمعرفة أسمائهم من الذين دارسوكم فصول الكرامات، ونقدم لهم واجبات الاحترام، أدامهم الله مثالاً للفضل وعنوانًا للكمال. ونسلم على حضرات أخينا الفاضل إبراهيم أفندى اللقانى وإبراهيم أفندى جاد ونجلكم الكريم وجميع من بمعيتكم حفظهم الله.

أحوالنا العمومية أنتم أعلم بها منا فلا حاجة إلى بيانها. نرجو تفصيل أحوالكم وما تشتغلون به من قراءة وتأليف إذا حسن لديكم ذلك.

كُتب سامى لم تُشْهَر إلى الآن فى المزاد ولا زلت مراقبًا لإشهاره.

حضرة البك صاحب الكتاب توجه قبل ورود كتابكم إلى البلد ولم يحضر إلى الآن.. وعند العلم بحضوره أتوجه إليه وأرفع لحضرته مزيد تشكراتكم، دامت

معاليكم. أفندم ٨ ج سنة ١٣٠٠ صنيعكم ـ سعد زغلول.

أرجو عدم انقطاع المراسلات، وأتمنى أن لا أحرم كل أسبوع من كتاب تطمينًا للخاطر وترويحًا للفؤاد. ولمولاى فى إجابة هذا الرجاء النظر العالى. (سعد)».

● أما هذه الرسالة الثالثة ـ والتى أجاب بها سعد زغلول على رسالتين للأستاذ الإمام، أرسلتا فى شهر واحد، وفى أسبوعين متواليين ـ فإنها ذات دلالة خاصة فى موضوعنا ـ تأثير الدراسة الأزهرية الشرعية على الشيخ سعد زغلول ـ فعلاوة على شهادة هذه الرسالة على قيام سعد زغلول بواجبات الابن البار من والده ـ من مثل إرسال «الفرش» واللوازم المنزلية من القاهرة إلى بيروت ـ عبر ميناء الإسكندرية ـ وحديثها عن اشتغاله بالمحاماة، وتحسن حالته المالية ـ فإن فيها سطورًا كثيرة يتحدث فيها سعد زغلول عن عقائد إسلامية يدور حولها الجدل فى علم الكلام، وتصدر حولها الكتب، ويناقشها أهل السنة والجماعة.. من مثل عقيدة «خلق القدرة» ولعلها عقيدة المعتزلة فى خلق الإنسان لقدرته واستطاعته وأفعاله الاختيارية ـ وسعد زغلول يحكى ـ فى هذه الرسالة ـ ما دار بمصر يومئذ من جدل حول هذه العقيدة، ويطلب من أستاذه محمد عبده أن يكتب فى هذا الموضوع شرحًا كالذى سبق وكتبه على «شرح الدوانى للعقائد العضدية»[١٣]..

وفى هذه الرسالة يتكلم سعد زغلول بأسلوب البلغاء من الفلاسفة والمتكلمين.. كما أن فيها حديثًا عن مقالات نشرها جمال الدين الأفغانى عن حال مصر والأمة وواجبات المرحلة لمواجهة هذا الذى حدث لمصر بعد الاحتلال، وفى الرسالة إشارة إلى تفرغ محمد عبده ـ فى منفاه ـ لمناجزة الأعداء.. ودعاء حزبه له بالفوز والنصر عليهم ونص هذه الرسالة هو:

«حضرة الأستاذ الفاضل والمولى الكامل.

وبعد تقبيل اليد الكريمة، فقد ورد علينا كتابكم المؤرخ ١١ج والمؤرخ ١٨ج[١٤]، وسررت غاية السرور بما أحسنتم علينا به من إهداء الصورة التى حفظناها فى العيون وجعلنا بروازها من القوة الحافظة لتكون على الدوام نصب الخاطر، ولا بدع فهى مثال الكمال، ومرآة الجلال، وراموز الوقار، وعنوان الاعتبار.

ذكرت أنك تفرغت لمناجزة الأعداء، فدعونا الله تعالى لجنابك بالفوز العظيم،

والنصر المبين وسألنا منه عناية تلزم أعمالك، ورعاية ترافق آمالك.

اطّلعنا على مقالة السيد[١٥] في جريدة البصير[١٦]، فعلمنا أنها لم تصدر إلا عنه[١٧]، وقد كان لها الوقع الجميل في نفوس المصريين على اختلاف طبقاتهم. وقد رأينا له مقالة أخرى هذه المرة في تلك الجريدة عنوانها (مضار الشقاق ومنافع الوفاق) نسجها على منواله المعهود، وبين فيها أسباب سقوط الأمم وموجبات ارتفاعها، ووعد في آخرها بنشر رسالة تتضمن إيضاح ما يوجب رفعة الأمة بعد سقوطها، ومن الغريب أن آراءه فيما يختص ببلادنا تصادف منازل الاستحسان عند أولياء الإنكليز الأقدمين، ويصوبونها في كل محفل حضروه، مع كونها سهاما مفوّقة إليهم، ولكنهم لا يعقلون.

[خلق القدرة] مرت أيام على القائلين به رأوا فيها من الأحوال ما زلزل اعتقادهم، وألحق بوجوههم غبرة ترهقها قترة، وأولى عقولهم سباتا تليه حيرة، وصيرهم يوالون من كانوا عنهم يولّون، خصوصاً في الأوقات التي قدم فيها من كانا غائبين، ففيها كثرت قالة الناس في هذه العقيدة، وسقطت درجة اعتبارها عند من كانوا يعظمون شأنها ويتباهون بكونهم في متابعتها من المخلصين؛ بل جاهر الكثير منهم بتسوئتها وتزييفها، ولو كانت هذه العقيدة ذات عقل أو إحساس لما رضيت بالإقامة في مركزها من قلوب بعض معزلا[١٨] الذين لا يقدرونها حق قدرها، ولكنها تقوّت من بضعة أيام وتهافت الناس على أبواب كنهها، ولا يصل إلى إدراكها إلا القليل، وربما أُلهم الوصول إليها وإدراكها من بين (النظار) إليها المتشوفين إلى التيمن باعتقادها من لا يحسب له الناظر حسابًا، وزادها مهابةً وقبولاً عند الأفهام اطلاعهم على كتاب من الكتب المؤلفة حديثًا في عقائد أهل السنة والجماعة يسمى النظام، فإن ظواهر عباراته وأنفياته[١٩] وإطلاقه وتقييداته كشفت للعقول أن لهذه العقيدة نفوذًا مبسوطا في مملكة الحق، وأن مكانها من الثبوت رفيعًا.

وأظن حضرتكم اطلعت أو تطلع على هذا الكتاب، ولا تتأخرون عن تعليق شرح عليه يكشف نقاب معانيه، ويحل رموز مبانيه، فلحضرتكم شغف شديد بشرح كتب التوحيد وتوضيح مبهماتها، ونود أن يكون على أسلوب الحاشية التي

علقتموها على العقائد العضدية فى (اتخاذ أقرب الطرق) إلى حل الرموز وتوضيح المقصود.

أظن الفرش وصل لحضرتكم، فقد وردت إفادة إرساله منذ أسبوع.

طلبتم أن نوضح لحضرتكم كل ما ينفق على ما تطلبونه من المصاريف ليكون لكم الحرية التامة فى الطلب، وإنى مع جرح خاطرى من هذا التعليل أقول إن الكتب لم ينفق عليها إلا أربعة وعشرون قرشا، والفرش لا أعرف ما أنفق عليه، فإن الشيخ أحمد الليثى غائب، وهو الذى تولى إرساله من محطة مصر إلى إسكندرية، والذى أرسله منها إلى بيروت هو قريب حضرة الوالد حسين أفندى وافى. هذه النفقات بالله أرجو من مكارم حضرتكم أن تعافونا من هذا البيان، وكل ما ترغبون إرساله مرونا به ونحن نقوم بإرساله، ونفقاته نقيدها فى دفتر مخصوص، وفى أى وقت نحاسبكم على مقتضاه، والحمد لله عندنا فلوس كثيرة لا نحتاج إلى أن ترسلوا لنا شيئًا منها الآن، فقد شرعنا نتوكل فى بعض القضايا ولا يخفى على حضرتكم، وذلك بمعونة ومشاركة منبع الصفا، وعلى الله نجاح المأمول.

تكلم حضرة الوالد منبع الصفا مع قريبه فى شأن إرسال مصطفى بالطريقة التى أشرتم إليها فوعد بأنه عند توجهه إلى إسكندرية يتكلم مع الحاج سعد الله حلابه فى ذلك ويفيد حضرة حسن أفندى، وقد توجه من يومين وينتظر حضوره غداً أو بعد غد، وهنالك ننظر ما يكون.

ضمن هذا مكتوب من حضرة الشيخ محمد المزين.

يسلم على حضرتكم جميع من تعرفون أسماءهم فى رسائلنا، وحضرة محمد أفندى الألفى والشيخ العيدروس شاه بندر تجار الزقازيق وحضرة منبع الصفا والشيخ حسن أخوه والسيد أمين وثابت أفندى وفتحى أفندى.

ونحن نسلم على حضرة عارف أفندى[٢٠]، وقد سررنا كل السرور بإزاحته من علته، زاده الله صحة فوق صحته وبارك فى عافيته.. وعلى حضرة إبراهيم أفندى على، وما نختار إلا ما اختاره لنا، وعلى حضرة إبراهيم أفندى جاد، وعلى حضرة

(أستاذنا) محمد أفندى الصدر، وحضرة حسن أفندى يسلم على جميعهم، أمتع الله عيون البلاد بعودتكم جميعًا إليها والسلام.

٢٧ ج(٢١)

كاتبه ولدكم

سعد زغلول

* * *

تلك هى الرسالة الثالثة، التى تحدث فيها سعد زغلول حديث الباحث فى علم الكلام، المنقب عن آراء العلماء (النظار) فى مذاهب المتكلمين من أهل السنة والجماعة.. والطالب من أستاذه الفاضل ووالده الكامل شرح ما أغلق عليه من مباحث هذا الفن من فنون الاعتقادات..

وهكذا توالت المراسلات بين الأستاذ الإمام وبين الشيخ سعد زغلول، مفصحة عن المكانة الممتازة والمتميزة لسعد فى طليعة مدرسة الأستاذ الإمام وحزبه.. وهى مراسلات جديرة بدراسة خاصة، تحلل مضامينها، وتستخلص دلالاتها، وتكتشف إضافاتها إلى تاريخ تلك الحقبة وما شهد من أحداث جسام.

• كذلك، أرسل الأستاذ الإمام سنة ١٣٠٥هـ سنة ١٨٨٨م من بيروت مقالة عن الوحدة الوطنية فى مصر.. أرسلها إلى سعد زغلول؛ ليعيد نشرها فى الصحف المصرية.

• ومنذ عودة محمد عبده من المنفى إلى أرض الوطن ـ أواخر سنة ١٨٨٨م سنة ١٣٠٦هـ ـ كان سعد زغلول فى طليعة المواظبين على حضور ندوته بمنزله فى ضاحية «عين شمس».. كما كان محمد عبده هو صاحب اقتراح تعيينه نائب قاضٍ فى محكمة الاستئناف سنة ١٨٩٢م.. وكانت مؤهلات سعد زغلول حتى ذلك الحين هى مؤهلات «الشيخ سعد»: دراسته الشرعية الأزهرية، وخبرته العملية فى المحاماة، والتى تأسست هى الأخرى على دراسته الشرعية الأزهرية.. ذلك أنه لم يكن قد درس بعد الحقوق ولا حصل على «الليسانس» فيها، فلقد بدأ تعلم الفرنسية فى صيف سنة ١٨٩٢م، والتحق بجامعة باريس أوائل سنة ١٨٩٦م، وحصل على ليسانس الحقوق منها فى يوليو سنة ١٨٩٧م.. فالأزهر ـ وثقافته

الشرعية - هو الذى جعله من كبار المحامين، وهو الذى أهله للعمل بالقضاء!

● وكما تحدث جمال الدين الأفغانى عن محمد عبده، باعتباره أنجب تلاميذه، وأقربهم إلى عقله وقلبه.. ورغم الدور الريادى والقيادى الذى نهض به الشيخ محمد رشيد رضا [١٢٨٢ - ١٣٥٤هـ ١٨٦٥ - ١٩٣٥م] فى حمل رسالة هذه المدرسة الإصلاحية إلى العالم الإسلامى - من خلال مجلة «المنار» - وهو الدور الذى جعل الشيخ رشيد أبرز أركان «التوجه الدينى» لمدرسة الأستاذ الإمام.. فإن سعد زغلول - بشهادة الشيخ رشيد رضا نفسه - كان التجلى لمدرسة الأفغانى ومحمد عبده، ورائد «الجناح المدنى» فى هذه المدرسة الإصلاحية.. وبعبارة الشيخ رشيد: «فلقد ظهرت روح الشيخين - (جمال الدين الأفغانى.. ومحمد عبده) فى أعمال تلاميذهما.. ومن أشهرهم سعد زغلول... الذى أصبح عميد الحزب المدنى للأستاذ الإمام وأقوى أركانه..»[٢٢].

● وكما كانت الدراسة الأزهرية - الشرعية الفقهية.. والعربية والأدبية - هى المكون والمؤهل لسعد زغلول - المؤلف فى فقه المذهب الشافعى.. والداعية لإصلاح الأزهر... والكاتب عن الحرية والشورى.. وداعية «الجهاد الدينى» ضد الاحتلال الإنجليزى لمصر.. والمحامى المبرز.. ونائب قاضى محكمة الاستئناف - كذلك كانت هذه الدراسة الأزهرية وثقافتها الشرعية، هى التى علّمت سعد زغلول «الاستقلال الفكرى»، الذى طبع شخصيته وكل مواقفه وقراراته وأفكاره فى كل ميادين الحياة التى عاشها وجاهد فيها، على تنوع وتعدد هذه الميادين.

ولقد تحدث هو - فى مقام الاعتراف بفضل الدراسة الأزهرية عليه - عن هذه الخصيصة من خصائص الدراسة الأزهرية التى كانت تتيح للطالب حرية اختيار الأستاذ والشيخ الذى يتتلمذ عليه، واختيار العلوم التى يتفقه فى دراستها.. وكذلك أثر صعوبة أساليب الكتب التى كانت تدرّس، وعمق القضايا الأصولية التى تحتويها هذه الكتب.. أثر كل ذلك فى تدريب الطلاب على امتلاك مواهب ومؤهلات «الغوص» وراء المعارف والحقائق والأفكار فى صبر ومثابرة وجهد وأناة.

تحدث سعد زغلول باشا، حديث المعترف بفضل هذه الدراسة الأزهرية على «استقلاله الفكرى» فقال - وهو زعيم الأمة - بعد عودته من أوروبا سنة ١٩٢١م -

عندما ذهب إلى الجامع الأزهر، معترفًا بفضل الأزهر عليه.. وفضله الكبير فى ثورة سنة ١٩١٩م فخطب بالجامع الأزهر - حيث درس - فقال:

«جئت اليوم لأؤدى فى هذا المكان الشريف فرض صلاة الجمعة، وأقدم واجبات الاحترام لمكان نشأت فيه، وكان له فضل كبير فى النهضة الحاضرة. تلقيت فيه مبادئ الاستقلال؛ لأن طريقته فى التعليم تربى ملكة الاستقلال فى النفوس؛ فالتلميذ يختار شيخه، والأستاذ يتأهل للتدريس بشهادة من التلاميذ الذين كانوا يلتفون حول كل نابغ فيه ومتأهل له، يوجه إليه كل منهم الأسئلة التى يراها، فإن أجاب الأستاذ وخرج ناجحًا من هذا الامتحان كان أهلا لأن يجلس مجلس التدريس.

وهذه الطريقة فى الاستقلال جعلتنى أتحول من مالكى إلى شافعى، حيث وجدت علماء الشافعية فى ذلك الوقت أكفأ من غيرهم»(٢٣).

وجدير بالملاحظة أن هذا الاستقلال الفكرى، الذى جعل سعد زغلول - الطالب الأزهرى - يفضل المذهب الشافعى على المذهب المالكى - الذى هو الغالب على مسقط رأسه ومحيطها الجغرافى - بسبب تفضيله علماء المذهب الشافعى.. لم يؤثر عليه أن مذهب أستاذه وشيخه ومربيه محمد عبده كان المذهب الحنفى.. فالاستقلال الفكرى كان ثمرة من أنضج وأعظم طرق التدريس الأزهرية فى ذلك الحين.

● وعندما أصبح «الشيخ سعد» «سعد باشا»، وتولى «نظارة المعارف العمومية» تحققت على يديه إصلاحات جذرية، كانت بنوداً فى برنامج المدرسة الإصلاحية التى تبلورت من حول جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده.

فلقد أنشأ «مدرسة القضاء الشرعى» سنة ١٩٠٧م، لتكون - مع «مدرسة دار العلوم» - ديوان الإصلاح الدينى والتجديد والاجتهاد فى علوم الشريعة الإسلامية وفى علوم العربية.. هذه المدرسة التى سبق ودعا إلى إنشائها سنة ١٨٨٧م منشئ «دار العلوم» فى سنة ١٨٧١م على باشا مبارك (١٢٣٩ - ١٣١١هـ - ١٨٢٤ - ١٨٩٣م) لتكون أداة لتجديد وتقنين الفقه الإسلامى، حتى تقاوم الأمة - بهذا التجديد والتقنين - تغريب القانون وعلمنته.. وهو نفس المقصد الذى سعى إليه

الإمام محمد عبده، عندما أراد إنشاء «القسم القضائى» فى الأزهر الشريف[٢٤]..
فلما تعذر إنشاء هذا «القسم القضائى» بالأزهر ـ لفرط حذر التيار المحافظ بين شيوخ الأزهر من أى تجديد، خوفًا من أن يخدم «التجديد» «التغريب» ـ أنشأ سعد زغلول هذه المدرسة: «مدرسة القضاء الشرعى»؛ لتحقق هذه المقاصد القومية.. وجعلها تحت نظر الشيخ حسونة النواوى (١٢٥٥ ـ ١٣٤٣هـ ١٨٤٠ ـ ١٩٢٥م) إبان مشيخته الثانية للجامع الأزهر، تحقيقًا للصلة بينها وبين المؤسسة الأم للعلم الإسلامى.. وجعل الدراسة الفقهية فيها على المذاهب الإسلامية المختلفة، وليس فقط للمذهب الحنفى ـ كما كان يريد الخديوى عباس حلمى الثانى (١٢٩١ ـ ١٣٦٣هـ ١٨٧٤ ـ ١٩٤٤م) ـ فحقق سعد زغلول بذلك مذهب أستاذه محمد عبده، الذى دعا إليه فى تقريره الشهير عن إصلاح القضاء الشرعى.

● كذلك، رد سعد زغلول ـ «ناظر المعارف العمومية» ـ بعض عدوان اللغة الإنجليزية على لغة القرآن الكريم فى المدارس الأميرية.. وكتب فى مذكراته ـ بتاريخ ١٠ مايو سنة ١٩٠٩م ـ يقول: «يجب أن تكون غاية عملى: جعل التعليم أهليا، أى باللغة العربية فى المدارس المختلفة».

وكذلك، أكثر من إنشاء الكتاتيب فى القرى والمدن، وضاعف الإعانات المالية المخصصة لها.

* * *

● وإذا كان الأزهر قد قاد ـ بواسطة علمائه وطلابه ـ معارك الدفاع عن الإسلام.. وإذا كانت المعارك الفكرية التى قادها علماء الأزهر وطلابه ضد كتاب (الإسلام وأصول الحكم) ـ الذى كتبه الشيخ على عبد الرازق (١٣٠٥ ـ ١٣٨٦هـ ١٨٨٧ ـ ١٩٦٦م) سنة ١٩٢٥م ـ وضد كتاب (فى الشعر الجاهلى) الذى كتبه الدكتور طه حسين (١٣٠٦ ـ ١٣٩٣هـ ١٨٨٩ ـ ١٩٧٣م) سنة ١٩٢٦م ـ إذا كانت هذه المعارك قد غدت من أخطر وأشهر المعارك الفكرية للقرن العشرين، بل لقد ظلت محور أغلب معاركنا الفكرية حتى هذه اللحظات فلقد كان سعد زغلول ـ زعيم الأمة.. ورئيس مجلس النواب ـ فى ذات الموقع الفكرى للأزهر وعلمائه، ضد محاولات على عبد الرازق «علمنة الإسلام» وضد جموح طه حسين

للتشكيك فى بعض ما ورد بالقرآن الكريم.. أى ضد أخطر التحديات التغريبية التى تواجه العرب والمسلمين.. وإذا كان العديد من علماء الأزهر الشريف قد كتبوا الكتب والدراسات والمقالات، وألقوا الخطب والمحاضرات فى تفنيد دعاوى صاحب (الإسلام وأصول الحكم) فإن رأى سعد زغلول فى هذا الكتاب كان أقسى من رأى كثير من هؤلاء الشيوخ العلماء.. ولقد أشار فى ثنايا نقده لهذا الكتاب إلى الأزهر الشريف، وإلى ثمرات العلم الذى تعلمه فيه، واستغرب جهل على عبد الرازق - الأزهرى - بهذا العلم الشرعى الذى قدمه الأزهر لطلابه عن شمول الإسلام للدين والدنيا، وللمرجعية الشرعية والمدنية جميعًا.

وجدير بالتنبيه أن سلطان العلم الشرعى على سعد زغلول كان أقوى من «اللعبة السياسية... والمصالح الحزبية» التى رافقت ظهور كتاب على عبد الرازق.. فالملك فؤاد الأول (١٢٨٤ - ١٣٥٥هـ ١٨٦٩ - ١٩٣٦م) خصم سعد زغلول و«حزب الوفد» كان مع الأزهر ضد كتاب (الإسلام وأصول الحكم) وبعض صحافة «الوفد»، مثل مجلة «كوكب الشرق»، كانت - لهذه الأسباب السياسية والحزبية - مع على عبد الرازق.. بل إن السكرتير الخاص لسعد زغلول - «الشيخ محمد إبراهيم الجزيرى» - خريج مدرسة القضاء الشرعى، ورئيس تحرير «مجلة القضاء الشرعى» كان هو ومجلته فى صف كتاب (الإسلام وأصول الحكم)؛ ومع كل ذلك، وبالرغم من جميع ذلك، وقف سعد زغلول الموقف الشرعى، واتخذ موقع الانحياز إلى علماء الأزهر وطلابه فى الرفض والنقد لما جاء بهذا الكتاب.

ويحكى هذه الصفحة المشرقة من آثار وتأثيرات الأزهر الشريف على سعد زغلول سكرتيره الخاص «الشيخ محمد إبراهيم الجزيرى»، فيقول:

«أنقل للتاريخ هذا الفصل من مذكراتى، كما كتبته فى حينه، لا أستطيع تبديل حرف فيه. وقد يكون الحديث مريرا لا يجمل بى أن أكون أداة نشره، ولكن الأمانة توجب أن أنشره ما دمت بصدد إعلان ذكرياتى عن سعد، ففى هذا الحديث على وجهه الآخر عصبية إسلامية شديدة، ورأى جميل فى الإسلام وأحكامه ومدنيته:

مساء الخميس ٢٠ أغسطس سنة ١٩٢٥م:

دخلت إلى مكتب الرئيس[٢٥] (سعد زغلول) بعد فراغ «دولته» من مقابلة زواره

لأقدم له مجلد السنة الثانية من مجلتي (مجلة القضاء الشرعي) والعدد الأول من سنتها الثالثة، فتقبلها بقبول حسن، وشجعني على الاستمرار في إصدارها، ووعدني أن يدلي برأيه فيها بعد أن يتصفح موضوعاتها. ثم استرعى نظره عنوان المقال الافتتاحي في العدد الجديد، وهو (الإمامة الكبرى أو الخلافة) لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الوهاب خلاف، فقال:

ـ أوَ تكتبون أيضًا عن الخلافة؟

ـ (ونحن الآن بعد مرور أيام على صدور حكم هيئة كبار العلماء بإخراج الشيخ على عبد الرازق من زمرة علماء الأزهر الشريف لإصداره كتاب (الإسلام وأصول الحكم) ـ

فأجبتُ «دولته»:

ـ نعم، والمجلة تعالج موضوع الخلافة منذ إلغاء الأتراك لها.

ـ فقال: وما رأى محرر المجلة؟

ـ قلت: إنه يلتقى مع الشيخ على عبد الرازق في بعض النقط، ويظهر أن ذلك كان سببًا في أن كبيراً من رجال السراى استدعى إليه الأستاذ الشيخ خلاف ونصحه أن يكف عن الكتابة في هذا الموضوع، وأفضى فضيلته إلىّ بذلك طالبًا استرداد موضوعه التالى من المطبعة ففعلت.

ثم سألت «دولته»:

ـ وما رأيكم في كتاب (الإسلام وأصول الحكم)؟

فاستعد «دولته» كما يستعد المحاضر لإلقاء محاضرة، أو الخطيب لإلقاء خطبة، ثم قال: «لقد قرأته بإمعان لأعرف مبلغ الحملات عليه من الخطأ أو الصواب، فعجبتُ أولاً كيف يكتب عالم دينى بهذا الأسلوب في مثل هذا الموضوع؟

وقد قرأت كثيراً للمستشرقين ولسواهم فما وجدت ممن طعن منهم في الإسلام حدة كهذه الحدة في التعبير، على نحو ما كتب الشيخ على عبد الرازق. لقد عرفت أنه جاهل بقواعد دينه، بل بالبسيط من نظرياته، وإلا فكيف يدعى أن الإسلام ليس مدنيًا ولا هو بنظام يصلح للحكم؟ فأية ناحية مدنية من نواحى الحياة لم ينص عليها

الإسلام؟ هل البيع أو الإجارة أو الهبة أو أى نوع آخر من المعاملات؟ ألم يدرس شيئًا من هذا فى الأزهر؟ أو لم يقرأ أن أممًا كثيرة حُكمت بقواعد الإسلام فقط عهودًا طويلة كانت أنضر العصور؟ وأن أممًا لا تزال تُحكم بهذه القواعد وهى آمنة مطمئنة؟ فكيف لا يكون الإسلام مدنيًا ودين حكم؟

وأعجب من هذا ما ذكره فى كتابه عن الزكاة؟ فأين كان هذا الشيخ من الدراسة الدينية الأزهرية؟ إنى لا أفهم معنى للحملة المتحيزة التى تثيرها جريدة السياسة حول هذا الموضوع. وما قرار هيئة كبار العلماء بإخراج الشيخ على من زمرتهم إلا قرار صحيح لا عيب فيه؛ لأن لهم حقًا صريحًا ـ بمقتضى القانون أو مقتضى المنطق والعقل ـ أن يخرجوا من يخرج على أنظمتهم من حظيرتهم. فذلك أمر لا علاقة له مطلقًا بحرية الرأى التى تنعيها السياسة».

وهنا قلت ـ [أى الجزيرى] ـ:

ـ لعل ما يغيظ السياسة هو أن العلماء لم يندفعوا من تلقاء أنفسهم إلى هذه المحاكمة، وإنما كانوا مسوقين ـ على رأيها ـ بجهة يهمها تأييد مركز الخلافة، فاستعانت بنفوذ العلماء.

فقال:

ـ «أعرف ذلك، ولكن مهما كان الباعث فإن العلماء فعلوا ما هو واجب وحق، وما لا يجوز أن توجه إليهم أدنى ملامة فيه.

والذى يؤلمنى حقًا أن كثيرًا من الشبان الذين لم تقو مداركهم فى العلم القومى، والذين تحملهم ثقافتهم الغربية على الإعجاب بكل جديد، سيتحيزون لمثل هذه الأفكار، خطأ كانت أو صوابًا، دون تمحيص ولا درس؛ ويجدون تشجيعًا على هذا التحيز فيما تكتبه جريدة السياسة وأمثالها من الثناء العظيم على الشيخ على عبد الرازق، ومن تسميتها له بالعالم المدقق والمصلح الإسلامى والأستاذ الكبير... إلخ.

وكم وددت أن يفرق المدافعون عن الشيخ بين حرية الرأى وبين القواعد الإسلامية الراسخة التى تصدى كتابه لهدمها».

وهنا جاء موعد العشاء، فختم «دولته» القول برجاء الله أن يصلح الأحوال ويوفق الجميع إلى السداد[٢٦].

تلك واحدة من أبرز الصفحات المشرقة فى كتاب فكر وعلم الشيخ سعد زغلول باشا: ابن الأزهر الشريف، وثقافته الشرعية.. وهى الصفحة التى يتجاهلها العلمانيون، الذين يريدون «سرقة» سعد زغلول، و«اختطاف» الثورة التى قادها سنة ١٩١٩م إلى حظيرة العلمانية، وتجريد الإسلام وشريعته من الحاكمية فى تدبير الحياة والاجتماع والدولة والسياسة والاقتصاد.

وهى صفحة يجهلها - مع الأسف الشديد - كثير من الإسلاميين.. فيساعدون بهذا الجهل العلمانيين على «السرقة.. والاختطاف»!

* * *

● أما موقف سعد زغلول من كتاب الدكتور طه حسين (فى الشعر الجاهلى) - والذى شكك فيه بعدد من العقائد التى وردت فى القرآن الكريم - من مثل: علاقة الإسلام بملة إبراهيم - عليه السلام - الحنيفية وفى الرحلة الحجازية لإبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - وفى إقامتهما ورفعهما قواعد البيت الحرام - فيشير إليه سكرتيره - محمد إبراهيم الجزيرى - أيضًا عندما يكتب فيقول عن سعد زغلول:

«وكان رحمه الله يرقب باهتمام ما ينشر من الكتب الحديثة بمصر، فيكلفنى شراءها، ويقرأ منها ما تسمح به الفرصة.

وقرأت له كتاب (الإسلام وأصول الحكم) للأستاذ على عبد الرازق «وزير الأوقاف فيما بعد»، وأدلى إلى برأى فيه سجلته عندى، وسأورده فى هذه المذكرات[٢٧].

وكذلك قرأت له كتاب المرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى (إعجاز القرآن)، وكتاب الدكتور طه حسين (فى الشعر الجاهلى)، ورد المرحوم الأستاذ محمد فريد وجدى عليه، ومحاضرات المرحوم الشيخ محمد الخضرى بك فى نقده.

وأذكر أنه، رحمه الله، أعجب كل الإعجاب بكتاب الأستاذ محمد فريد

وجدى هذا، وكان قد وضعه فى نقد كتاب (فى الشعر الجاهلى)، وأهدى إلى الرئيس نسخة منه، فلما قرأها كتب إلى الأستاذ وجدى هذا الكتاب البليغ التالى:

«حضرة الأستاذ الفاضل محمد فريد وجدى.

وصلنى كتابك الذى وضعته فى نقد كتاب (فى الشعر الجاهلى)، وتفضلت بإرساله إلىّ. وقرأته فى عزلة تجمع الفكر، وسكون يحرك الذكر، فراقنى منه قول شارح للحق، ومنطق يقارع بالحجة فى أدب رائع، وتحقيق دقيق فى أسلوب شائق، وإخلاص كامل للدين فى علم واسع، وانتصاف للحقيقة فى احترام فائق. ومجموع من هذه الخصال استمليت منه قلبًا فياضا بالإيمان، وعقلا مثقفًا بالعرفان، ونفسًا محلاة بالأدب. فقررت عينا بوجود مثلك بيننا، ورجوت الله أن يكثر من أمثالك فينا، وأن يجازيكم على ما تصنعون بتوفيق الباحثين والمتناظرين لاحتذاء مثالكم فى دقة البحث، وأدب المناظرة، وإنكار الذات، والانتصار للحق، وبتوفيق الناس لاستماع أقوالكم واتباع أحسنها، والسلام على المهتدين.

١٦ أكتوبر سنة ١٩٢٦م. سعد زغلول»(٢٨)

* * *

فلقد قرأ سعد زغلول رد الأستاذ محمد فريد وجدي على كتاب طه حسين «فى عزلة تجمع الفكر، وسكون يحرك الذكر»، وأعجب كل الإعجاب بهذا الكتاب، شكلاً ومضمونًا، أسلوبًا ومنطقًا، أدبًا فى التعبير وحجة تفنيد دعاوى الخصم، كما أعجبه فيه «فيض الإيمان» الذى حرك صاحبه للدفاع عن الإسلام، و«العقل المثقف بالعرفان» الذى جعل من «فريد وجدى» نموذجًا تمنى «سعد زغلول» أن يحتذيه المتناظرون والباحثون الساعون لانتصار الحق على الباطل فى عالم الأفكار.

وإذا كنا قد رأينا «قوة الحق» عند سعد زغلول فى نقده لكتاب الشيخ على عبد الرازق، عندما اتهمه بالجهل بالدراسة الأزهرية وعلوم الشريعة الإسلامية، وبالسعى لهدم قواعد الدين الإسلامى.. فلقد كانت «قوة الحق» هذه متجلية أيضًا فى موقف سعد زغلول من اجتراء طه حسين على القرآن الكريم فى كتاب (فى الشعر الجاهلى). فعندما زحفت مظاهرة طلابية غاضبة على هذا الكتاب وصاحبه،

إلى «بيت الأمة»، خطب زعيم الأمة فى هذه المظاهرة، مستنكرًا ما جاء فى هذا الكتاب.. وبلغت به الإدانة والاستنكار إلى الحد الذى تمثّل فيه - وهو يصف صاحب (فى الشعر الجاهلى) - بشطر البيت الذى يقول:

* وماذا علينا إذا لم يفهم البقر؟! *

هكذا تجلت ثمرات الأزهر الشريف فى فكر وحياة ومواقف سعد زغلول.. وهكذا كان الشيخ سعد زغلول باشا ابن الأزهر الشريف. عليه رحمة الله.

* * *

• **الهوامش**

(١) محمد إبراهيم الجزيرى: (سعد زغلول: ذكريات تاريخية) ص٨٤ طبعة «كتاب اليوم» القاهرة.

(٢) محمد عبد المنعم خفاجى: (الأزهر فى ألف عام) جـ٢ص٨، ٩ طبعة القاهرة سنة ١٣٧٤هـ.

(٣) الشيخ محمد رشيد رضا: (تاريخ الأستاذ الإمام) جـ١ ص٢٨٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٣١م.

(٤) مارس سنة١٨٨٣م.

(٥) الإشارة إلى كتاب (تاريخ العرب وآدابهم) تأليف «إدورد فنديك» و«فيلبيدس بك قسطنطين».

(٦) الإشارة إلى محمود سامى البارودى باشا، الذى نفاه الإنجليز - هو الآخر - من مصر ضمن زعماء الثورة العرابية.

(٧) فتح الله.. هو فتحى زغلول.

(٨) ١٧ مارس سنة ١٨٨٣م.

(٩) فى الأصل: رأيتا.

(١٠) الحديث عن الشيخ عبد الكريم سلمان؛ زميل سعد زغلول فى الأزهر وفى التتلمذ على يدى الأستاذ الإمام.. وما نسب إليه فى أعقاب هزيمة الثورة العرابية، ومحاولات التنصل من المشاركة فى أحداثها.

(١١) من تلاميذ الأستاذ الإمام - وزملاء سعد زغلول - والحديث عن موقفه من أحداث الثورة العرابية بعد هزيمتها، والكتاب الذى أرسله إلى الحكومة عن موقفه من أحداث الثورة.

(١٢) الإشارة إلى سعد زغلول نفسه.

(١٣) لقد حققنا نسبة التعليقات على شرح الدوانى للعقائد العضدية إلى جمال الدين الأفغانى، الذى أملاها، وكان محمد عبده هو المدون لهذه الأمالى - ولم يكن قد تخرج بعد من الأزهر - انظر تقديمنا للأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى. طبعة بيروت سنة ١٩٧٩م ص١٥٥ - ١٦٦.

(١٤) جمادى الأولى سنة ١٣٠٠هـ الموافق ٢٠، ٢٧ مارس سنة ١٨٨٣م.

(١٥) هو جمال الدين الأفغانى.. وكان لقب «السيد» المفصح عن نسبته لآل البيت هو أشهر ألقابه على الإطلاق.

(١٦) صدرت فى لندن سنة ١٨٨١م ورأس تحريرها خليل غانم.

(١٧) كان الأفغانى لا يوقع مقالاته فى الصحف باسمه، وإنما باسم مستعار.

(١٨) هكذا بالأصل.

(١٩) هكذا بالأصل.

(٢٠) عارف أفندى أبو تراب، رفيق الأفغانى وخادمه.. وشريك محمد عبده فى ترجمة رسالة الرد على الدهريين ـ للأفغانى ـ من الفارسية إلى العربية.

(٢١) ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٣٠٠هـ الموافق ٥ إبريل سنة ١٨٨٣م.. وانظر هذه الرسائل الثلاث فى (تاريخ الأستاذ الإمام) جـ١ ص٢٧٥ ـ ٢٨٠، ١٠٨٠ ـ ١٠٨٢.

(٢٢) (تاريخ الأستاذ الإمام) جـ١ ص١٣٦، ١٣٧.

(٢٣) (مذكرات سعد زغلول) جـ١ ص٥٤. تحقيق وتقديم: د. عبد العظيم رمضان. طبعة القاهرة سنة ١٩٨٧م.

(٢٤) (تاريخ الأستاذ الإمام) جـ١ ص٥٥٧.

(٢٥) أى رئيس مجلس النواب.

(٢٦) (سعد زغلول: ذكريات تاريخية) ص٩١ ـ ٩٣.

(٢٧) هو الرأى الذى نقلناه ـ عن الجزيرى ـ فى هذه الدراسة.

(٢٨) (سعد زغلول: ذكريات تاريخية) ص٣٧.

* * *

الدكتور محمد حسين هيكل باشا..
من الاستنارة بالغرب إلى الاستنارة بالإسلام

المراجعات الفكرية فى مسيرة العلماء والفلاسفة والمفكرين، آية من آيات الحيوية والنظر والتجدد والاجتهاد.. فالذين لا يراجعون أفكارهم هم العجزة، الذين يستوون مع الموتى والجمادات!

وإذا كانت «الأشعرية» هى مذهب جمهور المسلمين، فلقد كان إمامها أبو الحسن الأشعرى (٢٦٠ - ٣٢٤هـ ٨٧٤ - ٩٣٦م) معتزليًا، بل ومن أئمة المعتزلة.. ثم راجع فكره، وانتقد مسيرته، فأصبح إماما لهذا المذهب الوسطى الجديد، الذى استقطب جمهور المسلمين.

وكان للإمام الشافعى (١٥٠ - ٢٠٤هـ ٧٦٧ - ٨٢٠م) فى العراق، مذهب.. فلما جاء إلى مصر أبدع فيها فقهًا جديدًا ومذهبًا جديدًا.

وقاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمدانى (٤١٥هـ - ١٠٢٤م) الذى قاد صحوة المذهب الاعتزالى، لم يكن فى بداياته الفكرية معتزليًا.

وكذلك حال عصرنا الحديث، مع المراجعات الفكرية للعلماء والمفكرين.

فمنصور فهمى باشا (١٣٠٣ - ١٣٧٨هـ ١٨٨٦ - ١٩٥٩م) الذى كانت رسالته للدكتوراه طعنا فى نساء النبى ﷺ وبيت النبوة، انتهى به المطاف الفكرى عضوًا فى «جمعية الشبان المسلمين» ومدافعًا عن الإسلام، ومقدمًا «للمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم».

والشيخ على عبد الرازق (١٣٠٥ - ١٣٨٦ هـ ١٨٨٧ - ١٩٦٦م) الذى بدأ حياته الفكرية بدعوى أن الإسلام مجرد رسالة روحية ودعوة دينية، خالصة

للدين، لا علاقـة لها بالسياسة ولا الدولـة ولا الحكم.. وأن رسول الإسلام ﷺ لم يُقم دولة، ولم يؤسس حكومة، ولم يرأس مجتمعًا، فكتب في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) تحت عـنوان «رسالة لا حكم، ودين لا دولة» يقـول: «فمحـمد ﷺ ما كان إلا رسولا، كـإخوانه الخالين من الرسل، رسولاً لدعوة دينيـة خالصة للدين، لا تشوبها نزعة ملك ولا حكومة.. ولم يقم بتأسيس مملكة، بالمعنى الذي يُفهم سـياسة من هذه الكلمة ومـرادفاتها.. ما كـان ملكًا، ولا مؤسس دولة، ولا داعيًا إلى ملك» حـتى لقد امتدح ـ على عبد الرازق ـ مـبدأ «دع ما لقيصر لقـيصر وما لله لله»، رافعًا شعار: «يا بعد ما بين السياسة والدين»[1]!

على عبد الرازق هذا، انتهى به المطاف الفكـرى إلى الحديث عن أن «الإسلام دين تشريعي، وأنه يجب علـى المسلمين إقامة شـرائعه وحدوده، وأن الله خـاطبهم جميـعًا بذلك.. وأنه إذا رأت جـماعة المسلمـين أن مصلحة المسـلمين في أن تكون الحكومة خلافة، فالخلافة تكون حينئذ حكومة شرعية..»[2].

بل لقد تحـدث عن ما سبق به لسانه من أن الإسـلام هو مجرد رسالة روحـية، بأنها «كلمـة ألقـاها الشيطان على لسـانه ولـلشيطان كلمـات يلقـيهـا على ألسنة الناس..»[3]!!.. فسار على درب العلماء والمفكرين الذين راجعـوا ما سبق وقدموا من اجتهادات وأفكار، عندما رأوها مجانبة للصواب.

* * *

وإذا كـانت هذه المراجعـات الفكرية، قـد غدت ـ في الحـيـاة الفكرية ـ سمـة معهودة، وشهادة على الحيوية والتجدد والاجتهاد والإبداع.. فإن المسيرة الفكرية للدكتور محمد حسين هيكل باشا (١٣٠٥ ـ ١٣٧٥هـ ١٨٨٨ ـ ١٩٥٦م) على درب المراجعـات الفكرية قـد بلغت الذروة، في عـمق التحـولات، والإعـلان عن المراجعات، وشجاعة النقد للذات!..

لقد بدأ الدكتـور هيكل ـ كعدد كبيـر من أبناء جيله ـ منبهرًا بالحضـارة الغربية، ساعيًا إلى أن نبدأ نهضتنا من حيث انتهى الغربيون، وجادا في نقل الفكر الغربي ـ العلمي منه والإنساني.. العقلي فيه والروحي ـ إلى اللغـة العربية؛ لنتخذه نموذجًا في النهضة والتقدم والتجديد.. ولذلك كان تبشيره وكانت دعوته إلى:

١ ـ **الفكرة القومية**، بمضامينها التي جاءتنا من الغرب، بديلاً لفكرة «الجامعة الإسلامية»، القائمة على رباط العقيدة الإسلامية، وليس رباط العرق والإقليم.

٢ ـ **والنزعة العلمانية**، التي تفصل الدين عن الدولة والسياسة، وتعزل الشريعة الإلهية عن تدبير الاجتماع البشري والعمران الإنساني، وتجعل الإنسان مكتفيًا بذاته، يدبر عالمه بالعقل والتجربة، دون تدخل من النقل والغيب والدين.

٣ ـ **والنزعة الفرعونية المصرية**، كانتماء قومي للمصريين، بدلاً من رابطة العروبة وجامعة الإسلام..

بدأ الدكتور هيكل هذه البدايات «المتغربة»، ومضى في الدعوة إلى هذه المذاهب لأكثر من عشرين عامًا. ثم حدثت له التحولات الفكرية، التي قادته إلى الإبداع الجديد، انطلاقًا من المرجعية الحضارية الشرقية، والخصوصية العقدية الإسلامية.. فكانت أعماله الفكرية الكبرى وإسهاماته المتميزة في الثقافة الإسلامية على امتداد ربع قرن من النضج الفكري والتألق الثقافي.

• نقد القومية

• لقد بدأ الرجل حياته الفكرية متغربًا.. وكان موقعه من أحمد لطفي السيد باشا (١٢٨٨ ـ ١٣٨٢هـ ـ ١٨٧٠ ـ ١٩٦٣م) هو موقع التلميذ من الأستاذ.. ولقد مارس النشاط الفكري المبكر كاتبًا في «الجريدة» ـ التي أصدرها ورأس تحريرها لطفي السيد ـ وهي المنبر الذي كان يبشر بالوطنية والقومية، بمعناهما الغربي، فيرى ضرورة «استقلال» مصر عن محيطها العربي والإسلامي استقلالاً سياسيًا وحضاريًا، على النحو الذي يحررها من الاستعمار الإنجليزي، ويلحقها في ذات الوقت بالحضارة الغربية.. لأن الرابطة العربية والإسلامية كانت مساوية، عند هذا التيار، للاستعمار الأوروبي سواء بسواء!

بدأ هيكل في هذه المدرسة الفكرية.. فلما حدث له التحول الفكري ـ وهو في العقد الخامس من عمره سن النضج الفكري ـ كتب ناقدًا وناقضًا للفكرة القومية، بمعناها ومضمونها الغربي، ومعلنا انتماءه إلى مفهوم الأمة الواحدة، المؤسس على

عقيدة التوحيد الإسلامية، التى هى جوهر دين الإسلام.. كتب يقول: «إن الفكرة الإسلامية، المبنية على التوحيد، تخالف ما يدعو إليه عالمنا الحاضر من تقديس القوميات، وتصوير الأمم وحدات متنافسة، يحكم السيف وتحكم أسباب الدمار بينها فيما تتنافس عليه، ولقد تأثرنا، معشر أمم الشرق، بهذه الفكرة القومية، واندفعنا ننفخ فيها روح القوة، نحسب أنا نستطيع أن نقف بها فى وجه الغرب الذى طغى علينا وأذلنا. وخيل إلينا فى سذاجتنا، أنا قادرون بها وحدها على أن نعيد مجد آبائنا، وأن نسترد ما غصب الغرب من حريتنا وما أهدر بذلك من كرامتنا الإنسانية.

ولقد أنسانا بريق حضارة الغرب ما تنطوى هذه الفكرة القومية عليه من جراثيم فتاكة بالحضارة التى تقوم على أساسها وحدها، وزادنا ما خيّم علينا من سُجُف الجهل إمعانا فى هذا النسيان.

على أن التوحيد الذى أضاء بنوره أرواح آبائنا، قد أورثنا من فضل الله سلامة فى الفطرة هدتنا إلى تصور الخطر فيما يدعو الغرب إليه.. ولذلك، لم يكن لنا مفر من العودة إلى تاريخنا نلتمس فيه مقومات الحياة المعنوية؛ لنخرج من جمودنا المذل، ولنتقى الخطر الذى دفعت الفكرةُ القومية الغرب إليه، فأدامت فيه الخصومة؛ بسبب الحياة المادية التى جعلها الغرب إلهه..»[4]!..

فالدكتور هيكل، هنا، يحدد أن تبنيه ـ هو وأمثاله ـ للنموذج الغربى فى القومية، إنما كان اجتهاداً خاطئاً، ظنوا أنه السبيل إلى «أن نعيد مجد آبائنا، ونسترد ما غصب الغرب من حريتنا وما أهدر من كرامتنا الإنسانية».. ويعلن أن الذى ساعد على الخطأ فى هذا الاجتهاد، هو «بريق حضارة الغرب» و«السذاجة» التى عليها المتغربون؟!.. ويقول إن التحول الذى حدث له، من التغريب إلى الاستنارة بالإسلام، إنما أعان عليه تلك «الفطرة» التى رسّخها التوحيد الإسلامى فى أرواح أبناء الإسلام.. وأن التماس مشروع إنهاض الأمة، انطلاقاً من حضارتها وعقيدتها، إنما هو السبيل إلى الخروج من «الجمود المذل» الذى عليه تيار التقليد والجمود ـ واتقاء «الخطر الغربى» الذى يكرسه المتغربون ـ!

• نقد العلمانية

● وبالنسبة للعلمانية، التى تفصل الدين عن السياسة والدولة وتدبير المجتمع وتنظيم العمران، والتى بشر بها المتغربون - لأنها قسمة أصيلة فى مشروع النهضة الغربية - كان الدكتور هيكل فى سنة ١٩٢٥م، رئيس تحرير صحيفة (السياسة).

- لسان حال «حزب الأحرار الدستوريين» - ومن موقعه هذا قاد حملة الدفاع عن كتاب الشيخ على عبد الرازق - (الإسلام وأصول الحكم) - ذلك الذى ادّعى فيه علمانية الإسلام - وخلوّه من أية علاقة بالدولة والحكم والسياسة والتنفيذ - فهو عنده «رسالة روحية» و«يا بُعْد ما بين السياسة والدين.. ونبى الإسلام، ﷺ مجرد مُبَلِّغ، لا علاقة له بالتنفيذ!».

كان الدكتور هيكل، فى سنة ١٩٢٥م، قائد حملة الدفاع عن هذه العلمانية.. فلما حدث له التحول الفكرى.. وقدّم للناس فى سنة ١٩٣٥م كتابه (حياة محمد) نقض فيه مرتكزات العلمانية من الأساس، وأوضح تميّز الإسلام عن المسيحية، واختلاف الإنجاز المحمدى فى السياسة والدولة عن عيسى، عليه السلام، وغيره من الرسل الخالين، وضرورة الرؤية المتميزة للمسيرة المتميزة لحضارة الإسلام فى هذا الموضوع - موضوع العلاقة بين الدين والدولة - فكتب هيكل يقول: «لقد أقام محمد دين الحق، ووضع أساس حضارة هى وحدها الكفيلة بسعادة العالم. فبعد الهجرة إلى المدينة، بدأ طور جديد من أطوار حياة محمد، بدأ الطور السياسى، الذى لم يسبقه إليه أحد من الأنبياء والرسل.. فقد كان عيسى وكان موسى وكان من سبقهما من الأنبياء يقفون عند الدعوة الدينية يبلغونها للناس من طريق الجدل ومن طريق المعجزة، ثم يتركون لمن بعدهم من الساسة وذوى السلطان أن ينشروا هذه الدعوة، فأما محمد، فقد أراد الله أن يتم نشر الإسلام وانتصار كلمة الحق على يديه، وأن يكون الرسول والسياسى والمجاهد والفاتح.. والدين والحضارة اللذان بلغهما محمد للناس بوحى من ربه يتزاوجان، حتى لا انفصال بينهما.. وقد خلا تاريخ الإسلام من النزاع بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية.. فأنجاه ذلك مما ترك هذا النزاع فى تفكير الغرب وفى اتجاه تاريخه»[٥].

فهـو هنا يجعل الحضارة الإسلامـية والدين الإسلامى بلاغًا إلهيًـا إلى الرسول ﷺ، ويؤكد أن النبـى: كما أقـام الدين، فلقد وضع أسـاس الحضارة، وأنهـما، لذلك «لا انفصال بينهما» كما ينبه على تميّز التاريخ الإسلامى عن تاريخ الغرب فى العلاقة بين الدين والدولة.. الأمر الذى يجعل من السـفاهة الفكرية استعارة حل غربى ـ هو العلمانية ـ لمشـكلة لم يعرفها الشرق ـ وهى الكهانة واستـبداد الكنيسة بالدولة والسلطة الزمنية ـ.

* * *

• غمز الأصدقاء!

ولقـد أثار هذ التحـول الفكرى للدكـتور هيكـل ردود أفعـال حتى عند أقـرب أصدقائه إليه.. فكتب الدكـتور طه حسين (١٣٠٦ ـ ١٣٩٣هـ ١٨٨٩ ـ ١٩٧٣م) عن كتاب هيكل (حياة محـمد) معتبراً إياه تحولاً فكريًا يخدم «الـسلفية التقليدية»، ومحاولة غـير علمية للبـرهنة العلمية على عقـائد الدين، التى لا تخضع للعلم.. وتطبيقًا ـ من الدكتور هيكل ـ لمنهج الإمام محمد عبده (١٢٦٥ـ ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ـ ١٩٠٥م) ـ الذى عفا عليه الزمن.. وأصبح رجعيًا متخلفًا ـ فى التوفيق بين العلم والدين، والعصـر والتراث!!.. كتب طه حسـين يقول عن كتاب صـديقه هيكل: «لقـد أراد حسـين هيكل أن يُخـضع تاريخ تلك الفـترة البطوليـة (حيـاة محـمـد) للدراسـة وفق المنهج العلمى الدقـيق، فـتناول كل شىء بالنقـاش والتـحليل. ولكن مؤدى ذلك كله خروج السلفية التقليدية ظافرة على الدوام. فقد نسى حسين هيكل أن بعض الوقـائع لا تخـضع ولا يمكن أن تخـضع لضوابط العلم. ومثـال ذلك: البرهنة علـى أن إسماعـيل، وليس إسحاق، هو الذى واجـه محنة الفـداء، والتدليل بطريقة علمـية على إمكان الرحلة التى قـام بها النبى ﷺ، حينمـا أسرى من مكة إلى بيت المقدس وعاد فى غـضون ليلة واحدة، وهلم جرا.. وقد طبق حسين هيكل فى كتابه منهج جمال الدين الأفـغانى ومحمد عبده فى التوفيق بين العـقيدة الإسلامية وبين العلم والحضارة المعـاصرة.. وهو منهج لم يعد مواكبًا للعـصر؛ فلقد صارت كل أفكار محمد عبده بشأن العلم والدين بالية.. وقليل هم المسلمون الذين يهتمون بالتوفيق بين إيمـانهم والمعارف التى حصّلوها وهم يندفعون بابتهـاج نحو الحضارة

الغربية ويتخذونها مثلاً أعلى.. وصار المتمسكون بآراء محمد عبده يُعدون محافظين، بل ويُدرجون أحيانًا بين المتخلفين..»[٦]!!

هكذا كتب طه حسين عن التحول الفكرى لهيكل - فى (حياة محمد) عن المرجعية الغربية إلى المرجعية الإسلامية - فرآه تحولاً عن «التقدمية» إلى «الرجعية» وعن «التجديد» إلى «التقليد» لا يخدم إلا «السلفية التقليدية الظافرة»!

وبدلاً من أن يغضب هيكل من هذا الذى وصف به طه حسين تحوله الفكرى.. ذهب فسطر - بعد عامين من صدور (حياة محمد) فى كتابه (فى منزل الوحى) صفحة من أعمق صفحات النقد الموضوعى للتغريب، تحدث فيها عن أسباب ومنطلقات هذه التحولات الفكرية عن المرجعية الغربية إلى مرجعية الإسلام.. كتب هيكل يقول: «وأقف هنا لأدفع زعما حسب الذين زعموه أنه مَغْمَزٌ «غمزونى به بعد تأليف كتابى (حياة محمد). حَسْبُ هؤلاء أننى انقلبت بكتابة السيرة رجعيًا، وكنت عندهم قبلها فى طليعة المجددين.. لكنى أُسائل أصدقائى، أحرار الرأى، عن غايتنا جميعًا حين ننتج؟ ألسنا نبتغى التقدم خطوة جديدة فى سبيل الكمال؟ ولقد طالما التمسنا فى شرقنا أسباب النهوض بعلمنا، لنقف إلى جانب الإنسانية المهذبة، لا ينكس الخجل رءوسنا، ولا يحز فى نفوسنا ذلك الشعور الممض بأنا دون الغرب مكانا.

ولقد خُيِّل إلىَ زمنا، كما لا يزال يخيل إلى أصحابى، أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا إلى هذا النهوض.. وما أزال أشارك أصحابى فى أنا ما نزال فى حاجة إلى أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله.

ولكنى أصبحت أخالفهم فى أمر الحياة الروحية، وأرى أن ما فى الغرب منها غير صالح لأن ننقله، فتاريخنا الروحى غير تاريخ الغرب، وثقافتنا الروحية غير ثقافته. خضع الغرب للتفكير الكنسى على ما أقرته «البابوية» المسيحية منذ عهدها الأول، وبقى الشرق بريئًا من الخضوع لهذا التفكير، بل حوربت المذاهب الإسلامية التى أرادت أن تقيم فى العالم الإسلامى نظامًا كنسيًا أهول الحرب، فلم تقم لها فيه قائمة أبدًا. بذلك بقى الشرق مطهرًا من الأسباب التى أدت إلى اضطراب الغرب الروحى وإلى ثوراته السياسية التى نشأت عن هذا الاضطراب،

وبقي المسيحيون المقيمون في الشرق في جوار المسلمين في طمأنينة لا يَصْلَوْنَ من نيران الثورات والحروب الأهلية ما كان يصلاه إخوانهم في الغرب.

كان الخروج على الكنيسة المسيحية في الغرب إعلانا للثورة على السلطان. وكانت الثقافة الروحية لذلك في قبضة رجال الدين، يبرمون من أمرها ما يشاءون إبرامه، وينقضون ما يشاءون نقضه.. أما والإسلام لا يعرف الكنيسة، وأقرب الناس فيه إلى الله أتقاهم، ولا فضل فيه لعربي على عجمي إلا بالتقوى، فقد بقيت الثقافة الروحية في الشرق حرة طليقة لم تقيد إلا حين قعد الجهل بالناس ففترت الأذهان وخمدت القرائح وجمدت القلوب، لم تعرف عصور الازدهار الإسلامي قيداً لحرية الفكر ما كان صاحبه بريء القصد يبتغي برأيه سبيل الحق، ولم يعرف المسلمون أن الذنوب يغفرها غير الله.

كيف نستطيع أن ننقل ثقافة الغرب الروحية لننهض بهذا الشرق؟ وبيننا وبين الغرب في التاريخ وفي الثقافة الروحية هذا التفاوت العظيم؟! لامفر، إذاً، من أن نلتمس في تاريخنا وفي ثقافتنا وفي أعماق قلوبنا وفي أطواء ماضينا هذه الحياة الروحية نحيي بها ما فتر من أذهاننا وخمد من قرائحنا وجمد من قلوبنا.

إن التوحيد، الذي أضاء بنوره أرواح آبائنا، قد أورثنا من فضل الله سلامة في الفطرة هدتنا إلى تصور الخطر فيما يدعو الغرب إليه، وإلى أن أمة لا يتصل حاضرها بماضيها خليقة أن تضل السبيل، وإلى أن الأمة التي لا ماضي لها لا مستقبل لها، ومن ثم كانت الهوة التي ازدادت عمقا بين سواد الأمم في الشرق والدعوة إلى إغفال ماضينا والتوجه وجهة الغرب بكل وجودنا، وكان النفور من جانب السواد عن الأخذ بحياة الغرب المعنوية، مع حرصه على نقل علومه وصناعاته. والحياة المعنوية هي قوام الوجود الإنساني للأفراد والشعوب. ولذلك لم يكن لنا مفر من العودة إلى تاريخنا نلتمس فيه مقومات الحياة المعنوية.. لم ألبث حين تبينت هذا الأمر أن دعوت إلى إحياء حضارتنا الشرقية.. فأين هذا من تملق الجمهور أو متابعته التماسا لرضاه.. كما يزعم الذين يغمزون؟!!..».

هكذا، رد الدكتور هيكل على المتغربين ـ الذين كان واحداً منهم ـ وأوضح لهم

ما كان قد خفى عليه، ولا يزال خافيًا عنهم، من أن منطلقات النهضة الشرقية لابد وأن تعتمد المرجعية الإسلامية، باعتبارها «قوام الوجود الإنسانى للأفراد والشعوب» مع الأخذ عن الغرب «علومه وصناعاته»؛ لأننا لسنا غربًا فى قوام الوجود ـ الحياة الروحية ـ على مر التاريخ!..

فالقضية ليست تحولاً عن التقدمية إلى الرجعية، ومن التجديد إلى سلفية التقليد ـ كما توهم الدكتور طه حسين والذين غمزوا الدكتور هيكل عندما كتب (حياة محمد) ـ وإنما هو تحول «الخبرة والمعاناة والتجربة.. وبعبارة الدكتور هيكل: «فلقد حاولتُ أن أنقل لأبناء لغتى ثقافة الغرب المعنوية والروحية، لنتخذها جميعًا هدى ونبراسًا.. ولكننى أدركت، بعد لأى، أننى أضع البذر فى غير منبته، فإذا الأرض تهضمه ثم لا تتمخض عنه، ولا تبعث الحياة.. هذا كلام واضح بيِّن.. ومن عجب أن يخفى على أصحابى، فلا يرونه، وأن يكون خفاؤه سبب تثريبهم علىَّ!. ولكن، لا عجب، فقد خفى هذا الكلام عنى سنوات، كما لا يزال خفيًا عن كثيرين منهم!!».

وإذا كانت هذه العبارات «الوثيقة» قد مثلت صفحة متألقة فى شجاعة الرأى عندما يعلن صاحبه عن تحولات مسيرته الفكرية، ودرجات صعوده على سلم الاجتهاد.. فإنها لا تزال الجواب النموذجى لتساؤلات الحيارى الذين أصابهم الإحباط من فشل مشاريع التحديث الغربية فى بلادنا عبر قرنين من الزمان.. من الليبرالية.. إلى القومية، بالمعنى الغربى.. إلى الماركسية والشيوعية ـ بألوان طيفها المتعددة: لينينية، وماوية، وجيفارية، وتيتوية ـ وبقاء قلب الأمة لا يخفق إلا للإسلام وتراثه وتاريخه وحضارته.. وبقاء ملكات شعوب الشرق الإسلامى لا تتفتح إلا على دعوة الإسلام.. وبقاء آذانها لا تلبى إلا لمن يؤذن ـ من داخل سورها الحضارى ـ بنداء الإسلام!

فنحن، مع الدكتور هيكل، أمام حقيقة حضارية، بلغ الرجل الذروة فى الإخلاص الفكرى عندما عبر عنها هذا التعبير الشجاع والعميق!

* * *

● نقد الفرعونية

● وغير الوافد الغربى فى «القومية» و«العلمانية» كان الدكتور هيكل قد ذهب، فى مرحلة من حياته الفكرية، يلتمس نموذج النهضة ومرجعيتها فى «الفرعونية المصرية القديمة».. وكان ذلك بعد أن تيقن استحالة النهضة الشرقية بوافد الحضارة الغربية، فذهب يبحث فى «أصالتنا» عن طورها الفرعونى القديم.. ويومئذ ظن أن «النموذج الفرعونى» القديم ـ وهو تراث مصرى أصيل ـ قد يكون صالحًا للبعث، كمشروع للنهضة المصرية المنشودة.

ـ وكان لهذا النزوع، فى مصر، قرناء إلى «الفينيقية» بالشام وإلى «الأشورية والبابلية» فى العراق ـ فأخذ الرجل يبشر ـ مع آخرين ـ بالفرعونية، مرجعية للنهوض والتقدم.. ثم اكتشف أنها، هى الأخرى، وهم من الأوهام، فلقد غدت تاريخًا يدرسه المتخصصون.. تاريخًا نعتز به ونتيه، لكن حاضر الأمة وعقلها ووجدانها قد انطبعت بطابع جديد، وصيغت صياغة جديدة، قوامها ومقوماتها الإسلام ـ الذى استوعبت حضارته كل العناصر الحية فى الميراث القديم.

أدرك الدكتور هيكل ذلك، فكتب عن هذا المنعرج من منعرجات رحلته الفكرية يقول: «.. ولقد انقلبت (أى بعد مرحلة الانبهار بالغرب) ألتمس فى تاريخنا البعيد، فى عهد الفراعين، موئلا لوحى هذا العصر، ينشأ فيه نشأة جديدة، فإذا الزمن وإذا الركود العقلى قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذرًا لنهضة جديدة.

ورُؤْتُ ـ (أى نظرت) ـ فرأيت أن تاريخنا الإسلامى هو وحده البذر الذى ينبت ويثمر، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو، ولأبناء هذا الجيل فى الشرق نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتى ثمرها بعد حين..»[٧].

هكذا طوف الرجل، عبر نحو نصف قرن من الحياة الفكرية الخصبة، باحثًا عن مصدر النور الذى يصلح لإنارة طريق الأمة، ليأتى منه بقبس ترى فى ضوئه معالم النهوض والتقدم والانعتاق من إسار التخلف والجمود والفتور وإذلال الاستعمار.. فلم يجد أصلح ولا أنسب ولا أنجع ولا أهدى من نور الإسلام.. وكانت لديه الشجاعة التى جعلته يكتب هذا الذى كتبه عن تحولات مسيرته

الفكرية.. ومع هذه الشجاعة، كانت لديه العبقرية التى جعلته يبدع الجديد فى موقعه الجديد!..

* * *

ولقد صنع الدكتور هيكل كل ذلك، دون أن يتخلى عن منهج الاستنارة فى البحث والنظر.. وأكد ذلك، وهو يرد على الذين قرنوا مرحلة «تغريبه» بـ«التقدمية والتجديد»، ومرحلة «إسلاميته» بـ«السلفية والرجعية والتقليد».. فقال: «إننى لم أنقيد فى تفكيرى وتأملى أمام شىء مما رأيت بغير منطقى وعقيدتى الذاتية، اللذين كونتهما الطريقة العلمية الحديثة. فأنا لا أُسلّم بالعقيدة الموروثة إذا لم يكن لها أساس غير ما وجدنا عليه آباءنا، ما لم أمتحنها وأمحصها وما لم أصل من أمرها إلى الإيمان بأنها هى الحقيقة كما يسيغها عقلى ويطمئن إليها ضميرى. وأنا لا أحسب الذين يدينون بعقيدة ما لغير شىء إلا أنهم وجدوا عليها آباءهم مؤمنين حقًا..»[٨]!..

فأقام الدليل على أن تحوله إلى المرجعية الإسلامية، فى التقدم والنهوض، إنما هو ثمرة للاستنارة بالمنهج العلمى فى البحث والنظر، وليس على حساب هذا المنهج، كما توهم الذين يغمزون ويلمزون!

* * *

• الهوامش

(١) (الإسلام وأصول الحكم) ص٤٩، ٦٤، ٦٥، ٦٩ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥م.

(٢) صحيفة (السياسة) عدد ١ سبتمبر سنة ١٩٢٥م.

(٣) مجلة (رسالة الإسلام) عدد مايو سنة ١٩٥١م.

(٤) (فى منزل الوحى) ص٢٢ ـ ٢٦ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧م.

(٥) (حياة محمد) ص٢٣٦، ٢٣٨، ٢٣٩، ٥١٦، ٥١٩ طبعة القاهرة سنة ١٩٨١م.

(٦) د. طه حسين (من الشاطئ الآخر. طه حسين فى جديده الذى لم ينشر سابقًا) ص٦٥، ٦٦، ٦٢، ٣٧ وهذا الكتاب نصوص فرنسية لطه حسين، جمعها وترجمها ونشرها: عبد الرشيد الصادق محمودى. طبعة بيروت سنة ١٩٩٠م.

(٧) (فى منزل الوحى) ص٢٢ ـ ٢٦.

(٨) المرجع السابق ص١٢.

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع	الصفحة

رقم الإيداع ٢٨٨٧ /٢٠٠٣
الترقيم الدولى 9- 0914 - 09 - 977 .I.S.B.N

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطي شبرا القاهرة
ت : ٥٧٨٧٩١٨ - ٥٧٩٩٩٤٢
الرقم البريدي : ١١٢٣١

هذا الكتاب

• إن طمع الغرب في الشرق له تاريخ قديم!

- فمن الإسكندر الأكبر.. وحتى الفتوحات الإسلامية: عشرة قرون من القهر الإغريقي والروماني للشرق!

• وهناك قرنان من الحروب الصليبية.. ثم خمسة قرون من الغزو الغربي الحديث للشرق الإسلامي، بدأت بسقوط الأندلس، ولا تزال ممتدة حتى الآن!

• وللانتصار على هذه التحديات - الطامعة في احتلال الأرض.. وتغريب العقل.. ونهب الثروات.. وتنصير المسلمين!. لابد من فقه القوانين الحاكمة لهذا الصراع الذي فرضه الغرب الاستعماري على الإسلام..

وذلك حتى لا نقع في «التهويل»: فننسى أن هذا الشرق قد كان دائما وأبدا مقبرة الغزاة!.. وحتى لانقع في «التهوين»، فنظن أن تحديات اليوم - الأمريكية الصهيونية - ليس لها تاريخ!.

• وللوعي بفقه تحديات هذه المواجهة: يصدر هذا الكتاب.